الجمهـــورية الجزائرية الديموقراطيــة الشعبية

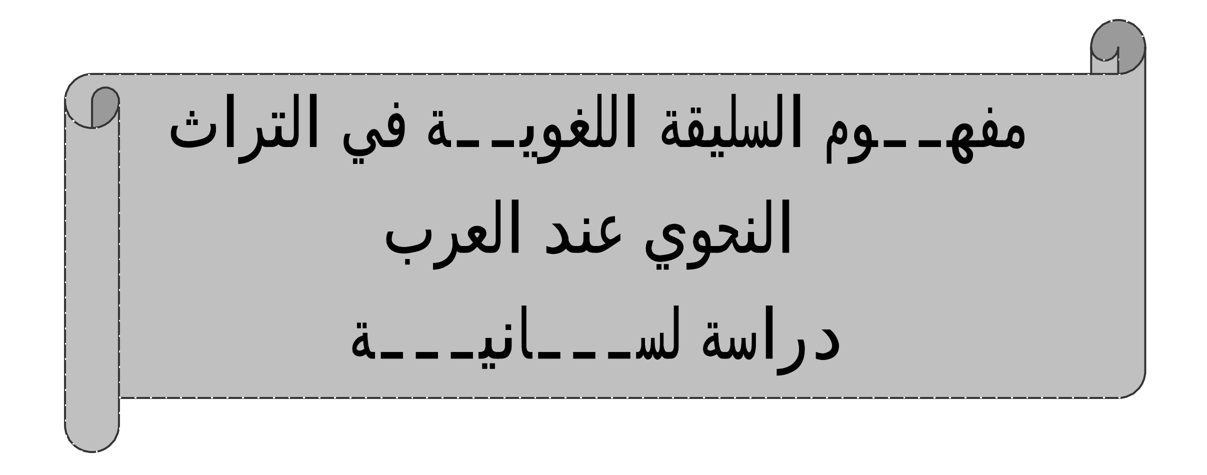
وزارة التعليم العـــالي و البحث العلمـــي

جـــــامعة الجزائر

كلية الآداب و اللغــــات

قســـم اللغـــة العربيـــة وآدابهـــا

موضـــوع البحث :



مذكرة معدة لنيل شهادة الماجستير في علوم اللســـان

من إعداد الطالب :

مصطفى بوجمـــالة

إشراف الأستـــاذ :

الدكتـــور سالم علوي

<u>أعضـــاء لجنـــة المناقشـــة :</u>

الدكتور : محمـــد العيد رتيمة.... رئيســـا
الدكتور : منيدني .... عضـــوا
الدكتـــور : الحبـــاس.............. عضـــوا
الدكتـــور : سالم علوي .... مشرفـــا

السنـــة الجامعية 2002-2003 م

بسم ا   الرحمن الرحيم

ولَقَد نعلَم أنهم يقُولُونَ ِإنما يعلِّمه بشر،ِلسانُ الذِي يلْحِدونَ ِإلَيهِ أعجمِي و هذَا ِلسانٌ عربِي مبِين

"إن الملكات إذا استقرت و رسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعية و جبلة لذلك المحل. و لذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم إعرابا و بلاغة أمر طبيعي. و يقول: كانت العرب تنطق بالطبع و ليس كذلك، و إنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت و رسخت فظهرت في بادىء الرأي أنها جبلة و طبع."

(المقدمة .ابن خلدون)

الإهـــــداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى كل هؤلاء الذين كانت لهم بصمات حية و آثار طيبة في حياتي، و في مقدمة هؤلاء والداي اللذان بذلا الغالي و النفيس في سبيل إسعادي. وأتمنا لهما صلاح المعاش والمعاد، و كل ما علي من دين إزاءهما أن أدعو لهما دعاء الابن البار بوالديه.

كما أهديه إلى زوجتي و إلى أبنائي الذين صبروا علي كثيرا طيلة مراحل إنجاز هذا البحث.

و إلى إخوتي و أخواتي جميعا، أرجو لهم رخي العيش موفوره.

و إلى كل الشموع التي احترقت لتضيىء لنا دروب العلم و المعرفة و لتخرجنا من ظلمات الجهل و الحماقة. وفي هذا المقام لا يسعنا إلا أن نقف أمام كل شمعة تحترق وقفة إجلال و تقدير و عرفان، و نرجو من العلي القدير أن يجمعهم مع الأنبياء في مستقر رحمته.

إلى هؤلاء جميعا كل معاني المودة و الإخلاص، و لهم منا جزيل الشكر و عظيم الامتنان.

المقدمـــــة:

تكونت فكرة هذا البحث منذ أن انتسبتُ إلى قطاع التعليم الثانوي مدرسا لمادة اللغة العربية و آدابها. فبعد رحلتي المتواضعة مع طلبتي، وما نال مما فيها من الجهد و الضنى، أدركت أن متعلمينا قاصرون في الغالب على التحكم في اللغة العربية و التصرف فيها على الرغم من كونها لا تفارقهم مع باقي مواد التعلم دون اللغات الأجنبية. وهذه الملاحظة يتقاسمها جلّ مدرسي اللغة و الأدب العربي. إنها حقا عقبة في طريق شبابنا المتعلم.

و في سبيل بلورة هذه الفكرة رحت أستشير أهل الرأي و المشورة ممن هم أكثر منا خبرة و دراية في هذا الشأن، فحطت بي راحلتي عند الأستاذ الدكتور سالم علوي -أطال ا في عمره و ألهمه صلاح المعاش و المعاد- فاستحسن الموضوع، و قبل الإشراف على هذا البحث فكان نعم المعين.

أما موضوع البحث فقد تم بسطه في تسعة فصول، حاولت فيها جهدي تقصي جوانب هذا الموضوع من خلال تصفح و تفحص جملة من المصادر و المراجع في تراثنا اللغوي و النحوي قديما و حديثا مما أعانني على الإحاطة بما يخدم فصول هذا البحث المتواضع وفق المنهج المسطر.

ففي الفصل الأول الذي عنوانه:(تحديد مفهوم السلية اللغوية)، رحت أتقفى مفهوم السليقة اللغوية لغة و اصطلاحا وكيف أن هذا المفهوم ارتبط برقعة الفصاحة اللغوية حيث العرب الأقحاح الضاربون في أعماق شبه الجزيرة العربية الموغلون في البداوة مما جعلهم يحافظون على سلامة ألسنتهم من آثار العجمة.

و الفصل الثاني عنوانه: (الاحتجاج في اللغة العربية)، وفيه تناولت مختلف العلوم التي يستشهد بها، وفي مقدمتها القرآن الكريم ثم السنة الشريفة، ثم كلام العرب شعره ونثره على اعتبار ذلك أجود النصوص المحتج بها لكونها تمثل عصر الفصاحة اللغوية الخالي من الشوائب.

و الفصل الثالث عنوانه: (تحصيل الملكة اللسانية)، وفيه يتضح رأي العلامة ابن خلدون في اللسان العربي، وكيف يتم حصول الملكة اللسانية عن طريق حفظ القرآن الكريم وجيد كلام العرب منظومه و منثوره، واختلاف الاستعداد لتحصيلها بين العربي و المستعرب و الأجنبي، و عرض ذلك على الدراسات اللغوية الحديثة.

الفصل الرابع عنوانه: (الملكة اللسانية و دراسة اللسان العربي)، وفيه يقدم العلامة آراء جريئة في علاقة علوم اللسان بالملكة اللسانية، ومدى إمكان الاستغناء عن قوانين الإعراب وتعويضها بقرائن الكلام ما دام ذلك يؤدي الفائدة و يحقق المقاصد من الكلام فيما يرى.

الفصل الخامس عنوانه: (السليقة اللغوية عند المحدثين)، وفيه عرجنا على مفهوم السليقة اللغوية عند علماء اللغة المحدثين في تراثنا العربي، و عند علماء اللغة الغربيين. و تجدر الإشارة ههنا إلى فضل سبق أسلافنا إلى اكتشاف أسرار اللغة و سبر أغوارها بقرون على علماء الغرب.

الفصل السادس عنوانه: (مناهج البحث في اللغة)، وفيه عرض لتطور الدراسات اللغوية عامة و العربية خاصة وما اعترضها من عقبات في كل ميدان، و بيان مدى حظ هذه الأخيرة من هذه المناهج.

الفصل السابع عنوانه: (اللغة بين الطبع و الصنع)، وفيه بينا أن اللغة تمر بدورة من مراحل ثلاث هي الطاقة أو القدرة، ثم تفعيل هذه الطاقة وقدرتها على الإنتاج و هذه هي السليقة، ثم الإنتاج نفسه المتمثل في الكلام المنطوق الحي، فالإنسان يسمع فتنطبع في ذهنه آثار ما سمع،, و يستطيع بعد توليد الكلام انطلاقا من هذا المخزون. فإن كان هذا الأخير فصيحا كان الكلام المولد فصيحا كذلك، و إن كان عاميا جاء المنطوق على منواله، فللبيئة اللغوية سلطان كبير على تشكيل اللغة وبنائها قوة و ضعفا، بين الطبع و التكلف.

الفصل الثامن عنوانه: (القياس اللغوي)، وفيه تم التعريف بالقياس لغة و اصطلاحا مع بيان الحاجة إليه، و أصوله و أركانه. ثم إبراز موقف كل من مدرستي البصرة و الكوفة من القياس، و كيف أن هذا المبدأ يوفر لنا المرونة الكافية في تلبية حاجاتنا المتجددة مما وعته الحضارة الحديثة.

الفصل التاسع عنوانه: (النحو العربي واقع و آفاق)، وفيه إطلالة على الواقع المر الذي يعيشه الدرس النحوي في البلاد العربية، فلقد أضحى –حقا- عقبة في طريق تحصيل الملكة اللسانية للمتعلمين، وبينا جهود العلماء لتجاوز هذه المشكلات قديما و حديثا مع انتقاد طرائق التدريس السائدة التي كانت سببا في نفور الشباب المتعلم من الدرس النحوي، مع تقديم تصور لمنهج جديد في تدريس هذا النشاط، قائم على انتقاء الآثار

الأدبية الرفيعة المستوى أسلوبا و بلاغة قديمها و حديثها، مامن شأن ذلك أن يعمل على تحصيل الملكة اللسانية لدى المتعلمين.

الفـصـل الأول:

- تحديد مفهوم السليقة اللغوية.
- تحديد رقعة الفصاحة اللغوية.
- سر تغلب لهجة قريش على سائر اللهجات العربية.
- دور السماع في تكوين السليقة اللغوية.

1- تحـديد مفهوم السليقة اللغوية:

إن مصطلح السليقة و التعريف به لا يحوط به الوصف، و لا يجمعـه محتـواه لفظ، لأنه إحساس متمكن في نفوس العرب، به يدركون الصواب من الخطإ و الكـلام الصحيح من الكلام الفاسد، و المستقيم منه من المحال.

و السليقة جبلية طبيعية في نفوسهم، عفوية في مداركهم، بها يتوصـلون إلـى الحقيقة الدلالية بدون مراجع مزبورة يعودون إليها، و إنما يشعرون بها وفـق ذواتهـم و محيطهم، و حسهم اللغوي المشترك بينهم.

و على هذا الأساس نجد المعاجم العربية عاجزة عن التعريف بهذا المصطلح بل ابتعدوا عنه، ذلك ما نجده عند ابن منظور في معجمه الكبير " لسان العرب "

فقد جاء فيه: " سلق: السـلق: شدة الصوت. و سلق لغة في صلق أي صاح.

و يقول الأصمعي: الصوت الشديد و غيره بالسين.

و روي عن النبي صلى ا عليه و سلم، أنه قال: ليس منا من سلق أو حلق. و عـن أبي عبيدة: سلق يعني رفع صوته عند موت إنسان أو عند مصيبة.

و قال ابن المبارك: من سلق أي خمش وجهه عند المصيبة، و من السلق رفـع الصوت، قولهم:خطيب مسلق، و سلقه بلسانه، سلقه سلقا: أسمعه ما يكره فأكثر.

و سلقه بالكلام سلقا إذا آذاه، و هو شدة القول باللسان.

جاء في محكم التنزيل: " سلقوكم بألسنة حـداد *. أي بـالغوا فـيكم بـالكلام و خاصموكم في الغنيمة أشد مخاصمة و أبلغها. و يقول الفراء: سلقوكم بألسنة حـداد أي عضوكم. و نقول: لسان مسلق: حديد ذلق. و لسان مسلق و سلّاق: حديد.

و خطيب سلّاق: بليغ في الخطبة. و في حديث علي رضوان ا عليه: ذاك الخطيـب المسلق. و يقال: مسلق و مسلاق إذا كان نهاية في الخطابة.

قال الأعشى:

فيهم الحزم و السماحة و النجـ *** ـدة فيهم، و الخاطب السلاق

و الخطيب المسلاق: البليغ، و هو من شدة صوته و كلامه".1

---

* سورة الأحزاب، الآية 19

1- ابن منظور. لسان العرب ص 61.

و تقول: " الكرم سليقته، و السخاء خليقته، و هو يتكلم بالسليقة، و كلام سـليقي و رجل سليقي".[1]

" و السليقة: الطبيعة و السجية. و فلان يقرأ بالسليقة أي بطبيعته لا بتعلم.

و قيل: يقرأ بالسليقية - وهي منسوبة- : أي بالفصاحة. من قولهم سـلقوكم وبطبعـه الذي نشأ عليه و لغته. و يقول أبو زيد: إنه لكريم الطبيعة و الـسليقة؛ و يقـول ابـن الأعرابي: و السليقة المحجة، و طبع الرجل. و السليقي من الكلام ما لا يتعاهد إعرابه و هو فصيح بليغ في السمع عثور في النحو. و السليقي من الكلام ما تكلم به البـدوي بطبعه و لغته، و إن كان غيره من الكلام آثر و أحسن، و في حـديث أبـي الأسـود الدؤلي: أنه وضع النحو حين اضطراب كلام العرب و غلبت السليقة أي اللغـة التـي يسترسل فيها المتكلم على سليقته أي سجيته و طبيعته من غير تعمد إعراب و لا تجنّب لحن .قال:

و لست بنحوي يلوك لسانه *** و لكن سليقي أقول فأعرب

أي أجري على طبيعتي و لا ألحن ".[2]

و انطلاقا من هذه المعاني المتّصلة بالسليقة اللغوية نجد أن الأقدمين من علمـاء العربية قد سيطرت عليهم فكرة مفادها أن أمر الكلام بالعربية يرتبط ارتباطـا وثيقـا بالجنس العربي، و لذا نجدهم ينكرون على الفارس أو على اليوناني إمكان إتقان هـذه اللغة كما يتقنها أهلوها من العرب مهما بذلوا من جهد في تعلمها، وثابروا في المـران عليها، بل يظلّون في رأيهم أجانب عن هذه اللغة كما هم أجانب عن الجـنس العربـي فكأنّما تصور هؤلاء أن هناك أمرا سحريا يمتزج بدماء العـرب، و يخـتلط برمـالهم و خيامهم. و هو سر السليقة العربية، يورثه العرب لأطفـالهم، و ترضـعه الأمهـات لأطفالهن في الألبان. و لذا لم يتورع الرواة عن الأخذ من صبيان العـرب و الروايـة عنهم. و لذا لم يروا في شعر أبي تمام و المتنبي ما يؤهلهما لتلك السليقة اللغوية التـي قصروها على جنس معين و على زمن معين، و قصروها على بيئة معينـة تخـتص بالعرب دون غيرهم من الأجناس، مغالين في الحرص على العربية و الاعتزاز بها. فقد

---

1 – محمود بن عمر الزمخشري. أساس البلاغة - ص 305 .

2 – ابن منظور. لسان العرب - ص 161 .

روي عن أن الرسول صلى ا عليه و سلم حين سمع أن منافقا نال من عروبة سلمان الفارسي، دخل المسجد مغضبا و قال: أيها الناس إن الرب واحد، و ليـست العربيـة بأحدكم من أب و لا أم، و إنّما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي.

نفهم من قوله صلى ا عليه و سلم أن اللسان العربي ملك جميع من يتكلم بـه دون مراعاة للجنس.

فقد يمر الطفل حين يتعلم لغة أبويه بمراحل معينة تتطلب منـه جهـدا كبيـرا و زمنا طويلا يعسر عليه فهم معانيها، بعد ذلك يستطيع الكلام بهـذه اللغـة بـسهولة و يسر و فهم في غير تكلف و لا تصنع، فلا يكاد يخطر المعنى بباله حتى ينطق بمـا يعبر عن هذا المعنى بتلك الطرائق و الأساليب المتعارف عليها، و التي عاشـها فـي بيئته التي نشأ فيها إذ لا يخطئ فيها و لا ينحرف عنها، بل تتم عملية الكلام في صورة آلية دون شعور بخصائصه، و مثله حينئذ مثل راكب دراجـة يـشعر شـعورا قويـا بحركات يديه و رجليه في أثناء تعلم الركوب، فإذا تم له ذلك أمكنه أن ينسى أو يتناسى كل شيء عن دراجته و هو على متنها، فلا يكاد يشعر بحركاته أو سكناته.

و كذلك الطفل يظل يشعر شعورا قويا بتركيب الأصـوات فـي لغـة أبويـه و اختلاف الصيغ فيها، و الربط بين الكلمات في الجمل و العبارات المختلفة حتى تـتم مراحل النمو عنده، فيصبح و قد سيطر على كل هذا سيطرة تامة فيتمكن مـن لغتـه و يأخذ بزمامها؛ فلا يتردد و لا يتلعثم، و لا يفكر في خصائص تلك الأصوات أو تلك العبارات بل يرسل القول على سجيته، و بحسب ما تعود عليه في صغره فإذا تم له هذا تمت له السليقة اللغوية.

و من هنا يمكن أن نميز بين نوعين من المتكلمين باللغة؛ منهم مـن يـشعرون بخصائصها، و منهم من لا يكادون يشعرون بتلك الخصائص.

فالنوع الأول يخص العالم بأسرار هذه اللغة، فإن معرفته لظاهرة اللـسان هـي معرفة علمية محضة، وهي غير ملكته اللغوية التي اكتسبها مثل أي إنسان آخـر فـي اللغة التي يحكمها، و ليست هذه المعرفة إذا من قبيل الأفعال المحكمة التي بهـا يـسلم الكلام من الخطإ و اللحن بل هي من قبيل المعرفة النظرية البحتة لشؤون لغته. والنوع الثاني يخص هؤلاء الذين يرجعون إلى الملكة اللغوية التي اكتـسبوها فتمكـنهم مـن الاتصال مع غيرهم بالخطاب على الوضع الذي بنيت عليه لغتهم . فكل إنسان مفطور

على تلك الجبلّة، و هي القدرة على اكتساب وضع ما من بـين الأوضـاع التبليغيـة. فالمعلومات التي تتكون منها هذه الملكة هي معلومات غير شـعورية إلّـا إذا انعكـس شعور المتكلم عليها بالتأمل لكيفية أدائه لكلامه، و هذا يحدث كلما تعثّر لسانـ ـ ـ ـه أو أخطأ في ذلك الأداء. وهي في الحقيقة علم من قبل الفعل المحكم كما يقول علمائنـا القدامى. فمعرفة المتخاطبين لأوضاع اللغة و أحوالها التي يتخاطبون بها هي معرفـة علمية غير نظرية ارتسمت أنماطها و رسخت في نظامهم العصبي، فاستطاعوا بـذلك أن يحكموا أفعالهم، و هي تلك العمليات الخفية التي تحول أغراضهم إلى سياق منـتظم في الألفاظ الدالة على هذه الأغراض.

فمعرفتهم إذا إنما هي كما قال ابن جني (بالنسبة إلى الأعرابي الفصيح) " بالـ ـ ـقوة لا بالصنعة ". 1

فالسليقة إذا عند قدمائنا اللغويين و النحاة تمثل مرحلة من مراحل إتقان اللغـ ـة و إحكام أمرها حسب ما هو متداول و متعارف عليه دون التصرف فيها. و لعلّ أقـدم رواية و حوار وجد في هذه القضية ما دار بين الأصـمعي و الأعرابـي؛ " إذ سـأل الأصمعي الأعرابي: أتهمز إسرائيل ؟ قال: إني إذا لرجل سوء. ثم سأله أتجر فلسطين قال: إذ إني إذا لقوي ". 2 ثم حكى نفس العلّامة أنه قيل لأعرابي: أتهمز الرمح ؟ قال: نعم. قيل له: فقلها مهموزة، فقالها مهموزة. قيل له: أتهمز الترس؟ قال: نعم. فلم يـدع سيفا و لا ترسا إلاّ همزه. فقال له أخوه و هو يهزأ به: دعوا أخي فإنه يهمز الـسلاح أجمع.

و لقي الأصمعي أعرابيا خارجا من الصحراء، فأراد أن يعلّمه شيئا من القـرآن فقال له: اقرأ (قل يا أيها الكافرون). قال الأعرابي: (كل يا أيها الكافرون). فقال لـه: (قل يا أيها الكافرون) كما أقول لك، قال الأعرابي: ما أجد لساني ينطق بذلك.

و قال الأصمعي أيضا: (رأيت أعرابيا و معه بني صغير ممسك بفم قربة و قد خاف أن تغلبه القربة، فصاح: يا أبتِ، أدرك فاها، غلبني فوها، لا طاقة لي بفيها" 3.

---

1 – ابن جني . الخصائص ج 3 ص. 275 .

2 – ابنن سلام الجمحي. طبقات الشعراء 9/1 .

3 – ابن سلام الجمحي. طبقات الشعراء - ص 11 –

و من ذلك ما ورد في رواية تنتهي عند أبي حاتم السجستاني. أنه قـال: قـرأ أعرابي " طيبي لهم و حسن مآب" فقلت: "طوبي" فقال: "طيبي" فأعدت فقلت: "طوبي" فقال: "طيبي"، فلما طال علي قلت: "طوطو"، قال: "طيطي" 1. فعلّق أبو حـاتم: "أفـلا ترى إلى هذا الأعرابي، و أنت تعتقده جافيا كزا، لا دمثا و لا طيعاً، كيف نبا طبعه عن مثل الواو إلى الياء، فلم يؤثّر فيه التلقين، و لا ثنى طبعه عن التماس الخفّة هـز و لا تمرين". 2

فهذا الأعرابي الجافي الطّبع الذي أغرق في بداوته، أصبحت الواو فـي غيـر محلّها أثقل عنده من الياء في محلّها، و صار تحويله و جره من نطق إلى آخر أمـرا مستحيلا.

"و سئل أحد من تميم يوما كيف تقول: ضربت أخوك. فقال: أقـول: ضـربت أخاك. فأدير على الرفع فأبى، و قال: لا أقول أخوك أبدا. فقيل لـه: فكيـف تقـول: ضربني أخوك؟ فرفع، فقيل له: ألست تزعم أنّك لا تقول: أخوك أبدا. فقال: أيش هذا؟ اختلفت جهتا الكلام " 3.

و ها هو ذا ابن جنّي يسأل أبى عبد ا الشجري: " كيف تجمع دكّانا و سرحانا و قرطانا و عثمان؟ فقال: دكاكين، و سراحين، و قراطين، و عثمانون. فقال له: هـلاّ قلت أيضا عثمانين؟ فقال: أيش عثمانين؟ أرأيت إنسانا يتكلّم بما ليس من لغته؟ و ا لا أقولها أبدا" 4.

و قال عمار الكلبي، و قد عيب عليه بيت من شعره لذلك:

ماذا لقينا من المستعربين و من *** قـ ـياس نحوهم هذا الذي ابتدعوا

إن قلت قافية بكرا يكون بـ ـها*** بيت خلاف الذي قاسوا أو ذرعوا

قالوا :لحنت و هذا ليس منتصبا*** و ذاك خفض ، و هذا ليس يرتفع

كم بين قوم قد احتالوا لمنطقه *** و بين قوم عـلى إعرابهم طبعوا

---

1 – د . محمود حجازي . اللغة العربية عبر القرون – ص 29 – دار الكتاب العربي القاهرة .

2 – المرجع السابق – ص 31 - .

3 – المرجع السابق – ص 32 - .

4 – عبد القادر بافقيه . تاريخ اليمن القديم – ص 203 – مطبعة الحرية بيروت – 1973 .

و الذي يهمنا من هذه الأبيات الشعرية لعمار الكلبي خاصة ما جاء فـي البيـت الأخير الذي يبين أن هناك فرقا شاسعا بين قوم لا يجدون من سبيل إلى النطق و الكلام إلّا بانتهاج السلوك القواعدي و اصطناع الحيل، و بين قوم مطبوعين، يتكلمون بالسليقة فلا يخطئون. وإذا سألتهم لماذا نطقت بالرفع لا بالنصب أو الجر، يجيبونـك: لا أدري لذلك من سبب واضح و إنّما يبدو لي بأنّه أوفق للآذان و أسهل على اللسان.

إن سوق مثل هذه الروايات عن الأعراب القدامى يوضح لنا- بلا شك - مـدى تمكن السليقة اللغوية في نفوسهم و استحالة جرهم إلى ما دون ما هو متعارف عليه في بيئتهم المحيطة بهم، بقاعدة أو نظرية أو قانون إنّما محك الصواب في ذلك مـا جبـل عليه في استخدام اللغة وفق المقامات المختلفة من غير تعلم و لا تلقين.

" إن هذه المطوعية التي كان الشعراء الكتّاب حريصين عليها يؤكد عليها اليـوم اللسانيون مثل نوام تشومسكي، و المربي جان بياجي. حيث يقول هـذا الأخيـر" أمـا الاتجاه الثاني، فيتميز بالعودة إلى عوامل الفطرة و النضج الـداخلي، و كـان لاـسان تشومسكي أثر كبير في هذه العودة غير المتوقعة، حيث يرى بأنه، على الرغم مـن أن التراكيب النحوية مرجعها إلى العوامل التحويلية (الإعراب) فإنها ترجـع أيـضا إلـى عوامل نفسية جينية. لذلك فهو يقرر بوجود نوع من السليقة في التعلم يـسميه النـواة أو البذرة، الفطرة الثابتة، و من تلك النواة أو البذرة يشتق الطفل مختلـف التراكيـب أو الـبـ ـ ـنى اللغوية المختلفة التي يستخدمها في سلوكه اللغوي" 1.

و ما يؤيد هذا القول أن الأعرابي القديم في سلوكه اللغوي الفصيح البليغ لم يكن يعلم بوجود المبتدإ و الخبر، أو الفعل و الفاعل و المفعول به أو غيرها من مواضـيع النحو المختلفة. كذلك الأمر بالنسبة إلى الشاعر القديم؛ فقد نظم شعره في كل مـوازين الشعر و أغراضه بإحكام و اقتدار مع أنه يجهل علم العروض الذي اخترعه الخليل ابن أحمد الفراهدي في القرن الثاني للهجرة. فإحكام اللغة و الأخذ بناصيتها و التفـنن فـي مجالات القول فيها وقتئذ إنما كان مرجعه إلى طبيعة العربي الخالصة و حسه اللغـوي الرفيع.

---

1 – د. حنفي بن عيسى . عن مقال له بعنوان " الأسس النفسية لاكتساب اللغة. مجلة التربية و التكوين (همزة الوصل) – ص 33 – العدد 1991 .

2- **تحديد رقعة الفصاحة اللغوية:**

إن ما حدث للغة العربية من اختلال و فساد و اضطراب بفعل امتزاج العرب بغيرهم من الأجناس المجاورة لجزيرتهم كبلاد فارس و الروم و الحبشة و غيرها جعل علماء اللغة يتوغلون في الصحاري و الفيافي للحصول على لغة صافية المشرب سليمة المأخذ خالية من الشوائب. و إنهم لم يكتفوا بهذا القدر بل راحوا ينقّبون عن أفصح القبائل لسانا، و أجودها انتقاء لأسهل الألفاظ عند النطق و أقربها إلى الذوق السليم. و هاهو ابن فارس يقول لنا أين وصلت أبحاث العرب في هذه المسألة: " أجمع علماؤنا بكلام العرب، و الرواة لأشعارهم و العلماء بلغاتهم و أيامهم و محالّهم أن قريشا أفصحوا العرب ألسنة و أصفاهم لغة " فأهم ما يجب التوقف عنده في هذا القول هو:

أولا الإجماع: و هو أمر أساسي بالنسبة لانتقاء قبيلة من بين عشرات القبائل الأخرى.

ثانيا: أن هذا الإجماع لم يصدر عن فئة معينة من العلماء يعودون من حيث النسب إلى قبيلة معينة، و إنّما هو أمر توصل إليه عل حد قول ابن فارس: العلماء بكلام العرب و الرواة لأشعارهم، و العلماء بلغاتهم و أيامهم و محالهم. و هو أمر لا يدع مجالا للشّك خاصة و أن المجمعين على هذا الاختيار يمثلون أطرافا مختلفة و هي تكون في جملتها صميم اللغة. و يواصل ابن فارس حديثه فيشرح لنا العلّة التي جعلت العلماء يجمعون عل أن قريشا أفصح العرب، يقول: " و ذلك أن الله جلّ ثناؤه اختارهم من جميع العرب و اصطفاهم، واختار منهم نبي الرحمة محمدا صلى الله عليه و سلم فجعل قريشا قطان حرمه، و جيران بيته الحرام و ولاته. و هذه كلها أسباب دينية كان من الطبيعي تقديمها على غيرها من الأسباب لما نعلمه من تأثير الدين في ذلك الزمان ، و لا شك أن الأحاديث التي رويت على الرسول صلى الله عليه و سلم من أنه قال: أنا أفصح العرب بيد أني من قريش" تزيد هذه الحجة قوة في أعين المسلمين. و قد نقل السيوطي في الاقتراح في أصول النحو عن الفراء حيث قال: " إن قريشا خلت لغتهم من مستبشع اللغات و مستقبح الألفاظ ..." 1.

---

1 – د. محمد رواس قلعجي . عن لغة القرآن هي لغة العرب المختارة – ص 42 – دار النفائس بيروت لبنان 1988.

و قد سئل علي كرم ا وجهه عن قريش فقال: " أما بنو مخزوم فريحانة قريش نحب حديث رجالهم و النكاح في نسائهم. و أما بنو عبد شمس فأبعدها رأيا و أمنعها لما وراء ظهورها. و أما نحن فأبذل لما في أيدينا، و أسمح عند الموت بنفوسنا.و هم أكثر و أمكر و أنكر. و نحن أفصح و أنصح و أصبح " 1.

و ابن فارس لا يقف عند حد الأسباب الدينية بل إنّه يرجع هذا الاختيـار إلـى موضع قريش السياسي و الاقتصادي؛ فقريش هي التي تعلم العرب مناسكهم، و إلى بلد القريشيين يفد الحجاج من كل صوب، و هي التي تحكم بينهم إذا تنازعوا. و ينهي ابن فارس حديثه بقوله: كانت قريش مع فصاحتها و حسن لغتها و رقّة ألـسنتها إذا أتـتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم و أشعارهم أحسن لغاتهم و أصفى كلامهم فاجتمع مع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم و سلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب. ألا ترى أنّك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم، و لا عجرفـة قـيس و لا كشكشة أسد و لا كسكسة ربيعة، و لا الكسر الذي تسمعه في أسد و قيس " 2.

و يظهر من كلام بني فارس أن قريشا على الرغم من فصاحتها و حسن لغتهـا أنها لم تكن ترفض ما تستحسنه من كلام غيرها من القبائل العربية الأخـرى فتـضيفه للغتها. و عملية التصفية هذه هي التي جعلت من قريش أحسن العرب لغـة. و نتيجـة لذلك أن لغة قريش بعيدة كل البعد عن العيوب الموجودة في لغات القبائل الأخرى فقـد سلمت من العجرفة و الكسكسة و الكشكشة و غيرها.

و يؤيد هذا القول ما نقله ابن منظور في معجمه الكبير لسان العرب من كـلام قتادة فقال: " كانت قريش تجتني أفضل لغات العرب، حتى صار أفضل لغاتهـا لغتهـا فنزل القرآن بها " 3.

و لم يأخذ اللغويون العرب عن قبيلة قريش وحدها بل أخذوا عن قبائل عربيـة أخرى محدودة معدودة رتبوها حسب المقدار المأخوذ عنها و الدليل على ذلك ما جـاء في المزهر على لسان الفارابي حيث يقول: " و الذين أخذ عنهم اللغة و بهم اقتـدي

---

1 – نهج البلاغة للإمام علي ج 4 – ص 28 – (بنو عبد شمس ومنهم بنو أمية. و نحن أي بنو هاشم)

2 – الصاحبي في فقه اللغة – ص 52 – بيروت 1964.3 –

3- د. محمد رواس قلعجي. عن لغة القرآن هي لغة العرب المختارة – ص 42 – دار النفائس بيروت لبنان ط1 1988.

و عنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس و تميم و أسد. فإن هؤلاء الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ و معضمهم و عليهم اتّكل في الغريب و في الإعراب والتصريف، ثم هذيل و بعض كنانة و بعض الطائيين، و لم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ".1

و هذا القول يبين المراكز التي أخذت منها اللغة الموثوق بها من إعراب و تصريف و غريب. و يواصل الفرابي تحديد الرقعة التي أخذ منها اللسان العربي فيحدد مناطق التي حرم الأخذ منها فيبدأ بالمدن ثم القبائل العربية المجاورة لسكان هذه الأمم فيقول: " فإنه لم يؤخذ لا من لخم و لا من جذام لمجاوتهم أهل مصر و القبط و لا من قضاعة و غسانة و إياد لمجاورتهم أهل الشام و أكثرهم نصار، يقرؤون بالعبرانية، و لا من تغلب و النمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانيين، و لا من بكر لمجاورتهم النبط و الفرس، و لا من عبد قيس لأنهم كانوا سكان البحرين مخالطين للهند و الفرس، و لا من أهل اليمن أصلا لمخالطتهم الهند و الحبشة، و لا من بني حنيفة و لا من ثقيف و أهل الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عنده، و لا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم و فسدت ألسنتهم "2.

فاختلاط الأجناس المختلفة إذا يفسد اللغة الأصلية، كما يعمل على فسادها أيضا ابتعاد الناطقين في سكناهم و مواقعهم عن مركز الفصاحة، إذ أن وجودهم في أطراف هذه الرقعة يضطرهم إلى أن يختلطوا حتما بمن يجاورهم من الأعالم.

إن ما يثير الانتباه في قول الفرابي هو استعماله كلمتي المجاورة و المخالطة، و لا شك في أن استعماله هذا لهاتين الكلمتين كان مقصودا إذ أنه كان نتيجة لملاحظة اللغويين الذين تجولوا في جميع أطراف الجزيرة العربية و شعابها، "فإن هذه الملاحظات التي بنوا عليها تحديدهم لرقعة الفصاحة قد أثبتتها التجارب الحديثة في الجغرافيا اللسانية"3.

و لو نظرنا إلى موقع القبائل التي أخذ عنها لتبين لنا أن جلّها كانت تسكن قلب الجزيرة العربية، فبعدت بذلك عن التأثيرات الخارجية و ضمن لها ذلك البعد سلامة لسانـ ـها

---

1 – الاقتراح. للسيوطي. ص 19-20. مطبعة الهند الثانية.

2- المرجع السابق – ص 19 – 20 - .

3 – مقال للزبير سعدي . مجلة اللسانيات – ص 43 . معهد العلوم اللسانية و الصوتية المجلد الأول ج 1 .1971

3 – سر تغلب لهجة قريش على سائر اللهجات العربية:

انقسم المتكلّمون باللغة العربية منذ أقدم العصور إلى قبائل شتى و طوائف عدة من حيث البيئة الجغرافية، و ما تختص به من ظروف طبيعية و اجتماعية، و ما تمتاز به من نواحي الوجدان و التفكير، و ما أتيح لها من وسائل الثقافة و غيرها من الحيثيات الأخرى، و ما تبع ذلك أن انقسمت إلى لهجات مختلفة من حيث مظاهر الصوت و الدلالة و القواعد و المفردات، و اختصت كل قبيلة و كل جماعة متحدة في ظروفها الطبيعية و الاجتماعية بلهجة من هذه اللهجات. بيد أنه أتيح لهذه اللهجات المتعددة فرص كثيرة للاحتكاك فيما بينها بفضل التجارة و تبادل المنافع، و مجاورة القبائل العربية بعضها لبعض، و تنقلها في طلب الكلإ، و تجمعها في مواسم الحج و في الأسواق و غيرها من المناسبات الأخرى ... فوقع من جراء ذلك أن حدث صراع لغوي فيما بينها كان النصر يه للهجة قريش، فطغت على جميع اللهجات الأخرى و استأثرت بمجالات الأدب منظومها و منثورها في مختلف القبائل العربية، فأصبح العربي أيا كانت قبيلته يؤلف شعره و خطبه و نثره الأدبي بلهجة قريش و قد ساعد على تغلب هذه اللهجة عوامل كثيرة من أهمها:

1. عامل ديني: فقد كانت قبيلة قريش بجوار البيت الحرام، يقيم أهلها حوله و يقومون بخدمته و سدانته. و كان البيت حرما مقدسا في نظر معظم القبائل العربية في الجاهلية؛ يحجون إليه ليؤدوا مناسكهم، و يزوروا أصنامهم، و يقدموا لها القرابين و يشهدوا منافع لهم. فكان لقريش بذلك السلطان الديني على بقية القبائل العربية.

2. عامل اقتصادي: فقد كان لقريش عامل سلطان اقتصادي بالغ الأهمية و الخطورة؛ إذ كان مقدار كبير من التجارة في أيدي القرشيين الذين كانوا يتنقلون بتجارتهم في مختلف بقاع الجزيرة العربية، من الشام شمالا إلى أقصى اليمن جنوبا و يقومون في مختلف الفصول برحلات تجارية منظمة من أشهرها رحلة الشتاء إلى اليمن و رحلة الصيف إلى الشام كما يقرئنا ذلك القرآن الكريم إذ يقول: " لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتّاء و الصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع و آمنهم من خوف "1.

1- سورة قريش (1 – 4) .

و بفضل هذا النشاط التجاري أصبح زمام الثروة بيد قريش.

1- و قد تحقق لقريش بفضل نفوذها الديني و الاقتصادي، و بفضل موقعها و ما كانت تمتاز به من حضارة و نعيم، تحقق لها بفضل هذا كله، نفوذ سياسي قوي في سائر بلاد العرب في العصر الجاهلي.

هذا فضل عن أن لهجة قريش كانت أوسع اللهجات العربية ثروة و أغزرها مادة و أرقّها أسلوبا، و أقربها إلى الكمال، و أقدرها عن التعبير في مختلف فنون القول." إن قريشا أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ و أسلها على اللسان عند النطق و أحسنها مسموعا، و أبينها إبانة عما في النّفس ".1

و قد تم لها ذلك بفضل ما توافر لأهلها من وسائل الثقافة و النهوض، و ما توافر لها أيضا من فرص كثيرة للاحتكاك بمختلف اللهجات العربية، وما انتقل إليها من هذه اللهجات من عناصر زادتها ثروة و أغنتها عما كان يعوزها في بعض مناحي التعبير .فجميع الظروف كانت مهيأة لتغلب لهجة قريش على سائر اللهجات العربية الأخرى.

فمن المقرر أن الصراع بين لهجتين ينتهي بتغلب إحداهما على الأخرى في حالتين:

أولاهما: أن يكون لأهل واحدة منها نفوذ على أهل اللهجة الأخرى، ففي هذه الحال يكتب النصر للهجة المنطقة صاحبة النفوذ، شريطة ألّا تقل عن المنطقة الأخرى حضارة و ثقافة و آدابا. و لذاك مثلا تغلبت لهجة باريس حيث مقر الحكومة و السلطان على كثير من اللهجات الفرنسية التي خضعت لنفوذ باريس، و كذلك كان شأن لهجة لندن مع عدد كبير من اللهجات التي كانت تستخدم في الجزر البريطانية، و كذلك الأمر مع لهجة مدريد مع كثير من اللهجات الإسبانية الأخرى و هكذا دواليك.

و ثانيهما: أن تفوق إحدى المنطقتين الأخرى في ثقافتها و حضارتها و مقومات لغتها و آدابها، ففي هذه الحال يكون النّصر للهجتها و إن لم يكن لها سلطان على المنطقة الأخرى .و بفضل هذا العامل أخذت اللهجة السكسونية بألمانيا تطارد اللهجات الألمانية الأخرى منذ القرن السادس عشر (16) الميلادي أي قبل أن تتكون الدولة الألمانية الحديثة و قبل أن تظهر غلبة برلين، و ذلك بفضل ما كان للسكسونية من إنتاج أدبي و مقومات لغوية لا يزاحمها ما لأخواتها من إنتاج في هذا الصراع مع شقيقتها مـ ـ ن

---

1 – د.محمد رواس قلعجي. عن لغة القرآن –ص 42 – دار النفائس بيروت.لبنان ط1 1988 م.

اللهجات الأخرى " و إذا كانت إحدى هاتين الحالتين تؤدي لا محالة إلى تغلب اللهجة التي توافرت لها شروطها، فقد كان لأهل لهجة قريش السلطان الديني الاقتصادي و السياسي، و كانت هي أكثر أخواتها ثروة و أغزرها مادة و أوسعها ثقافة، و أقدرها على التعبير عن مختلف ضروب القول. فليست ظاهرة تغلّبها إذا فذّة في التاريخ بل هي ظاهرة عامة في لغات بني الإنسان قديمها و حديثها"1

فغلبة لهجة قريش إذا كان لما توافر لها من العوامل الدينية و الاقتصادية و السياسية، و لغزارة مادتها و قدرتها على الإحاطة بمختلف مناحي التعبير.

و من المقرر كذلك في قوانين علم اللغة أن اللّهجة التي يكتب لها التغلّب تؤول عاجلا أم آجلا إلى لغة الآداب، فتصطنع وحدها في الكتابة و التأليف و الإبداع في منظوم الكلام و منثوره. فقد ترتب على تغلب لهجة باريس على معظم أخواتها أن أصبحت هي وحدها لغة الكتابة و الآداب بفرنسا، و عليها وحدها يطلق الآن اسم اللغة الفرنسية و هذا هو ما حدث عقب تغلب لهجة لندن بإنجلترا، و لهجة مدريد بإسبانيا، و اللهجة السكسونية بألمانيا. فقد أصبحت هاته اللهجات هي اللغات الأدبية في البلاد التي ذكرت آنفا. و هذا هو الذي حصل للغة قريش، فقد ترتب على تغلبها على بقية اللهجات العربية أن صارت لغة الآداب عند جميع قبائل العرب؛ فبها كان ينظم الشعر، و تلقى الخطب و ترسل الحكم و الأمثال، و تدون الرسائل، و تتفاوض الوفود، و يتبارى الأدباء ، و تجرى المناقشة في النوادي في مختلف قبائل العرب.

و قد تم لها ذلك قبل بعثة محمد صلى ا عليه و سلّم بزمن غير بعيد .و هذا الذي يشير إليه ابن فارس في كتابه الصاحبي إذ يقول :" فكانت وفود العرب من حجاجها و غيرهم يفيدون إلى مكة للحج ، و يتحاكمون إلى قريش مع فصاحتها و حسن لغاتها و رقّة ألسنتها ، فإذا أتتهم الوفود من العرب يتخيرون من كلامهم و أشعارهم أحسن لغاتهم ، و أصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب "2.

---

1 - د. عبد الواحد وافي . فقه اللغة دار النهضة . مصر للطباعة و النشر.

2 – الصاحبي . ابن فارس – ص 23 - .

و يحدثنا ابن جني أيضا عن فصاحة قريش فيقول: " ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، و كشكشة ربيعة، و كسكسة هوازن، و تضجع قيس، وعجرفة ضبة وتلتلة بهراء " 1.

و يقول ابن خلدون في مقدمته الشهيرة " و لهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية و أصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم. ثم من اكتنفهم من ثقيف و هذيل و خزاعة و بني كنانة و غطفان و بني أسد و بني تميم. وأما من بعد عنهم من ربيعة و لخم و جذام و غسان و إياد و قضاعة و عرب اليمن المجاورين لأمم الفرس و الحبشة، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم، و على نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في اللهجة و الفساد عند أهل الصناعة العربية ".

و هذا النّص الذي قدمه ابن فارس مع نص أبي الفتح يوضحان لنا الأسباب التي بني عليها القدماء حكمهم ، فقريش منهم النبي صلى ا عليه و سلّم ، و هم قطان حرمه و جيران بيته الحرام، و هم مطبوعون على الفصاحة بالفطرة ، و لهجتهم خالية من هذه العيوب التي يسمونها أحيانا كشكشة وأحيانا أخرى كسكسة و أحيانا أخرى بغيرها من الأسماء. و اللّافت للنّظر أن هذا الذي ذهب إليه ابن فارس و ابن جني ذهب إليه أيضا عدد كبير من الـمحدثين، فالرافعي يرى المستوى الذي أدركته اللغة القريشية من التهذيب و الفصاحة قائلا: " فلا بد من التّسليم بأنّها حادثة كونية فن ذوارق النظام الطبيعي، ظهرت نتيجتها بعد ذلك في نزول القرآن الكريم بلغة قريش و هو أفصح الأساليب العربية بلا مراء و ا يحكم بما يشاء و يقدر"2.

و الدكتور طه حسين لم يخرج هو الآخر عن نطاق ما ذهب إليه ابن فارس في أهلية لغة قريش على غيرها من اللغات العربية الأخرى و هو يقول: " لغة قريش إذا هي اللغة العربية الفصحى فرضت على قبائل الحجاز فرضا لا يعتمد على السيف و إنّما يعتمد على المنفعة و تبادل الحاجات الدينية و السياسية ة الاقتصادية، و كانت هذه الأسواق التي يشار إليها في كتب الأدب كما كان الحج وسيلة من وسائل السيادة للغة قريش."3.

---

1 – ابن جني . الخصائص. – ص 11/2.

2 – مصطفى صادق الراقعي . تاريخ لآداب العرب .- ص 84/1 القاهرة 1911 .

3 – د . طه حسين . في الأدب الجاهلي . دار المعارف مصر –ص 136 – 1952

و إلى هذا الرأي ذهب أيضا الدكتور شوقي ضيف و الدكيور صبحي الصالح.
ونخلص مما مر علينا إلى أن أهلية لغة قريش على سائر لغات القبائل الأخرى إنّما آلت إليها بفضل مركزها الديني و الاجتماعي و السياسي ... و يكفيها فخرا أن معلم البشرية محمدا صلى ا عليه و سلّم كان أحد المنتمين إليها و هو يقول مفتخرا بفصاحته: " أنا أفصح العرب بيد أنني من قريش".

و تشاء حكمة العلي القدير أن يكلّف رسوله الأمين رسالة الإسلام بلغة قريش بعدما صفّيت من كلّ مستبشع اللغات و مستقبح الألفاظ لكن لم يهمل الفصيح والبليغ من لغات بقية القبائل، فاختار من ألفاظها أدقّها تعبيرا عن المعنى، و أنقها نطقا على اللسان و أجزلها معنى، و أوقعها في النفس جرسا، حتى أصبحت لغة القرآن هي اللغة المختارة من لغات العرب و لهجاتهم و هي تشكل قمة الفصاحة و البلاغة، و بها ثبت للقرآن الإعجاز اللغوي و البلاغي و العلمي...

فقد نقل ابن منظور في اللسان من كلام قتادة قائلا: " كانت قريش تجتني أفضل لغات العرب، حتى صار أفضل لغاتها لغتها، فنزل القرآن بها."1.

و مما تقدم يتبين لنا أن ا تبارك و تعالى قد اصطفى من لغات العرب و لهجاتهم أفصحها و أبلغها، فأنزل بها القرآن الكريم، فكانت هذه اللغة التي اصطفاها هي اللغة المختارة، فتوجهت إليها أنظار أدباء العرب و شعرائهم مبهورين بفصاحتها و بلاغتها و سحرها و جمالها، و أخذ الإعجاب بها بينهم مأخذا لا نظير له، و جعلوا يردون موردها، و ينهلون من معينها الفياض، حتى عمت هذه اللغة القبائل و نطق بها القاصي و الداني، و جرت على كل لسان و أصبحت بمثابة اللغة الرسمية للعرب قاطبة.

1- عن لغة القرآن لغة العرب المختارة. د. محمد رواس قلعجي. ط1 ص 42. دار النفائس بيروت لبنان 1988.

2 - دور السماع في تكوين السليقة اللغوية:

عندما نتدبر آيات القرآن العظيم نرى أن ا عز و جلّ يركّز على طاقة السمع و يجعلها الأولى بين قوى الإدراك و الفهم التي أودعها ا تعالى في الإنسان " و ا أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، و جعل لكم السمع و الأبصار، و الأفئدة لعلكم تشكرون "1" و قال أيضا: " إن السمع و البصر و الفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسؤولا " 2." كما قال: " إن ا كان سميعا بصيرا "3.

إذا تأملنا كلام ا عز و جلّ نجده يقدم طاقة السمع على البصر في أكثر من سبع و عشرين موقعا، و هو ما يبين أنها أدق و أرهف و أرقى من طاقة البصر فالأم مثلا تستطيع أن تميز صوت بكاء طفلها من بين زحام هائل من آلاف الأصوات المتداخلة.

إن الاستماع عامل هام في عملية الاتصال قديما و حديثا، فهو أي السمع أبو الملكات اللسانية كما قال ابن خلدون.4

إذ هو الحاسة الحساسة التي تؤثر في اللسان، إذ سرعان ما تؤثر في الألسنة المختلفة فتزاوج اللغات و يتداخل بعضها في بعض، فالسمع عند الأعرابي القديم أساس تكوين سليقته اللغوية إلى جانب تمرسه بكلام أهل جيله و أساليبهم في مخاطبتهم، في مقامات مختلفة و في هذا يقول العلامة ابن خلدون:" فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله و أساليبهم في مخاطبتهم و كيفية تعبيرهم عن مقاصدهم... فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة و من كل متكلم، و استعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة و يكون كأحدهم."5

فالملكة اللغوية الصحيحة تتكون بسماع اللغة الصحيحة و تكرار هذا السماع إلى أن تتمكن من نفس صاحبها و يصبح واحدا منهم يتحادث بها دون مشقّة و لا جهد.

---

1 – سورة النحل . الآية 87.

2 – سورة الإسراء . الآية 36 .

3 – سورة النساء . الآية 58 .

4 – أبن خلدون . المقدمة – ص 1057 .

5- المقدمة 4 / 1269.

غير أن الأمر الذي شدنا إليه كثيرا هو الربط بين حاسة السمع و حاسة البصر و الإدراك العقلي و اللساني، فأغلب الصم بله بكم، و أغلب العميان أذكياء و عباقرة، وقد ذهب أبو هلال العسكري إلى أبعد من هذا ففي الفصل الثالث والثلاثين من الباب التاسع في المضاعفة، فقال: "و هي أن يتضمن الكلام معنين، معنى مصرحا به، و معنى كالمشار إليه، و ذلك مثل قوله تعالى: "و منهم من يسمعون إليك فأنت تُسمع الصمَ و لو كانوا لا يعقلون، و منهم من ينظر إليك، فأنت تَهدي العميَ و لو كانوا لا يبصرون. " 1

المعنى المصرح به في هذا الكلام أنّه لا يقدر أن يهدي من عمي عن الآيات و صم عن الكلم البينات ... بمعنى أنّه صرف قلبه عنها فلم ينتفع بسماعها و رؤيتها، و المعنى المشار إليه أنّه فضل السمع على البصر لأنّه جعل من الصمم فقدان العقل، و مع العمى فقدان النظر فقط." 2

و في بيان لأهمية حاسة السمع في استقبال البنى التركيبية ما هي على منحى العرب و رد ما هو خارج عن أساليبهم يضيف العلامة ابن خلدون قائلا: " فالمتكلم بلسان العرب و البليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب و أنحاء مخاطباتهم، و تنظيم الكلام على ذلك الوجه جهده، فإذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه، وسهل عليه أمر التركيب، حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب، و إن سمع تركيبا غير جار على ذلك المنحى مجه و نبا عنه سمعه بأدنى فكر بل و بغير فكر، إلّا بما استفاده من فصول هذه المملكة ... و هذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب و تكرره على السمع و التفطّن لخواص تراكيبه، و ليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك ."3

---

1 – سورة يونس . – (42 – 43)

2 – أبو هلال العسكري . كتاب الصناعتين، ص 477. مطبعة دار الكتب العلمية بيروت 1981.

3 – نقلا عن إبراهيم النجار. الفكر التربوي عند العرب . . – ص 646 – 647 -الدار التونسية للنشر 1985.

و يؤكد هنا ابن خلدون ما اهتدت إليه علوم اللسان في العصر الحديث من أن الملكة اللغوية لا تحصل بحذق القوانين و إنما تقوم في المتكلم على السماع و الممارسة و التفطّن لخواص التراكيب. و بعد كل هذا نجد أن حاسة السمع عماد حصول السليقة اللغوية لدى المتكلم لذا كان من الضروري تدريب الأبناء على مهارات الاستماع؛ " فالطفل في حاجة إلى من يعلمه الكلام رغم أن له فما، و بحاجة إلى من يدربه على المشي رغم أن له رجلين، و كذلك هو بحاجة إلى من يدربه على مهارات الاستماع رغم أن له أذنين. "1.

فالمران و الدربة و المراس أساس اكتساب المهارات المختلفة.

---

1 – د. علي أحمد مذكور . تدريس فنون اللغة العربية . دار الفكر العربي 1997 .

الـفصـل الثانـ ـي:

الاحتجاج في اللغة العربية:

1- مفهوم الاحتجاج
2 - بوادر اللّحن
3 - العلوم التي يحتَج بها
4 - من يحتَج بكلامه من العرب
5 - ما يحتج به من الكلام

1- مفهوم الاحتجاج:

يراد بالاحتجاج إثبات صحة قاعدة، أو استعمال كلمة أو تركيب، بـدليل نقلـي صح سنده إلى عربي فصيح سليم السليقة. و إنّما اختار القوم إلى الاحتجـاج لخـوفهم على سلامة اللغة العربية بعد اختلاط أهلها بالأعاجم عند الفتـوح و سـكنوا بلادهـم و عايشوهم، نشأ عن ذلك بسنّة الطبيعة أخذ و عطاء في اللغة و الأفكـار و الأخـلاق و الأعراف، و تنبيه أولو البصر إلى أن الأمر آيل إلى إفساد اللغة، و ضياع العـصبية من جهة، و إلى التفريط في صيانة الدين من جهة ثانية، إذ كانـت سـلامة أحكامـه موقوفة على حسن فهم المستنبط لنصوص القرآن الكريم والحديث الشريف، و كان في ضعف العربية تضييع لهذا الفهم.

2- بوادر اللّحن:

يعد اللحن الباعث الأساسي على تدوين اللغة و جمعها عن طريق الرحلات إلى البوادي والفيافي و قد كلّف ذلك مشقة كبيرة و عناء كثيرا، ثم بعد ذلك جاء دور علماء النحـو للسهر على استنباط القواعد و الأحكام، فقد كانت حوادثه المتتابعة نذير الخطر الـذي هب على صوته أولو الغيرة على العربية و الإسلام، و فيما يلي عرض سريع لـبعض أحداثه المتتابعة:

أخذ اللحن يسري على الألسن رويداً رويدا منذ أيام الرسول صلى ا عليـه و سـلّم على ما يبدو، فقد لحن رجل بحضرته فقال: " أرشدوا أخاكم فإنّه قد ضلّ "1

و يبدو أيضا أن هذا المصطلح كان معروفا بهذا الاسـم، و يتجلـى هـذا فيمـا رواه السيوطي عن رسول ا صلى ا عليه و سلّم قوله:" أنا من قريش و نشأت في بنـي سعد فأنى لي اللّحن "2

و في ذلك كان أبو بكر الصديق رضي ا عنه يقول: " لأن أقرأ فأسقط أحب إلي مـن أن أقرأ فألحن. " أما في عهد عمر رضي ا عنه فهو الآخر يطلعنا على كثيـر مـن حوات اللحن، فتذكر المصادر أنه مر على قوم يسيئون الرمي فقرعهم فقالوا: " إنّا قوم متعلمين" فأعرض مغضبا و قال: "و ا لخطأكم في لسانكم أشد علي من خطئكم فـي رميكم"

---

1 – ابن جني . الخصائص . ج2 / 8 . مطبعة دار الكتب المصرية 1950.

2 – السيوطي. المزهر. ج2 / 397. مطبعة دار إحياء الكتب العربية القاهرة.

سمعت رسول ا صلى ا عليه و سلّم يقول: " رحم ا امرأ أصـلح مـن لـسانه"...
و ورد إلى عمر رضي ا عنه كتاب أوله "من أبي موسى الأشعري " فكتب عمر لأبي موسى بضرب الكتاب سوطا، و الأنكى من ذلك تسرب اللحن إلى قراءة القرآن الكريم، فقد قدم أعرابي في خلافة عمر رضي ا عنه، فقال: " من يقرئني شيئا مما أنزل على محمد ؟ فأقرأه رجل سورة براءة بهذا اللحن: " و أذان من ا و رسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن ا َ بريءٌ من المشركِين و رسولُه ... "1.
فقال الأعرابي:" إن يكن ا بريء من رسوله فأنا أبرأ منه " فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه فقال:" يا أمير المؤمنين، إني قدمت المدينة ... و قص القصة فقال عمر: " لـيس هذا يا أعرابي " فقال: " كيف هي يا أمير المؤمنين" ؟ فقـال: "... أن ا بـريء مـن المشركين و رسوله ... " فقال الأعرابي:" و أنا أبرأ ممن برئ ا و رسوله مـنهم ". فأمر عمر ألاّ يقرئ القرآنَ إلاّ عالمٌ باللغة "2.
و مر عمر رضي ا عنه برجلين يرميان فقال: "أحدهما للآخر: " أسبت " فقال عمر: " سوء اللحن أشد من سوء الرمي"3. فجعل إبدال الصاد سينا من اللحن.
و تكاد تكون قصة بنت أبي الأسود الدؤلي المعلم المشهور في تاريخ النحو، فقد دخـل عليها أبوها في وقدة الحر بالبصرة فقالت له:" يا أبتِ ما أشد الحـر! " رفعـتْ أشـد فظنّها تسأله و تستفهم منه: أي زمان الحر أشد ؟ فقال لها:" شهر ناجر" فقالت: " يا أبت إنّما أخبرتك و لم أسألك".
و نتقدم في الزمن خطوة فيقص علينا ابن قتيبة أن رجلا دخل على زياد فقال لـه:" إن أبينا هلك، و إن أخينا غصبنا على ميراثنا من أبانا" فقال زياد :" ما ضيعت من نفـسك أكثر مما ضاع من مالك ".
و أن أعرابيا دخل السوق فسمعهم يلحنون فقال:" سبحان ا ! يلحنون و يربحون و نحن لا نلحن و لا نربح "4.

---

1 – سورة التوبة . الآية 3 .
2 – ابن الأنباري . نزهة الألباء. تهذيب تاريخ دمشق. ابن عساكر. 7 / 110.
3 – الأدب المفرد للبخاري. ص 7 . المطبعة السلفية بمصر 1375 هـ.
4 – ابن قتيبة. عيون الأخبار.2 / 159 . دار الكتب المصرية 1343 هـ.

و روى الجاحظ أن " أول لحن سمع بالبادية: هذه عصاتي (بدل عصايَ) وأول لحن سمع بالعراق: حيّ على الفلاح، (بكسر الياء بدل فتحها)."1.

ثم شاع اللحن في العصر الأموي حتى تطرق إلى البلغاء من الخلفاء و الأمراء لعبد الملك و الحجاج، و الناس يومئذ تتعاير به، و كان مما يسقط الرجل في المجتمع أن يلحن، حتى قال عبد الملك و قد قيل له: (أسرع إليك الشيب)" شيبني ارتقاء المنابر مخافة اللحن" و كان يرى اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب النفيس"2.

و الحجاج على أنه من الخطباء البلغاء، كان في طبعه تقزز من اللحن أن يقع منه أو من غيره، فإذا وقع منه حرص على ستره و إبعاد من أطلع عليه منه، ذكر أنه سأل يحيى بن يعمر الليثي:" أتسمعني ألحن على المنبر"؟ فقال يحيى:" الأمير أفصح الناس إلا أنه لم يكن يروي الشعر" قال:" أتسمعني ألحن حرفا " ؟ قال:" نعم في آي القرآن" قال:" فذاك أشنع، و ما هو "؟ قال: تقول:" قُل إِن كانَ آباؤُكم و أبناؤُكم و إخوانُكم و أزواجكم و عشيرتُكم و أموالٌ اقترفتموها و تجارةٌ تخشون كسادَها أحب إليكُم منَ ا ـِ و رسولِهِ..."3. تقرؤها (أحب) بالرفع، فأنِف الحجاج أن يطلع له رجل على لحن فبعث به إلى خُراسان. و كان الحجاج يعجب بفصاحة يحيى هذا فسأله يوما: " أخبرني عن عنبسة بن سعيد: أيلحن"؟ قال:" كثيرا"، قال: "أفأنا ألحن"؟ قال: "لحنا خفيفا". قال: "كيف ذلك "؟ قال:" تجعل (أَن : إِن) ، و (إِن : أَن) و نحو ذلك. قال: لا تساكني ببلد، أُخرج" و كان الرجل إذا أراد أن يفلت من عملٍ للحجاج عاذ باللحن فنجا "4.

و هؤلاء تطرق إليهم قليل من اللحن لبعدهم عن قومهم في الجزيرة مع أنهم نشؤوا فيها و ترعرعوا و اكتهلوا، فلما كان من بعدهم عظم فشوا للحن فيهم حتى كان من أعظـم المصائب في نفس عبد الملك أن ابنه الوليد لحانة و أنه أخذه بتعلم العربية فلـم يفلـح. و نقلوا عن عبد العزيز بن مروان الأمير الأموي المعروف و هو أخو عبد الملك لحنا على أن عبد العزيز هذا و هو من أفصح النـاس كان :" يعطـي على العربيـة

---

1 – الجاحظ . البيان و التبيين . ج2 / 219. مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر مصر . 1368 هـ .

2 – ابن قتيبة. عيون الأخبار. ج2 / 158.

3 – سورة التوبة . الآية 24.

4 – في إرشاد الأريب لمعرفة الأديب. ج87/1 . (المعروف بمعجم الأدباء) ليـاقوت الحمـوي. مطبوعـات دار المأمون مصر. 1355 هـ.

و يحرم على اللحن، حتى قدم عليه زوار من أهل المدينة و أهل مكة من قريش فجعل يقول للرجل منهم: " من أنت "؟ فيقول:" من بني فلان" فيقول للكاتب:" أعطـه مـائتي دينار"، حتى جاءه رجل من بني عبد الدار فقال:" من أنت " ؟ فقال:" من بنو عبد الدار" فقال:" تجدها من جائزتك " و قال لكاتبه :" أعطه مائة دينار".

و قال عمر بن عبد العزيز: " إن الرجل ليكلمني في الحاجة يستوجبها فـيلحن فـأرده عنها، و كأني أقضم حب الرمان الحامض لبغض استماع اللحن، و يكلمني آخـر فـي الحاجة لا يستوجبها فيعرب فأجيبه إليها التذاذا لما أسمع من كلامه " و كـان يقـول: " أكاد أضرس إذا سمعت اللحن" ...

و مما تقدم من أمور اللحن أن الخوف على العربية له مما يفرضه من النّـذر و أنـه تمكن في النفوس حتى تظافرت جهود العلماء و ذوي السلطان على صـيانة العربيـة و أن الحرمان من المال أو العمل مما كان يصيب اللحانة، و أن فصاحة المـرء قـد ترفعه إلى الولايات و الغنى، و تزيد شأنه عند أولي الأمر. و سؤال الحجاج عن لحـن بعض الناس ذوي الشأن منشعر باهتمام الحكومة و المجتمع بأمر اللحن، و ذلك طبيعي من دولة قامت على العصبية العربية بعد أن رأت اللحن يفشو في الطبقات الرفيعة من الأمراء و الحكام و أشراف الناس.

إلى هذا المدى بلغ أمر اللحن في المائة الأولى للهجـرة و الدولـة عربيـة محـضة و العصبية ذات سلطان، و القوم حديثو عهد بجزيرتهم، و لا تزال مجتمعاتهم، تتناقـل القول المشهور." ليس للاّحن حرمة " و تتعامل به، هذا عبد الملك بن مروان اسـتأذن عليه رجل من علية أهل الشام و بين يديه قوم يلعبون بالـشطرنج فقـال:" يـا غـلام غطها" فلما دخل الرجل فتكلم، لحن، فقال عبد الملك:" يا غلام، اكـشف عنهـا، لـيس للاحن حرمة".1.

و بيت الخلافة أعرق بيوت قريش شرفا و مجدا و بلاغة، و أقواها عصبية و عروبـة و العرب، كما قرر بن جني أشد استنكارا لزيغ الإعراب منهم لخلاف اللغة، فقد ينطق بعضهم بالدخيل و المولّد و لكنه لا ينطق باللحن.

---

1 – ابن الأنباري .الأضداد.- ص 245 – الكويت 1960 م.

لذلك اشتد بلال بن أبي بردة على خالد بن صفوان لما رآه يلحن في حديثه العفوي معه فقال له:" أتحدثني أحاديث الخلفاء و تلحن لحن السقاءات"؟ فماذا أعد أهل اللغة العربية من خطط يعالجون بها استفحال الداء حفاظا على سلامة اللسان و خوفا على القـرآن الكريم و الحديث الشريف؟ ذلك ما سنبينه لاحقا.

3- العلوم التي يحتج بها:

يحتج بكلام العرب لغرضين إثنين: غرض لفظي يدور حول صحة الاسـتعمال من حيث اللغة و النحو و الصرف، و غرض معنوي لا علاقة له باللفظ. و الظاهر أن فريقا من العلماء حجر واسعا فأسقط الاحتجاج بكلام الإسلاميين و المولدين في اللفـظ و المعنى جميعا، و لم يلتفت الجمهور إلى هذا التحجير لعقمه و بعده عن طبيعة الحياة بل قصروا الاحتجاج بالكلام على المعاني فقط، و احتجوا بكلام القـدامى فـي اللفـظ و المعنى. و خير من يمثل هؤلاء ابن جني، فقد احتج في باب المعاني بشعر المتنبـي و هو مولّد، و لعله توقع إنكارا من المتزمتين. ثم استقر الرأي على ما فصل ابن جني من أئمة المائة الرابعة للهجرة، ففصلوا بين العلوم التي يحتج لها بكلام القدماء و العلوم التي يحتج لها بكلام الفصحاء عامة قدماء و مولدين، و تبلور هذا الرأي و أصبح مـن المسلّمات. فهذا عبد القادر البغدادي صاحب خزانة الأدب و من أعيان العلمـاء فـي المائة الحادية عشرة يعبر عنه بعد سبعة قرون بنقله كلام الرعيني الأندلسي من علماء المائة الثامنة في شرح بديعية رفيقه ابن جابر، قال الرعيني:" علوم الأدب ستة : اللغة و النحو و الصرف و المعاني و البيان و البديع " و الثلاثة الأولى لا يستشهد عليها إلا بكلام العرب (يريد القدماء) دون الثلاثة الأخيرة ، فإنه يستشهد عليها بكلام المولـدين لأنها راجعة إلى المعاني، و لا فرق في ذلك بين العرب و غيرهم إذ هو أمر راجع إلى العقل. و لذلك قبل من أهل هذا الفن الاستشهاد بكلام البحتري و أبي تمام و أبي الطيب و هلم جرا."1.

4- من يحتج بكلامه من العرب:

بحث علماء العربية فيمن نقل للرواة عنهم من أهل المدر و الوبر، و تقصوا أحـوالهم و أخبارهم، فاجتمعوا على الاحتجاج بقول من يوثق بفصاحته و سلامة عربيته و إليك عرض لأصناف هؤلاء زمانا و مكانا و أحوالا.

---

1 – البغدادي . خزانة الأدب. ج30/1 الطبيعة السلفية بالقاهرة 1348 هـ .

- فأما الزمان، فقد قبلوا الاحتجاج بأقوال عرب الجاهلية و فـصحاء الإسـلام حتـى منتصف القرن الثاني سواء أسكنوا الحضر أم البادية.

أما الشعراء فقد صنفوا أصنافا أربعة:

- جاهليين لم يدركوا الإسلام.
- و مخضرمين أدركوا الجاهلية والإسلام.
- و إسلاميين لم يدركوا من الجاهلية شيئا.
- و محدثين أو لهم بشار بن برد.

و وقع شبه إجماع على صحة الاستشهاد بالطبقتين الأوليين، و اختلفوا في الطبقة الثالثة و ذهب عبد القادر البغدادي صاحب خزانة الأدب إلى جواز الاستشهاد بها." أما الطبقة الرابعة فلا يستشهد بكلامها في علوم اللغة و النحو و الصرف خاصة، وكان آخر مـن يحتج بشعره على هذا الأساس بالإجماع إبراهيم بن هرمة (70-150 هـ) الذي ختم الأصمعي به الشعر"1. أما أهل البادية فقد استمر العلماء يدونون لغاتهم حتـى فـسدت سلائقهم في القرن الرابع الهجري.

و على هذا " أجمعوا على أنه لا يحتج بكلام المولدين و المحدثين في اللغة العربية "2.

و قد مال الزمخشري إلى استثناء أئمة العربية من ذلك داعيا إلى جعل الوثوق بكلامهم كالوثوق برواياتهم.

- أما المكان أو بعبارة أخرى القبائل، فقد اختلفت درجاتها في الاحتجاج على اختلاف قربها أو بعدها من مخالطة الأمم المجاورة، فاعتمدوا كلام القبائل في قلب الجزيرة العربية، وردوا كلام القبائل التي هي على السواحل أو بجوار الأعاجم.

و قد وضع أبو نصر الفرابي تصنيفا لها في الاحتجاج كما ذكرنا ذلـك فـي مبحـث " تحديد رقعة الفصاحة " و هي في مقدمتها قبيلة قريش، ثم تأتي قبائل (قيس و تمـيم و أسد). ثم قبائل (هذيل و بعض كنانة و بعض الطائيين)، و لم يؤخذ عن غيرهم مـن سائر القبائل، و كأن هذا التصنيف حاز القبول و جرى عليه العمل و كان الخروج عليه مدعاة إلى النقد، و لما اعتمد ابن مالك على لغات لخم و جذام و غسان، تعقبه باللـوم

1- السيوطي. الاقتراح. ص22. مطبعة المعارف بحيدر آباد 1310هـ.

2- المرجع السابق. ص 31.

أبو حيان فقال في شرح التسهيل: " ليس ذلك من عادة أئمة هذا الشأن "1.

و كان أبو عمرو بن العلاء يقول: " لا أقول (قالت العرب) إلا ما سمعت مـن عاليـة السافلة و سافلة العالية " يريد ما بين نجد و جبال الحجاز حيث قبائـل أسـد و تمـيم و بعض قبائل قيس، بل كان عثمان يقول: " لا يملينَ في مصاحفنا إلا غلمـان قـريش و ثقيف"2.

- أما أحوال هؤلاء العرب المحتج بهم فخيرها ما كان أعمق في التبدي، لذا كان ممـا يفخر به البصريون على الكوفيين أخذهم عـن الأعـراب أهـل الـشيح و القيـصوم و حرشفة الضباب و أكلة اليرابيع. و يقولون للكوفيين " أخذتم عـن أكلـة الـشواريز و باعة الكواميخ"3.

و نستنتج مما تقدم أنهم لجؤوا إلى اعتماد تلك القبائل العربية في الاحتجاج لها بناء على الوثوق من سلامة لغتها و عدم تطرق الفساد إليها، و هذا هو الضابط فـي التـصنيف الزماني و المكاني، و كما نعلم أن العلماء أسقطوا الاحتجاج بشعر أمية بن أبي الصلت و عدي بن زيد العبادي، و حتى الأعشى عند بعضهم، لمخالطتهم الأجانب و تأثر لغتهم بهذه المخالطة.

بينما يذهب فريق إلى الاحتجاج بكلام الشافعي المتوفّى في القرن الثالث للهجرة حتـى نص الإمام أحمد بن حنبل على أن (كلام الشافعي في اللغة حجـة)"4 لـسلامة نـشأته و تقلبه في البيئات العربية السليمة قيل لبشار: " ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا و قد قال فيه شيئا استنكرته العرب من ألفاظهم و شك فيه و إنه ليس في شـعرك مـا يشك فيه. قال: " و من أين يأتيني الخطأ؟ ولدت ههنا و نشأت في حجور ثمانين شيخا من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطإ و إن دخلـت إلـى نـسائهم فنساؤهم أفصح منهم، و أيفعت فأبديت إلى أن أدركت، فمن أين يأتيني الخطأ ؟.

و كلمة بشار دليل قاطع على وجود بيئات في المدن سليمة من اللحن لزمنه في المائـة الثانية للهجرة.

---

1 – السيوطي . الاقتراح . ص 24 – مطبعة دار المعارف بحيدر آباد . 1310 هـ .

2 – مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة. 8 / 141.

3 – الشيراز اللبن المصفى. الكامخ أدام.

4 – السيوطي. الاقتراح. ص 24.

إنّه ليعجبني كثيرا قول ابن جني في هذا الموضوع في باب (ترك الأخذ من أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر)، "علة امتناع ذلك ما عرض للغات الحاضرة و أهل المدر من الاختلال و الفساد و الخطل، و لو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم و لم يعترض شيء من الفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر. و كذلك أيضا لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة و خبالها و انقراض عادة الفصاحة و انتشارها، لوجب رفض لغتها و ترك تلقي ما يرد عنها و على ذلك العمل في وقتنا هذا لأننا لا نكاد نرى بدويا فصيحا، و إن نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه لم نكد نعدم ما يفسد ذلك و يقدح فيه"1.

و انطلاقا مما تقدم فإن العلماء اتّفقوا على الاحتجاج بمن هم على سلامة لغـتهم و لـم يتطرق إلى ألسنتهم اللّحن و الفساد و الخلل و عاشوا في بيئات سليمة فصيحة.

5- ما يحتج به من الكلام:

ينقسم الكلام المحتج به إلى أقسام ثلاثة هي:

1 - القرآن الكريم.

2 - الحديث النبوي الشريف.

3 - كلام العرب.

1- عني المسلمون عناية فائقة بالقرآن لم يسبق لها مثيل في تاريخهم، رواية و تدوينا و حفظا و دراسة و جرحا و تعديلا. فهو النص العربي الصحيح المتواتر المجمع على تلاوته بالطرق التي وصل إلينا في الأداء و الحركات و السكنات. و على هذا يكون هو النص الصحيح المجمع على الاحتجاج به في اللغة و النحو و الصرف و علوم البلاغة. و قراءته جميعا الواصلة إلينا بالسند الصحيح حجة لا ترتقي إليها حجة. أمـا طرقـه المختلفة في الأداء فهي كذلك، إذ أنها مروية عن الصحابة و قراء التابعين، وهم جميعا ممن يحتج بكلامهم، و بقراءاتهم التي تحروا ضبطها قدر جهدهم كمـا سـمعوها مـن رسول الله صلّى الله عليه و سلّم، دون أن ننسى أن أئمة القراء هم أيضا أئمة في اللغة و النحو، و قد جرى عرف العلماء على الاحتجاج برواياته سواء أكانـت متـواترة أم روايـــات شاذّة

1 – ابن جني. الخصائص. 2 / 05.

"و القراءة الشاذّة التي منع القراء قراءتها في التلاوة يحتج بها في اللغة و النحـو"[1]. إذ هي -على كل حال- أقوى سندا و أصح نقلا من كل ما احتج به العلماء مـن الكـلام العربي غير القرآن.

و هنا أمر ينبغي التنبيه إليه و هو أن موقف النحاة من النصوص العربية حين وضعوا القواعد، كان فيه خلل و اضطراب من الجانب المنهجي، على حين أن موقف القـراء كان سديدا من الجانب العلمي و المنطقي و المنهجي. و أقل ما يشترط القراء لـصحة القراءة شروط ثلاثة هي:

1 - صحة السند بها إلى رسول ا صلى ا عليه و سلّم.

2 - موافقتها رسم المصحف المجمع عليه.

3 - موافقتها وجها من الوجوه العربية.

و كثيرا ما صرحوا في مناسبات عدة أن القراءة سنة متبعة و أنها لا تخـضع لغيـر السماع الصحيح، أما القراءة الشاذّة عندهم ما توفر فيها صحة السند و موافقة العربيـة و تخاف الشرط الثاني، أو التواتر من الشرط الأول، و هذه التي منعوا بها القراءة في الصلاة، و قد تبين إذاً أن القراءة الشاذة لا يقدح في الاحتجاج بها عربية قادح، فمخالفة الرسم بزيادة كلمة و نقص حرف لا تؤثر في صحة بناء القواعد عليها. وخير تعبيـر عن منهج القراء قول أحد أئمتهم أبي عمرو الداني: "و أئمة القراءة لا تعمل في شـيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة، و الأقيس في العربية، بل على الأثبت فـي الأثر و الأصح في النقل، و الرواية إذ ثبتت عندهم لم يردها قياس عربيـة و لا فـشو لغة، لأن القراءة سنّة متبعة يلزم قبولها و المصير إليها"[2].

هذا دستور القراء أثبتوه في كتبهم و كانوا في تطبيقه على غاية الدقة و الأمانة، فكانوا منهجيين منطقيين قولا و عملا، فهل كان النحاة كذلك؟

الحقيقة أن النقد يجد في صف النحاة و في قواعد نحوهم ثغرا عدة ينفـذ منهـا إلـى الصميم، فهم يريدون بناء قواعدهم على كلام العرب فيجمعون نتفا نثرية و شعرية من هذه القبيلة و من تلك، و يضعون قواعد تصدق على أكثر مـا وصـل إلـيهم بهـذا الاستقراء الذي لا يستند إلى خطة محكمة في الجمع، ثم يسددون هذه القواعـد بمقاييس

1- السيوطي. الاقتراح. ص 18.

2– ابن الجوزي. النشر في القراءات العشر . –10/1 – مطبعة الترقي بدمشق 1945.

منطقية يريدون اطّرادها في الكلام، حتى إذا أتت بعضهم قراءة صحيحة السند غير أنها تخالف قاعدتها القياسية، طعن فيها و إن كان قارئها أفصح و أبلغ و أعرب من كثير ممن يحتج النحوي بكلامهم. و المنهج السليم في ذلك أن يمعن النحاة في القراءات الصحيحة السند، فما خالف منها قواعدهم صححوا به تلك القواعد و رجعوا النظر فيها، فذلك أعود على النحو بالخير، أما تحكيم قواعدهم الموضوعة في القراءات الصحيحة التي نقلها العلماء الفصحاء فقلب للأوضاع و عكس للمنطق إذ كانت الروايات الصحيحة مصدر القواعد لا العكس، فاللغة سابقة من حيث الوجود للقواعد الموضوعة. و بعد فإن قراءات القرآن جميعها حجة في العربية متواترها و آحادها و شاذها، و أكثر عيب يوجه إلى النحاة عدم استيعابهم إياها، و إضاعتهم على أنفسهم و نحوهم مئات من الشواهد المحتج بها، و لو فعلوا لكانت قواعدهم أشد إحكاما.

2- الحديث الشريف:

يراد بالحديث أقوال النبي صلّى ا عليه و سلّم و أقوال الصحابة رضوان ا عليهم التي تروي أفعاله و أحواله أو ما وقع في زمانه، وقد تشتمل كتب الحديث على أقوال التابعين أيضا كالزهري و هشام بن عروة و عمر بن عبد العزيز.

و الذي جعل بعض اللغويين و النحويين يثبتون أقوال التابعين هؤلاء مع الرسول و الصحابة، ثقتهم بصحة صدورها عنهم، فيحتجون بها في إثبات مادة لغوية أو دعم قاعدة نحوية أو صرفية. و كان من البديهي أن يتقدم الحديث الشريف سائر كلام العرب من نثر و شعر في باب الاحتجاج في اللغة و قواعد الإعراب، إذ لا تعهد اللغة العربية في تاريخها بعد القرآن الكريم بيانا أبلغ من الكلام النبوي و لا أروع تأثيرا و لا أوقع في النفس و لا أصح لفظا و لا أقوم معنى.

و مع إجماع اللغويين و النحاة عامة على أن النبي صلّى ا عليه و سلّم أفصح العرب قاطبة و أن الحديث لا يتقدمه شيء في باب الاحتجاج -طبعا فيما عدا القرآن الكريم- إذا ثبت لهم أنه لفظ النبي نفسه، و انقسموا فيما يروى من الأحاديث فريقين: فريقا غلب على ظنه أنها مروية بالمعنى لا باللفظ إذ لا يجوز الاحتجاج بها. و فيها غلب على ظنه أنها لفظه عليه الصلاة و السلام، فأجاز الاحتجاج بها و فيما يلي بيان ذلك:

موقف المانعين:

و قد عبر عنه أبو حيان الأندلسي (745 هـ)خير تعبير إذ كان أشدهم مبالغة فيه و إنكارا على مخالفيه و حجته في ذلك عدم الوثوق بأن المروي لفظ النبي و لهذا لم يحتجوا به، و إنما كان ذلك لأمرين:

1 - الأمر الأول: و هو أن الرواة جوزوا النقل بالمعنى فتجد قصة واحدة قد جرت في زمانه فتنقل بألفاظ مختلفة.

2 - الأمر الثاني: أنه وقع اللحن كثيرا فيما روي من الحديث، لأن كثيرا من الرواة كانوا غير عرب بالطبع، و لا يعلمون لسان العرب بصناعة النحو، فوقع اللحن في كلامهم و هم لا يعلمون ذلك، إلا أن فطنة العلماء و ذكاءهم جعلهم يردون اعتراضات هؤلاء المانعين في سهولة و يسر.

فأما المانع الأول، وهو تجويز الرواية بالمعنى فيجيبون عليه بأن الأصل الرواية باللفظ، ومعنى تجويز الرواية بالمعنى أن ذلك احتمال عقلي فحسب، لا يقين بالوقوع وعلى فرض وقوعه، فالمغير لفظا بلفظ في معناه عربي مطبوع يحتج بكلامه في اللغة ونحن نعلم مقدار تحري علماء الحديث و ضبطهم لألفاظه، حتى إذا شك راوٍ عربي بيّن (عَلَى وجوهِهِم) و(عَلَى مَنَاخِرِهِم) أثبتوا شكّه و دونوه مبالغة في التحري و الدقة.

و أما المانع الثاني: و هو وجود لحن في بعض الأحاديث المروية، فهو شيء -إن وقع- قليل جدا لا يبنى عليه حكم، و قد تنبه إليه الناس و تحاموه و لم يحتج به أحد و لا يصح أن يمنع من أجله الاحتجاج بهذا الفيض الزاخر من الحديث الصحيح إلا أن جاز إسقاط الاحتجاج بالقرآن الكريم لأن بعض الناس يلحن فيه.

و قد قام السيد محمد الخضر حسين بمعالجة هذا الموضوع في مجلة مجمع اللغة العربية على خير ما يعالجه عالم متروٍّ و قاض منصف، و انتهى من بحثه إلى النتيجة الآتية:

"من الأحاديث ما لا ينبغي الاختلاف بالاحتجاج به في اللغة و القواعد و هو ستة أنواع:

أولها: ما يروى بقصد الاستدلال على كمال فصاحته صلى الله عليه و سلم من الأحاديث القِصار المشتملة على شيء من محاسن البيان".

"ثانيها: ما يروى من الأقوال التي كان عليه الصلاة و السلام يتعبد بها، أو يأمر بالتعبد بها كالألفاظ القنوت و التحيات و كثيرا من الأذكار و الأدعية التي كان يدعو بها فـي أوقات خاصة.

ثالثها: ما يروى على أنه كان يخاطب كل قوم من العرب بلغتهم.

و مما هو ظاهر أن الرواة يقصدون في هذه الأنواع الثلاثة إلى رواية الحديث بلفظه.

رابعها: الأحاديث التي وردت من طرق متعددة و اتحدت ألفاظها، فإن اتحاد الألفاظ مع تعدد الطرق دليل على أن الرواة لم يتصرفوا في ألفاظها، و المراد أن تتعدد طرقها إلى النبي صلى ا عليه و سلم أو إلى الصحابة أو إلى التابعين الـذين ينطقـون الكـلام العربي فصيحا.

خامسها: الأحاديث التي دونها من نشأ في بيئة عربية لم ينتشر فيها فساد اللغة، كمالك ابن أنس و عبد الملك بن جريج و الإمام الشافعي.

سادسها: ما عرف من حال رواته أنهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى مثـل ابـن سيرين و القاسم بن محمد، و رجاء بن حيوة و علي بن المديني."[1]

"و من الأحاديث ما لا ينبغي الاختلاف في عدم الاحتجاج به، و هي الأحاديث التي لم تدون في الصدر الأول و إنما تروى في بعض كتب المتأخرين. و الحديث الذي يصح أن تختلف الأنظار في الاستشهاد بألفاظه، هو الحديث الذي دون في الصدر الأول و لم يكن من الأنواع الستة المبينة آنفا و هو على نوعين:

حديث يرد لفظه على وجه واحد.

و حديث اختلفت الرواية في بعض ألفاظه.

1 - أما الحديث الوارد على وجه واحد، فالظاهر صحة الاحتجاج به، نظـرا إلـى أن أصل الرواية باللفظ، و إلى تشديدهم في الرواية بالمعنى. و يضاف إلى هذا كله عـدد من يوجد في السند من الرواة الذين لا يحتج بأقوالهم.

2 - و أما الأحاديث التي اختلفت فيها الرواية، فيجوز الاستشهاد بما جاء في روايـة مشهورة لم يغمزها أحد المحدثين بأنها وهم من الراوي. و أما ما يجيء في رواية شاذة أو في رواية يقول فيها بعض المحدثين إنها غلط من الراوي، فيكـون الوقـوف دون الاستشهاد بها.

1- سعيد الأفغاني. في أصول النحو. ص 56/55. ط3. مطبعة جامعة دمشق 1383هـ.

و الخلاصة من هذا كله أننا نجد الاستشهاد بألفاظ ما يروى في كتب الحديث المدونة في الصدر الأول و إن اختلفت فيها الرواية، و لا يستثنى إلا الألفاظ التي تجيء في رواية شاذة أو يغمزها بعض المحدثين بالغلط أو التصحيف غمزا لا مرد له، و هو الرأي المرجح. " فإن جمهور اللغويين و طائفة واسعة من أهل النحو يستشهدون بالألفاظ الواردة في الحديث و لو على بعض رواياته."1.

3- كلام العرب:

لقد سبق أن تم تناول العرب المحتج بهم في القسم الثالث من هذا الفصل، فقد اقتصر العلماء على تدوين كلام القبائل الضاربين في وسط الجزيرة العربية ممن لم تمسسهم العجمة أو مخالطة الأجناس المجاورة لهم مما يسبب لهم فسادا في اللسان. فقد قال أبو عمرو بن العلاء: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، و لو جاءكم وافرا لجاءكم علم و شعر كثير."2.

و قد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه " كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه " فلما جاء الإسلام تشاغلت عنه العرب و تشاغلوا بالجهاد و غزو بلاد فارس و الروم، و لهت عن الشعر و روايته و لما كثر الإسلام، و جاءت الفتوح و اطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا إلى ديوان مدون و لا كتاب مكتوب، و ألفوا ذلك و قد هلك من العرب من هلك بالموت و القتل، فحفظوا ذلك و ذهب عليهم منه كثير."3.

واضح أن التراث الأدبي الذي أدركنا، و حفظته ذاكرة علمائنا و أدبائنا و شعرائنا و الرواة كان قليلا بفعل ما أصاب العرب من الأحداث جعلتهم يصرفون أنظارهم إلى نظم الكلام و تأليفه و روايته، فلو كان الأمر على غير ذلك لأدركنا علم غزير و شعر وفير. و من يمعن النظر في معاجم اللغة و كتب قواعدها يجد كتب اللغويين أوفر حظا في الاستشهاد بالشعر و النثر على السواء في إثبات معنى أو استعمال كلمة، و يكاد النحاة يقتصرون على الشعر. و زادت عنايتهم بالشواهد الشعرية مع الزمن، حتى "كان أبو مسحل يروي عن علي بن المبارك الأحمر أربعين ألف بيت شاهد في النحو".

1- محمد الخضر حسين. عن مجلة مجمع اللغة العربية. 3/208-210. المطبعة الأميرية و مطبعة دار الكتب المصرية.

2- ابن سلام الجمحي. طبقات فحول الشعراء. ج1 ص 25. تحقيق نديم مرعشلي. دار الكتاب العربي بيروت.

3- المرجع السابق. ص 22.

"بل كان أبو بكر الأنباري (- 328 هـ) يحفظ فيما ذكر ثلاثمائة ألف بيت شاهد في القرآن الكريم"1.

و إذا قابلنا الشواهد النثرية عند هؤلاء بالشواهد الشعرية وجدناها ضئيلة جـدا، فـإذا أضفنا إلى ذلك كله حملهم على الضرورة الشعرية كل شعر لم ينطبق على قواعـدهم و مقاييسهم التي بنوها على استقراء ناقص، عرفنا أن أساس تلك القواعـد و القـوانين غير متين من الناحية النظرية على الأقلّ.

وعموما فإن جهود هؤلاء العلماء من اللغويين و النحاة فيما يخص أمـر الاحتجـاج سواء أكان ذلك على مستوى الدوافع إلى هذا العمل الجبار الضخم أو علـى مـستوى الزمان و المكان و الأحوال، أم كان أيضا على مستوى الكلام و العلوم المحـتج بهـا كان وراءها بالغ الحرص على تأصيل اللسان العربي، و تخليصه من كل ما قد يعمـل على فساده و انهياره و هو ما يؤدي بالضرورة إلى سوء فهم مقاصد الدين الإسـلامي الحنيف. الفضل كلّ الفضل يعود إلى هذين المصدرين الكتاب و الـسنّة فـي صـمود و تحدي هذه العربية و شموخها.

1- ابن أبي يعلى. طبقات الحنابلة. ص 328. مطبعة الاعتدال بدمشق 1350هـ.

الفصـل الثالـث

تحصيل الملكة اللسانية

1 - الملكة اللسانية في رأي ابن خلدون
2 - الملكة اللسانية و تعليم القرآن
3 - ملكة الشعر في أسلوبه و لغته
4 - الملكة اللسانية لفنّي المنظوم و المنثور
5 - تحصيل ملكة اللسان العربي للأجانب و أهل الأمصار

1 – الملكة اللغوية في رأي ابن خلدون:

يعد ابن خلدون موسوعة علمية أتت على كل علوم عصره دراسة و تطبيقا و أرسى لكل علم أصوله و مبادئه الخاصة به، لذا فقد تباينت الدراسات حول معارفه العلمية فعالم الاجتماع يرى أنه عالم اجتماعي، و زعماء السياسة يرونه أنه خبير بشؤون السياسة، و المؤرخ يرى أنه عالم بتاريخ الأولين و الآخرين، و عالم الاقتصاد يرى أن له باعا كبيرا في الاقتصاد، و هلم جرا. و نحن في هذا البحث نحاول أن نرصد تجارب و آراء العالم ابن خلدون في فهمه للغة من خلال مقدمته الشهيرة فقد ظل مفهوم السليقة اللغوية يراوح مكانه، و نظر إليه أسلافنا ممن يشتغلون بحقل اللغة على أنه مرتبط ارتباطا وثيقا بالجنس العربي و من ثم فإنه يستحيل أن يجاوزه و يتعداه إلى من دونه من بني البشر، و بقيت هذه الفكرة تسيطر على الأذهان إلى أن جاء العلامة عبد الرحمن بن خلدون في عصر استفحلت فيه الجهالة و جمدت فيه القرائح و وسم بعصر الانحطاط، و هكذا يقدم لنا قراءة جديدة متقدمة جدا لتراثنا اللغوي، و بذلك تدرج هذا المفهوم شيئا فشيئا حتى أصبح ملكة لسانية كما سنرى.

يقول ابن خلدون: "يظن كثير... ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم أمر طبيعي، و يقول: كانت العرب تنطق بالطبع و ليس كذلك و إنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام، تمكنت و رسخت، فظهرت في بادئ الرأي أنها جبلّة و طبع "1.

و الهدف المتوخى من هذا الموضوع يكمن في معرفة تلك الملكة اللسانية و علاقتها بالنطق الصحيح و الدراسة المفيدة كما فهم ذلك كله ابن خلدون مع مقارنة ذلك بما يقوله علم اللسان الحديث الذي يتفق إلى حد بعيد مع ما سبق إليه العالم العربي الكبير ثم محاولة توظيف هذه الآراء للإجابة على تساؤلات ذات بال حول اللغة و دراستها في وقتنا الحاضر.

يقدم ابن خلدون رأيه في هذه الملكة اللسانية من جانبين:

جانب الألفاظ المفردة و المركبة، و جانب تمكن هذه الملكة لدى المتكلم مما أطلق عليه " تكرار الأفعال " و يرى أن تمام الملكة اللسانية إنما يكون بالنظر إلى التراكيب اللغوية لا بالنظر إلى المفردات، و هذه التراكيب اللغوية تعبر عن المعاني المقصودة للمتكلـم

---

1 – ابن خلدون. المقدمة. 4/ 1279.

فيتحقق بها الإفهام الصحيح، و يراعَى في تأليفها المطابقة لمقتضى الحال، و هذا كما يقول هو معنى البلاغة. و حول تمكن الملكة للناطق " بتكرار الأفعال " يصور ارتقاء هذا التكرار من الصفة إلى الحال إلى الملكة " لأن الفعل يقع أولا و تعود منه للذات صفة، ثم تكرر فتكون حالا، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة، أي صفة راسخة"1.

إن هذه النظرة السابقة للملكة اللسانية بشقيها لا يقصد بها ابن خلدون اللغة العربية وحدها، إنما هي فكرة عامة تنطبق على كل اللغات الإنسانية لأن اللغات إحدى مظاهر المجتمع الإنساني بل هي أخطر هذه المظاهر جميعا، و هو في مقدمته الشهيرة يتحدث عن مظاهر المجتمع و العمران بفهم عميق لقوانينها و تطورها و عوامل رقيها و فسادها، مما يكون نظريته الاجتماعية المتكاملة، و هذه النظرة السابقة عن اللغة إحدى جزئيات هذه النظرية.

فإذا اصطحبنا هذا الفهم إلى ما يقوله علم اللسان الحديث نجد الآتي:

إن الدراسة اللغوية تتدرج من علم الأصوات إلى الصرف إلى النحو، و على مستوى النطق تتدرج من مستوى الصوت إلى الكلمة إلى مستوى الجملة و هذا المستوى الأخير أي الجملة هي التي يتحقق بها الفهم و الإفهام.

و يقرر المحدثون أيضا أن للغة – أية لغة – مستويات ثلاثة هي:

اللغة المفهمة، اللغة الصحيحة، اللغة البليغة. و المقصود باللغة المفهمة أن تكون أداة للإفهام في أدنى درجاته، حيث لا يراعى فيها غالبا قواعد اللغة المستعملة وما يقرره من نظام في الأصوات و الصيغ و الجمل.

أما اللغة الصحيحة فهي في درجة أعلى من كونها للإفهام، فلا يتحقق لها هذا الوصف أي مراعاة مستوى الصحة إلا إذا روعي ما يحققها من نظام في الأصوات و البنية و الإعراب. أما اللغة البليغة فهي التي تحقق مستوى الجمال في التعبير فتسمح لصاحبها استعمال الألفاظ و التراكيب استعمالا صحيحا تصور به الظلال الدقيقة للمعاني المراد إثارتها.

---

1 – المرجع السابق . ص 1268 .

و من قضايا علم اللغة العام المعروفة أن اللغة ملك من يتعلمها فلا أثر للوراثة و الجنس فيها. فهناك فرق بين الاستعداد للتكلم و الكلام نفسه، الأول ضروري للإنسان فطبيعي أن يتكلم الإنسان كما هو طبيعي له أن يمشي و أن يتنفس، و هذا الاستعداد الفطري لابد أن يتحقق للإنسان في صورة كلام فعلي ما لم يوجد طارئ قاهر يحول دون تحققه. و هذا الكلام الفعلي يقوم على التعليم و التدريب المستمر و الاستعمال المكثف سبيلا لاكتساب لغة المجتمع الذي يعيش المرء فيه، تماما كما يكتسب المظاهر الاجتماعية الأخرى من تقاليد و عادات، حتى تصبح اللغة بالنسبة له أمرا عاديا لا يكاد يشعر به حين يستعمله.

إن ابن خلدون في تصوره للملكة اللسانية، قد سبق بحق فهم اللغويين المحدثين لها من حيث اعتمادها على الجمل لا على المفردات، و من حيث تدرجها من الإفهام إلى الصحة إلى البلاغة، و من حيث حصول هذه الملكة من العرف و العادة و المعايشة المستمرة للنطق الصحيح الفصيح في بيئة الفرد اللغوية.

فما كيفية الإفادة من تلك النظرة المتقدمة في حياتنا اللغوية المعاصرة ؟

لا تزال مستويات اللغة الآن – كما كان الأمر في عهد ابن خلدون و قبل عهده، مختلفة بين اللهجات التي تعبر عن المعاني الدارجة و الحاجات اليومية المتكررة و الفـصحى الصحيحة التي تعبر عن المواقف العامة و الفكر الراقي و أيضا لغة الأدب المـشحونة بالأحاسيس و المشاعر التي تعتمد على الصورة و الإيحاء و الظلال.

إن استعمال اللهجات في القرى و المدن لا يسبب لنا مشاكل ذات بال، فلا أحـد في انتقادنا عانى أو يعاني مشاكل في نطق لهجته في البيئة التي يعيش فيها سواء أكانت في شبه الجزيرة العربية أم في مصر أم في العراق أم في المغرب، أو وجد صـعوبة في التبليغ، فلكلّ لهجته التي لا يخطئها الناطق بها، و لا تحتاج منه إلى جهد أو دراسة و السبب في ذلك ما ذكره ابن خلدون عن الملكة اللسانية في تكرار سـماع اللهجـات على الآذان حتى أصبحت صفة راسخة و عادة بدهية، ينطقها أهلها تلقائيا دونما معاناة و لا مشقة. أما اللغة الصحيحة الفصيحة، و بالأولى اللغة البليغة، فهي المشكلة الحقيقية لأن من يجيدون النطق العربي الصحيح بين عوام المثقفين نادر جدا، بـل إنـه بـين المثقفين المشتغلين بالكلمة قاصر قصورا شائنا، و يصل في بعض الأحيان إلى الفـساد البين.

فإذا أخذنا بنظرة ابن خلدون لمعرفة الداء، فذلك أمر بسيط لا عـسر فيـه، لأن الملكة اللسانية الصحيحة تتكون بسماع اللغة الصحيحة و تكرار هذا السماع، و بالمثل تقصر هذه الملكة عن الوصول إلى مستوى الصحة ما دام المناخ المحيط بها لا يبعـث على الراحة و الاطمئنان حيث الأخطار الفاحشة و اللكنة و التواء الألـسن و ضـحالة الثقافة العربية، و تغلب اللهجات المحرفة، كما يساعد عليه الإهمال الشائن و الوقـوع تحت سيطرة الأساليب الأجنبية الوافدة.

و إذا أخذنا أيضا بنظرة ابن خلدون في شأن العلاج الناجع، كان النهج الذي يتبع يسيرا في خطته، لكنه في حاجة إلى جهد شاق في تنفيذه، و هو فـي عبـارة واحـدة " تعود الملكة اللسانية الصحيحة الجميلة"، فكيف يكون ذلك؟ يقول ابن خلدون" فالمتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم بسمع كلام أهل جيله و أساليبهم في مخاطباتهم و كيفية تعبيرهم عن مقاصدهم... فيلقنها كذلك، ثم لا يـزال سـماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة و من كل متكلم، و استعماله يتكرر، إلى أن يصير ذلك ملكة و صفة راسخة و يكون كأحدهم."1.

بيد أن المتعلم العربي الآن كما كان الأمر في عهد ابن خلدون، لا يملـك هـذا المناخ الصافي و هذا المنهل العذب، إن العكس هو الصحيح إذ يحيط به من كل جانب ما من شأنه يعمل على دفعه دفعا عن صحة اللغة و جمالها سماعا و قـراءة و كتابـة و لم يعد في متناول يده ذلك النموذج اللغوي المثالي الأصيل الذي يلقنه لـه المجتمـع فيحاكيه و يحتذيه دون تكلف و تصنع، لذلك كان من الواجب اصـطناع هـذا المنـاخ اللغوي اصطناعا، و اتخاذ الوسائل التي توصل إلى إجادة هذه الملكة اللـسانية بقـدر الإمكان. و يقدم ابن خلدون رأيه في هذه الحال الناشئة عن حاجة الملكة للتعلم تعمـدا و صناعة بعد أن انتهى العهد الذي كانت تتعلم فيه طبعا و سـليقة فيقـول: " و وجـه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة و يروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم (أي العرب) القديم الجاري على أساليبهم من القرآن و الحديث، و كلام السلف، و مخاطبات فحـول العرب في أسجاعهم و أشعارهم، و كلمات المولدين أيضا في سائر فنونهم، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم و المنثور منزلة من نشأ بينهم، و لقّن العبـارة عـن المقاصد منهم، ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهـم

---

1 – عبد الرحمن بن خلدون. المقدمة. 4 / 1269 .

و تأليف كلماتهم و ما وعاه و حفظه من أساليبهم و ترتيب ألفاظهم، فتحصل لـه هـذه الملكة بهذا الحفظ و الاستعمال، و يزداد بكثرتهما رسوخا و قوة، و يحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع و التفهم الحسن لمنازع العرب و أساليبهم في التراكيب و مراعاة التطبيق بينهما و بين مقتضيات الأحوال"1.

هذا هو الحلّ في نظر ابن خلدون، و هو حلّ تثبت الملاحظة صحته، فأولئك الذين نشؤوا بين أحضان المدارس الدينية كالأزهر و الزيتونة و غيرهما أقدر من غيرهم في ملكة اللسان من خريجي المدارس المدنية، و السبب في ذلك يقينا هو حفظ القرآن الكريم و المداومة على تلاوته. و لو تأملنا حياة كبار الشعراء و الأدباء و البلغاء و سر تألّقهم و تمكّنهم من التعبير الصحيح لأدركنا أن من أهم أسباب ذلك كثرة ما حفظوه من نصوص الشعر و النثر القديم حين تكوينهم اللغوي في الصغر و الشبيبة. و المهم في هذه القضية جانبها اللغوي من دلالتها على أن التمرس بالنصوص القديمة و استمرار هذا التمرس يصنع الملكة اللسانية و يجيدها.

إن الأخذ بهذه الفكرة، فيما نعتقد مفيد جدا لتكوين الملكة اللسانية للناطق العربي المعاصر عن طريق العناية بالنصوص الأدبية الجميلة و استعمالها بطريقة صحيحة.

ثم يتعرض ابن خلدون لموضوع خطير هو " صلة النحو بهذه الملكة اللسانية". فيقول عن صناعة العربية و قوانين الإعراب" إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة و مقاييسها خاصة، فهي علم بكيفية لا نفس كيفية."2.

ثم يشرح هذه الفكرة بالتفريق بين الملكة و قوانين الملكة، بين العلم النظري و الخبرة العملية بالتجربة، و يقدم دليلا على ذلك لمن يجيد العلم بصناعة النجارة و لا يمارسها عملا، فإذا سألته عنها شرحها لك قائلا: " أن تصنع المنشار على رأس الخشبة و تمسك بطرفه و آخر قبالتك ممسك بالطرف الآخر، و تتعاقبانه بينكما و أطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مرت علية ذاهبة جائية، إلى أن ينتهي إلى آخر الخشبة و يعقب ابن خلدون على ذلك بقوله:" و هو لو طولب بهذا العمل أو شيء منه، لم يحكمه، بل إنه ليؤيد رأيه بتمثيل آخر أقرب من واقع القضية نفسها، بأن كثيـ ـرا ممن

1 – عبد الرحمن بن خلدون. المقدمة. 1275/4.

2- المرجع السابق. ص 1276.

درسوا النحو و تعمقوا في أصوله و فروعه و أفنوا أعمارهم في البحث عن مسائله و مشاكله و لم يجيدوا هذه الملكة اللسانية، لا يستطيعون التعبير اللغوي الصحيح بينما كثير من الكتاب و الشعراء و البلغاء ممن أجادوا هذه الملكة يعبرون بطلاقة و سلاسة عما يريدون و إن هم لم يتعمقوا في دراسة النحو و قضاياه.

و في هذا يقول ابن خلدون: " نجد كثيرا من جهابذة النحو و المهرة في صناعة العربية إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده، أخطأ فيها عن الصواب و أكثر من اللّحن، و لم يجد تأليف الكـلام لـ ذلك... و كذلك نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة، و يجيد الفنين من المنظوم و المنثور و هـ و لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول، و لا المرفوع من المجرور و لا شيئا من قوانين صناعة العربية." 1

إن هذه الفكرة تتماشى مع ما تقره الدراسات اللغوية الحديثة، إذ تفرق بين الكلام و اللغة، فالكلام من خواص الفرد، و اللغة من خواص الجماعة، الكلام نشاط حي فيـه جدة الاستعمال و حيويته، و اللغة نظم مجمدة في القواميس و كتب النحو و الصرف.

و المتكلم حين يستعمل اللغة، فإنه يلجأ إلى ما يطلق عليه (محاكاة النظيـر) أي أنه يتكلم اعتمادا على مخزونه الذي اختزنه في ذهنه مما اكتسبه من نظم البيئة اللغوية التي يعيش فيها، أو بعبارة أخرى، إن هذا المتكلم لا ينطق هكذا كيفما جاء و اتفق، بل يتكلم بحسب العرف و العادة للغة المجتمع الذي يعيش فيه، تلك التي اكتسبها بتـدريب الملكة اللسانية و تعودها.

و هناك فرق بين ما يعتاده المتكلم من نظم اللغة التي يقيس عليها و مـا يفعلـه العالم النحوي من وضع القواعد و القوانين، الأول يتكلم دون قصد و تعمد، أما الثـاني فنية العمل فيه واضحة مقصودة، الأول يتعوده الشعور حتى يصبح عادة مـن عاداتـه كالمشي و الطعام، و الآخر مقاييس محددة موضوعة للاكتساب و الفهم، الأول انعكاس الاستعمال على ناطق اللغة، و الآتي آراء الدارسين المقننة لمن يستعلم اللغة.

و الدور الذي تؤديه كتب النحو – في نظر ابن خلدون – مرتبط بفهمه للملكـة اللسانية، و اعتمادها أساسا على النصوص اللغوية، و بناء على ذلك رحـب الرجـل " بكتاب سيبويه " لأنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط، بل فيه كثيـ ـر من أمثال

1- المرجع االسابق. ص 1277.

العرب و شواهد أشعارهم و عباراتهم، و أساليبهم، و هو بهذه الصفة يساعد على تكوين الملكة، و مثله كل كتب النحو التي تُعنى بالأمثلة الراقية و النصوص المنتقاة و التمارين اللغوية المفيدة.

أما كتب النحو المتأخرة فكل همها القواعد الجافة و الأمثلة الجامدة و التمارين الذهنية، و المجادلات العقيمة، و الاستطرادات الجانبية، فالذين يخالطون هذه الكتب كما يقول ابن خلدون قلما يشعرون بأمر هذه الملكة أو يتنبهون لشأنها، فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب، و هم في الحقيقة أبعد الناس عنه.

و نضيف توضيحا لكلام ابن خلدون أن النحو هو بمثابة قوانين الملكة اللسانية فهو حارس لها بعد تحصيلها من النصوص أولا، إذ يقرئنا الواقع أن كثيرا ممن يجيدون العربية إجادة تامة، يلجؤون أحيانا إلى مراجعة مصادر النحو و اللغة حين تتعثر الملكة في النطق أو تضل الحقيقة الحاسمة عنه، حينئذ يكون استفتاء قوانين الملكة استفتاء النحو.

2 – الملكة اللسانية و تعلم القرآن:

كان تعلم القرآن الكريم منذ القدم مطلبا عزيزا، فالآباء حريصون غاية الحرص على حمل أبنائهم الصغار على ذلك حملا رقيقا أو عنيفا، فيدفعون بهم إلى المدارس أو إلى أحد المقرئين أو إلى أحد الشيوخ الذين وهبوا أنفسهم خدمة لهذا العمل الجليل. و الكبار الذين يحفظون القرآن الكريم الآن يجهلون الأسباب و الدوافع التي حملتهم على حفظه إنما يتذكرون الكد و المعاناة و السهر و رشح الجبين، من حفظ الألواح و مراجعتها، و تثبيت الحفظ، و ربما لقي في سبيل ذلك الضرب الشديد من الوالد أو الفقيه. و الهدف من كل ذلك هدف ديني في المقام الأول، كما يقرر ذلك ابن خلدون بقوله: " اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين، أخذ به أهل الملّة و درجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان و عقائده من آيات القرآن، و بعض متون الأحاديث."1.

إن هذا النوع من التعليم يطبع الصغير المتعلم على تقبل ما يتفق مع هذه النشأة في فكره و شعوره لتكوين النسيج العلمي و الوجداني له، فكل ملكاته التي يحصلها بعد تقوم على هذا الأساس الأول ألا و هو حفظ القرآن الكريم.

1- المرجع السابق. ص 1239.

و لبيان أهمية ذلك راح ابن خلدون يعرض ما كان في الأمصار لعهده من الأخذ بتعلم القرآن و درجة هذا الأخذ و التعلم، فذكر أن مذهب أهل المغرب في الولدان الاقتصار كما يقول على تعليم القرآن فقط، و أخذهم أثناء المدارسة بالرسم و مسائله و اختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث و لا من فقه و لا من شعر و لا من كلام العرب، إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب عن العلم بالجملة ". و أما أهل الأندلس فإنهم لا يقتصرون على تعليم القرآن و رسمه بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر و الترسل و قوانين العربية و حفظها و تجويد الخط و الكتاب، إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة و قد شدا بعض الشيء في العربية و الشعر و البصر بهما. و أهل أهل إفريقية – لعله يقصد بذلك تونس و الجزائر لعهده، فيأخذون المتعلمين بالقرآن و بعض العلوم الأخرى، كالحديث و قوانين العربية، لكن عنايتهم – كما يقول – بالقرآن و استظهار الولدان إياه، و وقوفهم على اختلاف رواياته و قراءته أكثر مما سواه. و لم يحدد كعادته ما يدرسه أهل المشرق، و يقصد به الشام و العراق و ما والاهما، لكنه نقل عنهم أنهم يخلطون تعليم القرآن بغيره من العلوم التي ذكرها لكنهم يفردون الخط بتعليم خاص به، فله قانون و معلمون على انفراد، كما تُتعلم سائر الصنائع. فماذا عن رأيه في الملكة اللسانية و إجادتها لمن يتعلمون القرآن ؟

من الشائع لدى المشتغلين بالأدب أن القرآن الكريم من النثر، و أنه نثر ذو المنزلة التي لا ترتقي إليها منزلة أخرى في الكلام، و أن في نظمه من الترابط و مراعاة الآداء للمواقف المختلفة، و ما يحويه من الأمور الغيبية ما يجعله نموذجا مثاليا لبلاغة الكلام العربي و لما كان على هذه المنزلة الرفيعة فقد وقف علماء البيان كثيرا من مجهوداتهم العلمية على إظهار بلاغة نظمه و سر جماله و روعة تركيبه و رقّة معانيه، فأنشؤوا في ذلك كتبا ضخمة و أعمالا نفيسة، و مازالت جهود المحدثين تتوالى في هذا الشأن.

و مما هو شائع أيضا و بديهي أن تعلم القرآن الكريم هو أساس الثروة اللغويـة التي يحصلها دارس الفصحى، و أنه يجب أن يؤخذ في الحسبان في تعلم اللسان العربي و من أغفله، فإنه يبقى قاصرا قصورا بينا و عاجزا عن إجادة اللغة العربية و الـتمكن منها و التحكم في زمامها.

فابن خلدون يقرر -كما قيل من قبله و من بعده- أن النثر منه " السجع " الذي يؤتى به قطعا، و يلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة، و منه " المرسل " و هو الذي يرسل فيه الكلام من غير تقييد بقافية أو غيرها. لكنه يقول "و القرآن و إن كان من المنثور إلا أنه خارج عن الوصفين، و ليس يسمى مرسلا مطلقا و لا مسجعا، بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع، يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها، ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها، و يثني في غير التزام حرف يكون سجعا و لا قافية. و يسمى آخر الآيات منها " فواصل" إذ ليست أسجاعا و لا التزم فيها ما يلتزم في السجع، و لا هي قواف. و أطلق اسم " المثاني" على آيات القرآن كلها -على العموم- و اختصت "بأم القرآن"1 للغلبة فيها. و فهم " تفصيل الآيات " بمعنى التبيين و التمايز "و الفاصلة " أواخر الآيات و هي بمنزلة القافية، و المثاني من الثّنى، بمعنى إعادة الآية بعد الآية، فيثنّي بها السابقة عليها، و بهذه السمات العامة استقل أسلوب القرآن الكريم و انفرد عن كلّ من الشعر و الترسل.

أما عن حصول الملكة اللسانية من تعلم القرآن، فإن ابن خلدون يلفت أذهاننا إلى شيء جديد، فهو يرى " أن الاقتصار على تعليم القرآن نشأ عنه القصور عـن ملكـة اللسان جملة " 2.

و يعلل ذلك بأن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله و محاكاته مشيرا إلى قوله تعالى: " قُلْ لَئِن اجتَمَعَتِ الإِنْس و الجِن عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْل هَذَا القُرآن، لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَو كَانَ بَعضهم لِبَعضٍ ظَهيرا"3. و بهذه الصرفة لا تتحقق للمشتغلين به ملكة تماثله أو تحاكيه. كما أن الاقتصار على القرآن و الاشتغال به وحده يجعل صـاحبه بمعـزل عن تحقيق ملكة لسانية في غيره.

و النتيجة التي وصل إليها ابن خلدون هي أن المقتصرين على تعلم القرآن قاصـرون في ملكة اللسان العربي، إذ لا تحدث لهم هذه الملكة به أو بغيره. ثم راح الرجل يطبق هذا الحكم على الناشئة و المتعلمين في الأمصار لعهده، فقد قـرر أن أهـل إفريقيـة و المغرب قاصرون في ملك اللسان العربي لكن أهل إفريقية أخف في ذلك من أهـــل

1- المرجع السابق. ص 1286.

2- المرجع السابق. ص 1241.

3- الآية 88 من سورة الإسراء.

المغرب، لأنهم يخلطون تعلمهم القرآن ببعض العلوم الأخرى.

لكن "ملكة اللسان" -في رأيه- حصلها أهل الأندلس لأنهم يأخذون أنفسهم بكلام العرب و روايته، و مدارسة العربية. ثم نجده يخطو خطوة أخرى تشبه اقتراحا يقدمه حلا لهذه المشكلة فنسب " لأبي بكر العربي " رأيا وافقه علميا لا دينيا. و ملخص هذا الرأي أن يتعلم الصغار أولا كلام العرب، و بخاصة الشعر، و يدرسون العربية و الحساب، ثم بعد ذلك يتعلمون القرآن، لأن أخذهم بقراءة القرآن و حفظه في البداية يسبب لهم المشقة و الإجهاد، من قراءة ما لا يفهمون ناهيك بحفظه و تجويده.

و يعلق ابن خلدون على ذلك بقوله:" و هذا لعمري مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه، و هي أملك بالأحوال و وجه ما اختصت به العوائد، من تقديم دراسة القرآن إيثارا للتبرك و الثواب"1.

إن ما يلفت أذهاننا في رأي ابن خلدون بخصوص قصور الملكة اللسانية حين الاقتصار على تعليم القرآن يؤيده الواقع المعيشي؛ إذ كثيرا ما نرى حفظة القرآن في القرى و المدن العربية ممن حفظوا القرآن الكريم في الزوايا و الكتاتيب، و هم يرتلونه في الدور و القبور و الأفراح و المآتم، وقد قصروا أنفسهم عليه، فلا يكادون يعرفون غيره. هؤلاء إذا أبعدتهم عما يجيدونه و يعكفون عليه من حفظ القرآن و تلاوته -ربما دون فهم لمعانيه و مقاصده-، قصرت بهم إمكاناتهم عن إجادة اللسان العربي، فلا يمكنهم مثلا ارتجال خطبة صحيحة في مبناها و معناها، و لا يمكنهم كتابة موضوع يخلو من الأخطاء في البنية و نظم الكلمات و الإعراب، كما لا يمكنهم قراءة سطور من نص علمي أو فني من النثر أو من الشعر دون الإخلال به يصل إلى حد الفساد البين. كما يؤيد هذه الفكرة واقع آخر مشاهد أيضا يتمثل في الأجانب عن اللسان العربي، كالإيرانيين و الباكستانيين و الأتراك، و غيرهم، حيث ترى أحدهم يمسك بالقرآن الكريم و يقرأ فيه و يرتل القراءة بيد أنه مع ذلك قاصر عن الحد الأدنى للتفاهم باللسان العربي، ناهيك بملكة الفصحى و إجادتها.

انطلاقا من فكرة ابن خلدون بشأن حصول الملكة اللسانية، نجد أن العالم صائب النظرة و نافذ البصيرة إذا ما طبقناها على المتعلم الذي يتوقف جهده على ما حصله في

1- المرجع السابق. ص 1242.

صغره من قراءة القرآن و حفظه، ثم قصر به جهده و تحصيله على تجاوز ما سبق ذكره.

أما من طال به الزمن، فتدبر معاني القرآن و درس تفسيره، و فهم ألفاظه و جمله و أساليبه، حينئذ تصبح هذه كلها جزءا مهما من تكوينه اللغوي، و تكون عونا أكيدا له على تحصيل الملكة اللسانية و إجادتها، و يؤكد هذا الكلام مال يظهر به علماء ديننا الحنيف و فقهاؤنا من خلال فصاحة و بلاغة خطبهم و متانتها، و رصانة كتاباتهم و إحكام نسجها.

3 – ملكة الشعر في أسلوبه و لغته:

يقول ابن خلدون: " ملكة الشعر تنشأ بحفظ الشعر"، و يوضح ذلك بقوله: " اعلم أن لعمل الشعر و إحكام صناعته شروطا، أولها الحفظ من جنسه أي من جنس شعر العرب، حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها، و يتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب ... ثم بعد الامتلاء من الحفظ، و شحذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم، و بالإكثار منه تستحكم ملكة و ترسخ ".1

و نفهم من قول العلامة ابن خلدون أنه يعتبر الشعر ملكة صناعية، و يبين الكيفية و الطريقة التي تحصل بها هذه الملكة. و في رأيه أن هذه الكيفية تبدأ أولا باختبار ما يحفظ من شعر العرب، ثم الإقبال على حفظه، و بكثرة الحفظ تنشأ ملكة الشعر التي شبهها بالمنوال الذي ينسج عليه، ثم يقبل بعد ذلك على نظم الشعر و بالممارسة و تكرار هذه الممارسة تستحكم الملكة و ترسخ.

فملكة الشعر إذا في نظر ابن خلدون عمل مكتسب يقوم على اختيار المحفوظ من شعر العرب، فالحفظ، فالملكة فالممارسة فالتمكن من الملكة، شأنها شأن تحصيل ملكة اللغة بدءا بالتعود و التكرار و توالي التكرار لحدوث الصفة ثم الحال ثم الملكة كما يظهر ذلك في كل منهجه.

إلا أن هناك جانبا مهما في نظم الشعر يصعب تحديده في نظرة ابن خلدون و صناعته، لأنه خارج عن الصنعة و الاكتساب، و هذا الجانب المهم يكمن في " موهبة الشعر " ذلك الإشعاع الإلهي و الإلهام الروحي الذي ينطلق من أعماق الشاعر و يطلعه على عوامل غريبة من السحر و الصور و الظلال و الألوان التي لا يراها

1- المرجع السابق. ص 1296.

سواه لما أوتي من شاعرية و رهافة تجعله يقيد كل ذلك في أوزان و صور ثم يطلقهـا غناء جميلا عذبا يسمى " الشعر " يأخذ بالألباب إلى الأجواء الخيالية الطريفـة ملؤهـا اللذة الفنية و المتعة.

و لو كان الأمر فقط كما اعتقده ابن خلدون، لصح أن يكون كل رواة الشعر في القديم من الشعراء، و لكان الطريق إلى الشعر ممكنا لدى من يرومه، لكن واقع الأمـر على خلاف ذلك، فما كل من روى الشعر و حفظه صـار شـاعرا. و قـديما فـرق الأقدمون بين رواية الشعر و درايته، و بين حفظه و إجادته، و بين تعلمه و موهبتـه و أمامنا هذه الروايات الدالة على ذلك:

قال الوليد بن يزيد الأموي يوما لحماد الراوية: كم مقدار ما تحفظ من الـشعر؟ قال: كثيرا ! و لكن أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطوعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام، و يقال: إنه قد فعل1.

و عن المازني قال: قلت للأصمعي: إنك لتحفظ من الرجز ما لا يحفظه أحـد! فقال: إنه كان همنا و سدمنا 2 (أي حرصنا الشديد).

و يقول القفطي عن محمد بن القاسم الأنباري: كان يحفظ – فيما ذكر – ثلاثمائة ألف بيت من الشعر شاهدة في القرآن، و كان يملي من حفظه لا من كتاب3.

و تدل هذه الروايات الثلاثة علـى أن هـؤلاء الثلاثـة، حمـادا و الأصـمعي و الأنباري، لم يشتهروا في تاريخنا الأدبي بأنهم شعراء مجيدون أو غير مجيدين مـن هذا المحفوظ الضخم من شعر العرب، و قصارى ما وصل إليه حمادا أن اسـتطاع أن يحاكي بعض الشعراء الأقدمين في قصائد غير محددة و غير مميزة، و لكنه لم يكن ذا شعرية مستقلة لها ميزتها و طعمها الخاص، و لم يغنه محفوظه الكثير من الشعر شيئا كما لم يغن غيره من الرواة.

1- وفايات الأعيان. ج1 . ص 448. لأبي العباس أحمد بن محمد بن خلكان. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. طبع القاهرة سنة 1948.

2- مراتب النحويين. ص 57. لأبي الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي. تحقيق محمد أبو الفضل إبـراهيم. طبـع القاهرة 1955.

3- إنباء الرواة. ج3 ص 202. علي بن يوسف القفطي. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. طبع دار الكتب القـاهرة 1950.

إن الشاعر الذي يستحق هذا الاسم هو من امتلك بالفطرة و الخليقـة موهبـة الـشعر و قوامها الرهافة الموسيقية و الإحساس العميق بجوهر الناس و الأشياء مع القدرة على النفاذ إليها، و أن يكون له عالمه الخاص الذي تسبح فيه الرؤى و التصورات والأخيلة. أضف إلى ذلك معرفته الواسعة و العميقة بثقافة عصره و سلوك بيئته، و ما يحدث في هذا العصر و تلك البيئة من تجارب و أحداث و أيضا الاكتساب اللغوي الذي يـساعده على إجادة فنه الشعري و قوة نسجه و وفرة مادته من الألفاظ و الأسـاليب و بتعبيـر آخر توافره على العناصر الفنية من فكرة و عاطفة و خيال و أسلوب.

فحديث ابن خلدون عن " ملكة الشعر " هو في الواقع حديث عن اكتساب المهارة اللسانية لقول الشعر، و أدار حول هذا الجانب اللغوي وحده كل آرائه، و أغفل جوانب أخرى هي لازمة للشعر و الشاعر و هي الموهبة و الوعي، و يقدم ابن خلدون فهمـه لهذا الأمر في مستويين هما:

1 – تصويره لملكة الشعر و تحديده له.

2 – مجموعة من الآراء التي بنيت على فهمه للشعر و ملكته.

و يرد في مقدمته مفهوم " سلوك الأسلوب عند أهل الـصناعة " و يقـصد بـه الوصف العملي لأسلوب الشعر عند الشعراء، أهل هذه الصناعة. أي الطريقـة التـي ينظم بها الشاعر قصيدته فتصبح صالحة للتعامل بها فـي عـالم الـشعر. و تتـردد مصطلحات أربعة في شرح هذه الفكرة هي (أصل المعنى، كمـال المعنـى، الـوزن الصورة الذهنية).

و المقصود من " أصل المعنى " الدلالة العرفية الصحيحة للغة و ما تقتضيه من معان صحيحة للكلمات، و نطق صحيح للكلام من حيث نظمه و إعرابه.

و أما كمال المعنى، فهو خواص الكلام البلاغية و مطابقتها لمقتضى الحال.

و أما الوزن، أن يلتزم الشعر البحور و القوافي و يتقيد بهما.

و يعلق ابن خلدون على هذه الثلاثة بقوله: " فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية، ثم يحدد مقصده من خروجها بأنها ليست هي هذه الـصناعة لكنهـا شرط فيها لا تتم بدونها.

أما المصطلح الرابع " الصورة الذهنية " فهو الذي بنى عليه صـناعة الملكـة الشعرية كاملة. و يقول في ذلك: " فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي ينسج فيه

التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه، و لا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب، و لا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة و البيان، و لا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيـه الـذي هـو وظيفة العروض، فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية.

و إنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية، باعتبار انطباقها علـى تركيب خاص، و تلك الصورة ينتزعها الذهن مـن أعيـان التراكيـب و أشخاصـها و يصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عنـد العـرب باعتبار الإعراب و البيان، فيرصها فيه رصا كما يفعل البناء في القالب، أو النساج في المنوال، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقـصود الكـلام و يقـع علـى الصورة الصحيحة، باعتبار ملكة اللسان العربي فيه1.

و نحاول فهم كلام ابن خلدون عن الصورة الذهنية، فإنه يقصد بها أنها تخيـل ذهني منظم متكامل الخطوط و الحدود لكل فن من فنون الشعر، يحدثه التأمل الطويـل للشعر الذي قاله الشعراء من قبل، إنها كما قال: قالب يرص فيه الكلام أو منوال ينسج عليه، يتحقق به الوفاء بصناعة هذا الفن كما مارسها فرسانه من شعراء العـرب مـن قبل.

فقد استحال الأسلوب الشعري إذا إلى صورة ذهنية، و قالب يرص فيه الكـلام و منوال ينسج عليه. وكلها لوازم صناعة الملكة الشعرية، و الملكات كلها -في رأيه- صناعة. و أين هذا العموم و الشمول و التحديد الذهني من العبارة التي تقول: " الرجل الأسلوب" و الشاعر رجل متميز، فهو أيضا " الأسلوب" فلكل شاعر تميـزه و طعمـه الخاص الذي ينعكس عل أسلوبه الشعري، و البحث عن الأسلوب" يجب أن يبدأ به هو بمقدرته و موهبته و مزاجه و مذاقه، و شخصيته، و من ذلك و بـه يتحـدد أسـلوبه و طريقته و قيمته في عصره و فنه.

تعريف ابن خلدون للشعر:

جاء في كتب العروض و الأدب و اللغة أن الشعر هو " الكلام الموزون المقفّى قصدا" أما عالمنا ابن خلدون فإنه لم يعجبه هذا التعريف لأنه يتجه للشكل العروضـي وحده، و قد اعتبره من لوازم الملكة و ليس من عناصرها الأساسية، و قدم تعريفا بديلا

1- المرجع السابق. ص 1291.

له بقوله: "الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة و الأوصاف، الفصل بـأجزاء متفقة في الوزن و الروي، مستقل كل جزء منها في غرضـه و مقـصده عمـا قبلـه و بعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به ".1.

إذا تأملنا هذا التعريف وجدنا أن مفهوم الشعر عنده يقوم على أركان أربعة هي:

1 – الكلام البليغ المبني على الاستعارة و الأوصاف.

2 – المفصل بأجزاء متفقة في الوزن و الروي.

3 – كل جزء مستقل في غرضه و مقصده.

4 – الجاري على أساليب العرب المخصوصة به.

و الجديد الذي يحمله هذا التحديد العنصران الأول و الثالث؛ فوصف الشعر بالكلام البليغ المبني على الاستعارة و الأوصاف وصف جيد، لأن مجرد الوزن و القافية لا يتحقق به مفهوم متكامل للشعر، و إلا اندرج تحته السرد الغث و الكلام التقريري المباشر ما دام موزونا و مقفّى، و لكي يستحق الكلام وصف الشعر لا بد فيه من " البناء بالصور " بتعبيرنا الحالي، أو " الكلام البليغ القائم على الاستعارة و الأوصاف " كما قال ابن خلدون.

أما تحديده للشعر بأن " يستقل كل جزء منه في" غرضه و مقصده "، فقد وضح ما يعنيه بقوله: " إن الشعر لا تكون أبياته إلا كذلك " و هي فكرة مفادها أن القـصيدة عبارة عن مجموعة أجزاء مفرقة الأغراض و المقاصد بحسب كلّ بيت فيها، و هـذا غريب! و أغرب منه أن يكون هذا قيدا في تعريف الشعر و أن يكرره ابن خلدون في أكثر من موضع من آرائه حول مفهوم الشعر و ملكته، إذ يقول في موضع آخـــر " و ينفرد كل بيت منه، (الشعر) بإفادته في تراكيبه، حتى كأنه كلام وحده، مستقل عما قبله و بعده، و إذا أفرد كان تماما في بابه في مدح أو تـشبيب أو رثـاء " فيحـرص الشاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستقل في إفادته. ثم يستأنف في البيت الآخر كلامـا آخر كذلك، و يستطرد للخروج من فن إلى فن، و من مقصود إلى مقصود، بأن يوطئ المقصود الأول و معانيه، إلى أن يناسب المقصود الثاني، و يبعد الكلام عـن التنـافر كما يستطرد من النسيب إلى المدح ، و من وصف البيداء و الطلـول، إلـى وصـف الركاب أو الخيل أو الطيف، و من وصف الممدوح إلى وصف قومه و عساكـــره

1- المرجع السابق. ص 1295.

و من التفجع و العزاء في الرثاء " إلى التأبين و أمثال ذلك. "1.

هذه الفكرة نفسها فتحت بابا واسعا للمتهجمين في عصرنا الحاضر على الشعر العربي القديم بأنه شعر مفكك الأوصال، متناثر المعاني، يفتقر إلى الوحدة، بل كانت هذه الفكرة مستندا لأصحاب الشعر الحر و سبيلا لمهاجمة الشعر الموزون المقفى كلية.

و واضح أن ابن خلدون في تصوره لصناعة الملكة الشعرية باعتبار العناصر الأربعة سلك مسلك أية ملكة أخرى حيث لم يأخذ في الحسبان ما وراء الصنعة من أعماق الشعور و تجربة الشاعر النفسية و العاطفية، و بناء قصيدته المتماسك الموحد حول تلك المشاعر و العواطف. و لو أنه أخذ في الحسبان هذا المفهوم للشعر لكان ابتعد عن هذا القيد المعيب.

4 – الملكة اللسانية لفني النظم و النثر:

خص العلامة عبد الرحمن بن خلدون الشعر بكلام مستقل مرات عدة في مقدمته الشهيرة، بيد أنه خصص في مقدمته كذلك فصولا عدة للحديث عن فني النظم و النثر مجتمعين، مع الحديث عن أساليبهما و لغتهما، و الجدير بالملاحظة فيما كتب عن هذا الموضوع أن الرجل ربط ذلك كله بالموضوع الرئيسي الذي يدور حول كل تفكيره ألا و هو " الملكة اللسانية"، سواء أكان ذلك على مستوى صحة اللغة أو جمالها.

فقد عنون أحد فصول المقدمة بـ " في انقسام الكلام إلى فني النظم و النثر "2.
و عنون آخر بـ " في أنه لا تتفق الإجادة في فني المنظوم و المنثور إلا للأقل"3.

و فصلا آخر عنونه بـ" في أن صناعة النظم و النثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني " 4 و هكذا.

و لطرق هذا الموضوع اعتمد المنهج الآتي:

1 – المذاهب و الأساليب لكل من فني النثر و النظم.

2 – اكتساب ملكة هذين الفنين و إجادتهما.

3 – المطبوع و المصنوع من الكلام نثرا و شعرا.

1- ابن خلدون. المقدمة. ص 1098.

2- المرجع السابق. ص 1093.

3- المرجع السابق. ص .1096.

4- المرجع السابق. ص 1110.

4 – كلام الإسلاميين أفضل من كلام الجاهليين.

5 – صناعة النظم والنثر للألفاظ لا للمعاني.

و فيما يلي عرض لأهم آراء الرجل في هذه النقاط السابقة مع بيان ما ألتزمـه فيها من فهمه للملكة اللسانية، و مع بيان رأينا المتواضع في شأن هذه الأمور.

1 – يقول ابن خلدون:"اِعلم أن لسان العرب و كلامهم على فنين في الشعر المنظـوم و هو الكلام الموزون المقفى و معناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد و هـو القافية. و في النثر و هو الكلام غير الموزون، و كل واحد من الفنين يشتمل على فنون و مذاهب في الكلام.

فأما الشعر، فمنه المدح و الهجاء و الرثاء، و أما النثر فمنه السجع الذي يـؤتى به قطعا،... و يستعمل في الخطب و الدعاء و ترغيب الجمهور و ترهيبهم".1.

و يضيف إلى ذلك أمرا آخر، و هو أن لكل هذه الأنواع أساليب تخـتص بـه فأساليب الشعر يناسبها، كما يقول: اللوذعية2، و خلط الجد بالهزل، و الإطنـاب مـن الأوصاف، و ضرب الأمثال، و كثرة التشبيهات و الاستعارات، بالإضافة إلى ما هـو مأخوذ في تحديده من التزام الوزن و القافية، و يقول في ذلك:" إذ أساليب الشعر تبـاح فيها اللوذعية و خلط الجد بالهزل، و الإطناب في الأوصاف و ضرب الأمثال و كثـر التشبيهات و الاستعارات، حيث لا تدعو لذلك كله ضرورة في الخطاب، و التزام التقفية أيضا من اللوذعية و التزيين و جلال الملك و السلطان"3.

أما الترسل فأكثر ما يمتاز به -كما يقول- إطلاق الكلام م و إرساله من غيـر تسجيع إلا في الأقل النادر، و حيث ترسله الملكة إرسالا من غير تكلف له، ثم إعطـاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال، فإن المقامات مختلفة، و لكـل مقـام أسـلوب يخصه من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبـات أو تـصريح أو إشـارة أو كنايـة أو استعارة"4. و أما السجع فإنه يستعمل في النثر الموازين الشعرية من غير التزام و يلزم التقفية و يستخدم أساليب الشعر التي سبق ذكرها، مع تقديم النسيب بين يدي الأغراض و"صار هذا المنثور، إذا تأملته من باب الشعر و فنه و لم يفترقا إلا في الوزن".

1- المرجع السابق. ص 1093.

2- اللوذعية: الخفة و الذكاء، و الطرافة و الفصاحة.

(3-4)- ابن خلدون. المقدمة. ص 1095.

2 – إن ما ذكره العلامة ابن خلدون من قبل عن تحصيل الملكة اللسانية عموما، و عن تحصيل ملكة الشعر على وجه الخصوص مما أسماه " الصورة الذهنية " أو " القالب " أو " المنوال " يزيده تأكيدا ههنا مرة أخرى في تحصيل ملكتي النثر و النظم.

فالأساليب الذهنية التي تصير كالقوالب، إنما يحصلها حفـظ أشـعار العـرب و كلامهم، فهي تحدث من النظر الطويل في المستعمل عند العرب من هذين الفنين أي النثر و النظم، و حفظ ما يمكن حفظه، و محاولة استعمال ذلك كما اسـتعملته العـرب فيتكون لديه بطول التأمل و الحفظ و الاستعمال " قالب كلي مطلق " يحذو حـذوه فـي التأليف كما يحذو البنّاء على القالب و النساج على المنوال.

فالموضوع إذًا كما ذكر قبل، صنعة من بدايتها إلى نهايتها، و كل من يرغب في أن تكون لديه " ملكة لسانية فنية " أديبا كان أم شاعرا، فما عليه سوى أن يأخذ نفـسه بهذا النهج الذي رسمه ابن خلدون، أي عليه بالحفظ و موالاة الحفـظ، و يتأمـل فـي القوالب المعينة في استعمال العرب، حتى يتحصل لديه " القالـب أو المنـوال العـام " ليظفر بهذه الملكة اللسانية الفنية.

و قد يذهب بنا رأي ابن خلدون في تحصيل ملكة اللسان لهذين الفنـين إلـى أن نفهم منه أنه يقصد بذلك أولئك اللذين تهيأت نفوسهم بالفطرة للوصول إلى مرتبة الأدباء و الشعراء ذوي البصر و البصيرة. أما أن يقصد به هذه الصنعة الجامدة و تحـصيلها لكل من يريد ممن يحفظون الشعر أو النثر، فذلك أمر لا يوافقه عليـه أهـل الـصنعة أنفسهم، و لم يستطع ابن خلدون نفسه مع كثرة ما حفظ من شعر، أن يكـون شـاعرا مجيدا. ففي قوله:" و الملكات الصناعية كلها إنما تكتسب بالصناعة و الارتيـاض فـي كلامهم "1، نجده يعمم في إطلاق أحكامه إذ هو يغفل جانبا هاما لدى كل من الأديـب و الشاعر إنها الموهبة الفنية كما أسلفنا.

3 – أما عن إجادة هذه الملكة اللسانية في هذين الفنين المنثور و المنظوم، فيقررها ابن خلدون في ناحيتين هما اكتسابها و تفردها.

فما دامت الملكة تكتسب بالحفظ " فعلى قدر جودة المحفوظ و طبقته في جنـسه و كثرته من قلته، تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ ".

---

1 – تاريخ العلامة ابن خلدون. م1 ط2. ص 1099 مكتبة المدرسة و دار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر.بيروت 1979.

و على مقدار جودة المحفوظ أو المسموع، تكون جودة الاستعمال من بعده، ثـم إجادة الملكة من بعدها "1.

إنه النهج نفسه الذي نهجه منذ البداية، حفظ و استعمال ثم إجادة للملكة، و يدلّل على ذلك بإيراد مجموعة من الشعراء و الكتاب، -كلامهم في رأيه عالي الطبقة- "فمن كان محفوظه من أشعار العرب الإسلاميين شعر حبيب أو العتابي أو ابن المعتز أو ابن هانئ أو الشريف الرضي، أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هارون أو ابن الزيات..."

و يورد مجموعة أخرى -هي في رأيه أدنى طبقة-، " و من يحفظ أشعار المتأخرين مثل شعر ابن سهل أو ابن النبية أو ترسل البيساني أو العماد الأصبهاني"2.

و يقول: " إن من يحفظ كلام الأولين تكون ملكته أجود ممن يحفظ كلام المتأخرين".

إلا أنه يرى من جهة أخرى أن من عوامل إجادة هذه الملكة أيضا تفردها، و يتتبع ذلك باعتبارين:

الاعتبار الأول أن يتفرد المرء، أو بعبارة أخرى يتخصص فـي أحـد الفنـين الـنظم أو النثر، و قد عقد فصلا في المقدمة بعنوان (في أنه لا تتفق الإجادة في فني المنظوم و المنثور معا إلا للأقل)3. و راح يدلل على ذلك بطريقة صناعية بحتة، بأن المحـل – اللّسان – إذا شُغل بإحدى الملكتين، جاءته خاليا على الفطرة فكملت لـه، و كانـت بالنسبة إليه أسهل و أيسر، و حينئذ يتعذر عليه إجادة الملكة الأخرى.

يبدو أن العلامة ابن خلدون صاحب النظرة فيما رآه، فلو تتبعنـا تـاريخ الأدب العربي في عصوره المختلفة إلى وقتنا الحاضر لوجدنا ما يؤيد رأيه، فلنضرب مـثلا على العقاد و شوقي؛ فالأول كما هو معلوم اشتهر في فن الكتابة النثرية و لمع فيها بما لا يوازيها شعره. أما الآخر فقد برزت ملكة الشعر عنده و اشتهر بما لا يوازيهـا مـا كتبه من نثر ضعيف الصنعة.

أما الاعتبار الثاني فهو أبعد من الأول، و ذلك أن المشتغلين بالعلوم لا يتحقـق لهم إجادة أي من الفنين، النظم أو النثر، إذ يحفظون كثيرا من القوانين العلميـــة التي يشتغلون بها. " فإذا سبق ذلك المحفوظ إلى الفكر و كثر، و تلونـت به النفـس

---

1 – تاريخ العلامة ابن خلدون. المجلد الأول . ط2 .ص 1112 .مكتبة المدرسة و دار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر بيروت 1979.

2 – المرجع نفسه . الصفحة 1112.

3 – المرجع نفسه . ص 1096.

"جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور، و انحرفت عباراته عن أساليب العرب في كلامهم"1. و يدال على ذلك شعر النحاة و الفقهاء و المتكلمين، فإنه شعر علماء لا يرقى إلى درجة الاعتداد به في الفن، بل يطبق نظرته على نفسه، فيحكي هذه المحادثة بينه و بين ابن الخطيب الأديب الأندلسي المشهور يقول: " فقالت له: أجد استصعابا علي في نظم الشعر متى رمته، مع بصري به و حفظي للجيد من الكلام من القرآن و الحديث و فنون من كلام العرب، و إن كان محفوظي قليلا، و إنما أتيت -و ا أعلم- من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية و القوانين التأليفية فإني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى و الصغرى في القراءات، و تدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه و الأصول و جمل الخونجي في المنطق و بعض كتاب التسهيل و كثيرا من قوانين التعليم في المجالس، فأمتلأ محفوظي من ذلك، و خدش وجه الملكة التي استعددت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن و الحديث و كلام العرب، فعاق القريحة عن بلوغها. فنظر -يقصد ابن الخطيب-، إلي ساعة متعجبا، ثم قال: أنت! و هل يقول هذا إلاّ مثلك".2.

يبدو ابن خلدون ذا نظرة صائبة فيما يقول؛ فالذين يشتغلون بالبحث العلمي -عموما- يبعد بهم عملهم عن تحصيل هذه الملكة، و تكون في غاية القصور و تزيغ عن المحجة.

4- يتدرج الأسلوب -في رأي ابن خلدون- تحت وصفين هما: المطبوع و المصنوع و قد خصص فصل لهذا الموضوع عنونه بـ (في بيان المطبوع و المصنوع من الكلام). و لبيان معنى إطلاق هذين الوصفين على أداء الشعر أو النثر، ذكر ثلاثة مصطلحات هي (إفادة المعنى -كمال الإفادة- التحسن و التزيين).

لقد عاود الحديث عن المصطلحين الأولين هنا بعد ما ذكرناهما من قبل في حديثه عن الصورة الذهنية لصنعة الملكة، فقرر ثانية أن " لإفادة أصل المعنى" يكون بصحة اللغة و استيفاء شروطها و أحكامها التي هي جلّ قوانين العربية في إسناد التراكيب.

و يحيط بهذا الإسناد معان خارجة عن أصله تستفاد من التقديم و التأخير و التعريف

1- ابن خلدون. المقدمة. ج4 ص 1304.

2- المرجع السابق. ص 1305.

و التنكير و الإضمار و الإظهار، و هي أبحاث تدخل في علم المعاني. و كـذلك مـا يستفاد من انتقال الذهن بين المعاني بالدلالات المختلفة للتشبيه و الاستعارة و الكنايـة. و هي أبحاث تدخل في علم البيان، و هذا كله يوصلنا إلى تحقيق مـا أسـماه " كمـال الإفادة ". و إذ لم يتحقق للكلام " إفادة المعنى" فهو موات همل، و لا عبرة به، و إذا لم يتحقق له " كمال الإفادة " كان مقصرا عن مقتضيات البلاغة، و البلاغة أصل الكـلام العربي و روحه و سجيته. أما التحسين أو التزيين، فيكون بعد تحقق أصـل المعنـى كماله و يتحقق بضروب السجع و الجناس و المطابقة و الموازنة و التورية و غير ذلك من المحسنات مما أطلق عليه المتأخرون " البديع".

فما الذي يقصده ابن خلدون إذا من المطبوع و المصنوع في أداء الكلام؟ قـال: "اعلم أنهم إذا قالوا" الكلام المطبوع " فإنهم يعنون به الكـلام الـذي كملـت طبيعتـه و سجيته من إفادة مدلوله المقصود منه 1. أما " المصنوع" فهي ضـروب التحـسين و التزيين التي تأتي بعد كمال الإفادة. فقد يكون الكلام مطبوعا خاليا من الصنعة و هو كلام جميل رائق عذب، وقد يكون مطبوعا تضاف إليه الصنعة التـي تجيئـه عفـوا فتزيده بهاء و حسنًا و رونقًا.

إلاّ أن ابن خلدون ينبهنا على المدى الذي يجب أن تبلغه الصنعة، محذرا إيانـا من تجاوز الحد فيها بحيث تجور على أصل المعنى و كماله، فهو يشترط أولا أن " تقع من غير تكلف " لأن التكلف و المعاناة فيها يصرفان جهد صاحبها إليها، و يؤديان بـه إلى الغفلة عن مقصوده الأصلي من كلامه. كما يشترط ثانيا " الإقلال مـن الـصنعة". فالإكثار منها عيب شائن يؤدي إلى القبح الذي لا حسن فيه. كمـا يـرى أن أسـاليب الصنعة من ضروب " التحسين و التزيين" لا تصح في النثر و لا تقبل فيه، فإن أساسه الترسل و الطلاقة و السلاسة، فإذا دخلت عليه الصنعة بالسجع و التقفيـة و التوريـة و الجناس و غير ذلك من ضروبها أدت به إلى القصور و الضعف و التهافت. بل إنه يرى أن أساليب الـشعر عمومـا مـن الأوصـاف و الأمثـال و كثـرة التـشبيهات و الاستعارات لا تناسب النثر أصلا، و أن من يتعلقون بذلك قاصـرون عـن الكـلام المرسل و التصرف في وجوهه و طرقه، فيلجؤون إلى وجوه الزينة السطحية، يجبرون بها هذا القصور و يهربون من جودة النظم و أصالته إلى حيث ضحالة الفكر و الشعور

1- ابن خلدون. المقدمة. م1. ط2. ص 1118.

تحت ستار المساحيق الزائفة و الألوان الباهتة.

5 – المشهور بين الدارسين للغة في وقتنا الحاضر أن النقاد العرب الأقدمين يكاد رأيهم يجتمع على أن لغة الجاهلين أرقى و أقوى من لغة من تأخر عـنهم مـن الإسـلاميين و الأمويين و العباسيين سواء أكان ذلك من ناحية صحة اللغة أو بلاغتها؛ و قد سـئل أبو عمرو بن العلاء عن المولّدين، هم في رأيه غير الجاهلين و المخضرمين، فقـال: " ما كان من حسن فقد سبقوا إليه، و ما كان من قبيح فهو من عندهم، ليس النمط واحدا ترى قطعة ديباج و قطعة مسح و قطعة نطع"1.

قال أبو حاتم: قلت للأصمعي: فجرير و الأخطل، يسأل عنهما مع غيرهما، قال: "هؤلاء لو كانوا في الجاهلية كان لهم شأن، و لا أقول فيهم شيئا، لأنهم إسـلاميون."2.

روى المرزباني قول ابن الأعرابي: أشعار هؤلاء المحدثين مثل أبي النواس و غيره مثل الريحان يشَم يوما و يذوي فيرمى به، و أشعار القدماء مثل المسك و العنبر كلمـا حركته ازداد طيبا.3.

هذه الروايات السابقة نماذج لكثير غيرها وردت عن علمـاء اللغـة الأقـدمين و كانت هذه الآراء -في عصرنا- هي المعتد بها في النقد، و هي تـدل علـى أنهـم يفضلون القديم بصورة عامة، و الجاهلي بصورة خاصة.

أما العلامة ابن خلدون فنجد له رأيا مخالفا لهؤلاء و في الوقت ذاته يسير وفـق نظرته في شأن حصول الملكات و صناعتها. فيقول: " إن كلام الإسلاميين في نظمهـم و نثرهم أحسن ديباجة و أصفى رونقا من أولئك الجاهليين و أرصف مبنـى و أعـدل تثقيفا"4؛ فشعر حسان بن ثابت و عمر بن أبي ربيعة و الحطيئة و جرير و الفـرزدق و نصيب و ذي الرمة و الأحوص و بشار، أرقى و أقوى من شعر النابغـة و عنتـرة و ابن كلثوم و زهير و علقمة و طرفة، و كلام السلف من العرب في الدولة الأمويـة و صدر من الدولة العباسية في خطبهم و ترسيلهم و محاوراتهم أرفع طبقـة من كلام

1- العمدة في صناعة الشعر و نقده. ج1 ص 56. لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني. طبع القاهرة سنة 1925.

2- فحولة الشعراء. ص 23. لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي. تحقيق محمد عبد المنعم خفـاجي و طـه الزين. طبع القاهرة 1968.

3- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء. ص 246. لأبي عبد ا محمد بن عمران المرزباني. طبع القاهرة سنة 1343 هـ.

4- المقدمة. عبد الرحمن بن خلدون. ج4. ص 1302.

الجاهلية في منثورهم و محاوراتهم. و السبب الذي دعاه إلى التخـ ـلي عن هذا الرأي التقليدي و اطّراحه، يعود إلى حرية رأيه و رجاحة عقله من جهة و التزامه لنظرته في شأن الملكة من جهة أخرى. و الملكة التي نشأ عليها الإسلاميون تأثرت بأقوى كـلام و أبلغه ممثلا في القرآن الكريم و الحديث الشريف، فولج في قلوبهم، و نـشأت علـى أساليبها نفوسهم، فارتقت ملكاتهم على ملكات من قبلهم.

و هذا الرأي يقرره في عبارة أخرى تقريرا حاسما بقوله: " كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة و أذواقها من كلام الجاهلية في منظومهم و منثورهم."

6– شغلت قضية اللفظ و المعنى حيزا هاما من النقد القديم، فهنالك من انحاز إلى جانب المعنى وحده و من هؤلاء أبو عمر الشيباني و الآمدي و ابن سنان الخفاجي. و هنـاك من انحاز إلى جانب اللفظ وحده، و من هؤلاء و على رأسهم الجـاحظ و قدامـة بـن جعفر. و فريق ثالث وقف بين كل من اللفظ و المعنى كبشر بن المعتمر و ابن قتيبة.

أما العلامة عبد الرحمن بن خلدون فقد وضع نفسه منحازا تماما إلـى الألفـاظ و قد عنون في مقدمته الشهيرة فصلا بعنوان (فصل في أن صناعة النظم و النثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني) لكن المفيد حقا أن كلامه عن هذه القضية جاء متماشـيا مع فهمه للملكة اللسانية و إليك بيانه:

إن الملكة اللسانية عنده صناعة بحتة شأن كل الملكـات، و يقـول هنـا: " إن الصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم و النثر إنما يحاولها في الألفـاظ "[1] و هـي تحصل بحفظ جملة صالحة من كلام العرب شعرا أو نثرا، و هذا أمر منـسوب إلـى اللسان و يقول: " و الذي في اللسان و النطق إنما هو الألفاظ، و أما المعاني فهي فـي الضمائر". و يبقى ابن خلدون في فهمه هذا غافلا عن أمرين في غاية الأهمية و همـا الموهبة و الوعي، و لو تم له ذلك لأهتم بالمعاني و المشاعر و يزيد تأكيد فهمه بقوله: "و المعاني موجودة عند كل واحد و في طلوع كل فكر منها ما يشاء و يرضـى، فـلا يحتاج إلى صناعة، و تأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة ". ثم يدلل علـى رأيه بتجسيد الموضوع بشكل حسي، صورة الأواني التي يغترف بها الماء، فهي ذهب أو فضة أو صدف أو زجاج أو خزف و الماء واحد.

1- المقدمة. ابن خلدون. ج4. ص 1302.

واضح أن هذا التمثيل لا يؤيد الموضوع، لأن الماء الذي تحويه هذه الآنية قد يكون ملحا أجاجا، و قد يكون آسنا، و قد يكون عذبا، و قد يكون كدرا، كما أن الأواني تختلف، كذلك يختلف الماء، و كما أن الألفاظ تختلف، فالمعاني كذلك تختلف، و كل منهما لا يقل أهمية عن الآخر، لكن ابن خلدون قد جعل الأمر صناعة تكتسب، و راح ينحاز إلى اللفظ وحده. و قد قال أحد نقادنا القدامى: " و قد رأيت جماعة من متخلفي هذه الصناعة يجلون هممهم مقصورا على الألفاظ التي لا حاصل وراءها و لا كبير معنى تحتها، و إذا أتى أحدهم بلفظ مسجوع، -على أي وجه كان من الغثاثة و البرد- يعتقد أنه قد أتى بأمر عظيم، و لا يشك في أنه صار كاتبا مفلقا... فقاتل ا القلم الذي يمشي في أيدي الجهال الأغمار".

إن اعتبار اللفظ وحده أساسا في صناعة النظم و النثر ينزلق بصاحبه إلى نظم غث و كلام ممجوج و براعة لغوية أساسها التفخيم و التهويل و التشدق بلفظ لا فائدة فيه و لا معنى وراءه و لا نتيجة له. ذلك هو فهم ابن خلدون لموضوعه بشأن الملكة اللسانية و صنعتها في المنظوم و المنثور إلا أن الكلام الفني ذا المقومات الفنية العالية لا يدرس في إطار الحدود و الصنعة فقط بل إن له جوانب أخرى خفيه يدركها أصحاب الأحاسيس المرهفة و المشاعر الرقيقة و الأذواق الرائعة، فهي متميزة متفردة طليقة بلا حدود و لا صنعة.

5 – تحصيل ملكة اللسان العربي للأجانب و أهل الأمصار:

إن موضوع الملكة اللسانية و سبيل و طرق تحصيلها من الموضوعات التي شغلت فكر العلامة ابن خلدون، فلقد اهتم بها تمام الاهتمام و اقتنع بها تمام الاقتناع ، و هي فكرة جديدة اهتدى إليها بحسه الاجتماعي العميق، و راح يؤكد في الأذهان فهمها، و يتتبعها في كل جوانبها المختلفة. و من الجوانب التي عرضها من أمور الملكة اللسانية تحصيلها بالنسبة إلى الأجانب عن اللغة العربية، سواء منهم من كانوا أجانب تماما عن هذه اللغة، أو المولّدون الذين سبقت العجمة إلى ألسنتهم. و قد عنون مقدمته في بعض فصولها بـ: " في تفسير لفظة الذوق في مصطلح أهل البيان و تحقيق معناه، و بيان أنه لا يحصل للمستعربين من العجم "، و فصلا آخر بـ" أهل الأمصار على الإطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة "، و فصلا ثالثا بـ " العجمة إذا سبقت إلى اللسان قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي."

و للإحاطة بأفكار هذا الموضوع نتناول ما يلي:

1 – ندرة تحصيل الملكة اللسانية التامة للمستعربين من العجم.

2 – قصور تحصيلها عن أهل الأمصار.

3 – قصور الأعاجم عن تحصيل العلوم المدروسة باللسان العربي.

فبعد ما بين ابن خلدون أن الملكة اللسانية تحصل بمخالطة كلام العـرب و اسـتعماله و إجادته بتفصيل و تعمق، يضيف ههنا أمرا جديدا يرتبط بمعوقات هذا التحصيل و ما ينجر عنها من صعوبة أو قصور في ملكة اللسان. يقول ابن خلدون: " و إذا تبين لـك ذلك، علمت منه أن الأعاجم الداخلين في اللسان العربي الطارئين عليه المضطرين إلى النطق به لمخالطة أهله، كالفرس و الروم و الترك بالمشرق و كالبربر بالمغرب، فإنه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكـة التـي قررنـا أمرهـا، لأن قصاراهم بعد طائفة من العمر و تسبق ملكة أخرى إلى اللسان، و هـي لغـاتهم، و أن يعتنوا بما يتداوله أهل المصر بينهم في المحاورة من مفرد و مركّب، لما يـضطرون إليه من ذلك. و هذه الملكة قد ذهبت لأهل الأمصار، و بعدوا عنها كما تقدم. و إنما لهم في ذلك ملكة أخرى و ليست هي ملكة اللسان المطلوبة. و من عرف أحكام تلك الملكة من القوانين المسطرة في الكتب، فليس من تحصيل الملكة في شيء، و إنمـا حـصل أحكامها كما عرفت ... فإن عرض لك مـا تـسمعه، مـن أن سـيبويه و الفارسـي و الزمخشري، و أمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجاما مع حصول هذه الملكـة لهـم فاعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم إنما كانوا عجما في نسبهم فقط، أمـا المربـى و النشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب و من تعلمها منهم ... و كأنهم في أول نشأتهم بمنزلة الأصاغر من العرب الذين نشؤوا في أجيالهم، حتى أدركوا كنـه اللغـة و صاروا من أهلها. فهم و إن كانوا عجما في النسب فليسوا بأعاجم في اللغة و الكلام لأنهم أدركوا الملّة في عنوانها و اللغة في شبابها، و لم تذهب آثار الملكة منها و لا من أهل الأمصار، ثم عكفوا على الممارسة و المدارسة لكلام العرب حتى استولوا علـى غايته . "1. و في قول ابن خلدون تستوقفنا لفظة " الأعاجم " فمن هم الأعاجم ؟ إنهـم خلاف العرب سواء أكانوا أجانب تماما، أو كانوا مخلطي النسب ممن اشـتهروا فـي تاريخنا اللغوي باسم " المولدين " و قد أطلق عليهم الجاحظ اسم " النابتة ". و من حيث

1- المقدمة. ابن خلدون. م1. ص (1087-1088).

اللغة فإنهم كما قال: لا يفصحون بالمرة، لأن لهم لغة أخرى غير العربية، أو هم يفصحون لكن أنسابهم غير صريحة في العرب.

و يمكن أن نفهم من أن الأعاجم صنفان؛ صنف أجنبي تماما عن العرب في نسبه و لا يعرف العربية بالمرة، فهو لا يفصح. و صنف آخر مولّد أو ناشئة و هو يتكلم العربية، فهو أيضا عجمي و إن أفصح. و هذان الصنفان قد وجدا بين العرب على مر العصور إلى عصرنا الحالي. و لقد كان لعلمائنا القدامى موقف من كلا الصنفين لا يوافقهم عليه تماما علماء اللغة العربية المحدثون؛ و يتلخص موقف الأقدمين في كونهم ربطوا بين الجنس و اللغة ربطا قويا، فرأوا أن اللسان العربي الصريح النسب أو كما يسمونه " القحر"، فلغته أصلية فصيحة بليغة موثوق بها. أما الأجنبي تماما عن العرب أو المولّد، فلغته مصنوعة متكلفة غير أهل للثقة. و هذا المعنى السابق ملحوظ جيدا في القرن الأول الهجري الذي حدثت فيه نشأة النحو العربي و كان للأعاجم دور في تلك النشأة، حيث كان بين العرب كثير منهم لم ينشؤوا على اللسان العربي فاختلطت ألسنتهم و فسدت و حدث منهم التحريف في نطق الأصوات و اللكنة في الحروف و التخليط في نطق الكلمات و الجمل مما أطلق عليه اسم "اللحن". و يأتي القرن الثاني الهجري حيث عرف اختلاطا اجتماعيا هائلا بين العرب و الأعاجم فخالطوهم في الأمصار و الحضر بحكم عوامل اجتماعية و سياسية لا ينكرها أحد و هؤلاء هم الذين يسمونهم " المولدين ".

و قد ابتعد علماء اللغة الأولون عن الأخذ منهم لفساد ألسنتهم و شدوا الرحال نحو الفيافي و البوادي بحثا عن مواطن الفصاحة حيث العرب الخلّص الأقحاح، و هو ما يعرف بـ " قبائل الاحتجاج أو الاستشهاد".

أما علماء اللغة العرب المحدثون فإنهم يرفضون هذا الموقف في الربط بين اللغة و الجنس، فاللغة لا علاقة لها بالجنس، بل إنها مكتسبة و ملك للجميع، بيد أن لابن خلدون نظرة أخرى أساسها قصور الأعاجم عن تحصيل الملكة اللسانية، و يقيم هذه الفكرة على الأسس اللآتية:

أولا: أن الأعاجم الداخلين في اللسان العربي، و كانت لهم لغة أخرى و هم مضطرون للنطق بالعربية من مفرد و مركب يحصلون العربية ممن يخالطونهم من

العرب و هؤلاء لا يملكون -حين تأخر الزمن- ملكة اللسان المطلوبة، فقد ذهبت عنهم و بعدوا عنها، فليس لديهم إذا و سائل إجادة العربية ممن يخالطونهم من العرب.

ثانيا: إذا لجأ هؤلاء الداخلون في اللسان العربي إلى تحصيل الملكة مما أسماه " القوانين المسطرة في الكتب، فإنهم لا يحصلون على إجادة اللسان بل يحصلون علـى أحكامه فقط". و في كلتا الحالتين السابقتين يبقى هؤلاء الأعاجم خارج دائـرة اللـسان العربي الصحيح.

ثالثا: إذا لجأ هؤلاء الأعاجم لتحصيل الملكة بالتعلم في كـلام العـرب شـعرا و نثرا، فإنهم يحصلون عل هذه الملكة، لكنها -كما يقول- تجيء ناقصة مخدوشة، لأنه قد سبق لهم ملكة أخرى للغاتهم الأصلية، و هذه تعوق تمام الملكة الجديدة، فيفترقـون في ذلك عن العرب الأصلاء.

رابعا:يقول ابن خلدون:" إن فرضنا عجميا في النسب سلم من مخالطة اللـسان العجمي بالكلية، و ذهب إلى تعلم هذه الملكة بالمدارسة، فربما يحصل له ذلك، لكنه من الندور بحيث لا يخفى عليك ما تقّرر"1. فحدثيه هنا عن الأعاجم يعني بهـم الأجانـب تماما، فإن هؤلاء لا يظفرون بالملكة اللسانية التامة، فإن حصلت، فإنها تكون ناقـصة مخدوشة لمن سبقت له ملكة في لغة أخرى، فسلطان اللغة الأولى أقوى و أشـد علـى التي هم مقبلون على تحصيلها، أما من لم يسبق له ملكة أخرى فإنه قد يحصلها تامـة لكن ذلك نادر حدوثه.

و قد أقام ابن خلدون رأيه عن عجز هؤلاء المستعربين عن إجادة اللسان العربي على عاملين:

الأول: أن أهل اللسان العربي بالأمصار قد فسدت لغاتهم، فله -كمـا يقـول-: ملكة أخرى مخالفة لملكة اللسان العربي.

الثاني: مما سبق إلى ألسنة المستعربين، من ملكة أخرى هي لغـاتهم الأصـلية و هذا عامل معوق، لأنه إذا سبق إلى اللسان ملكة أخرى عاقته عن تحصيل غيرها من الملكات. و يترتب على ذلك أن الأجنبي عن اللغة لا يستطيع تحصيل اللسان العربـي بالمشافهة مع من يخالطهم من العرب بفعل العاملين السابقين معا و لا يستطيع إجادتها

1- المقدمة. ابن خلدون. ص 1088.

بالتعلم إذا توافرت ظروفها اللغوية الصحيحة بفعل العامل الثاني من سبق ملكة أخرى إلى لسانه. و يؤيد رأي ابن خلدون الواقع المعيش الذي تشهده كثير من البلاد العربية -وبخاصة الغنية منها- حيث تموج بالأجانب من الباكستانيين و الهنود و الأفارقة و الأسيويين سعيا وراء طلب الرزق ثم تتبعهم بعد ذلك الحاجة إلى الضرورة اللسانية التي يحصل بها التفاهم و التواصل، إلا أن حظ هؤلاء من هذه الملكة اللسانية قليل ناقص أو مخدوش كما يسميه ابن خلدون، فالنطق فيه كثير من التلعثم، و الجمل غير مترابطة، و دلالة الألفاظ غير دقيقة إلى كثير من التجاوز عن أحكام الإعراب و نظام الجملة العربية.

2. جاء في أحد فصول المقدمة " في أن أهل الأمصار على الإطلاق قاصـرون فـي تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم و من كان منهم أبعد عن اللسان العربي كان حصولها له أصعب و أعسر".

و لعل ابن خلدون يقصد " بأهل الأمصار" أولئك الذين يعيـشون فـي مـواطن الحضر الإسلامية و منهم أهل البلاد الأصليون و من اختلط بهم من العرب النـازلين بهم حتى نشأ جيل جديد من أولئك و هؤلاء لا يمكن البحث فيه عن سـلامة العنـصر و التأكد من هذه السلامة. "و الأمصار" مثل الأندلس و المغرب و إفريقيـة، و مـصر و المشرق، و قد توالت الأجيال في الأمصار حتى عهد ابن خلدون. و لا شـك أنهـم -في رأيه- على مقربة من العجم، لأن أصول هذه البلاد غير عربية. فما يـرى ابـن خلدون عن إجادة الملكة اللسانية لهؤلاء ؟

من المؤكد أن هؤلاء يستفيدون " اللـسان المـضري " بـالتعليم مـن تلقـــــين النـصوص و معرفة قواعد الضبط و الإعراب، فليست لديهم وسيلة أخرى لتحـصيل هذا اللسان غير هذه الوسيلة التعليمية.

و يرى ابن خلدون أن التعليم إنما يكون بمخالطة النصوص، من كلام العـرب شعره و نثره، و أن القواعد لا جدوى منها في ذلك، و إن كان للنحو بعـض الـصلة بحصول هذه الملكة، إلا أنه يلفتنا ههنا إلى فكرة جديدة و هـي أن " أهـل الأمـصار قاصرون عن تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم " كما جاء في عنوان هذه الفصل. و السبب في هذا القصور أنهم يتكلمون " اللغة الحضرية " و هـي لغـة كـل مصر من الأمصار مكونة من لغته الأصلية و العربيـة المحرفـة و الاصـطلاحات

الخاصة بكل إقليم. هذه اللغة الحضرية لكل مصر تحول دون إجادة أهله اللغة العربية المضرية للمنافاة بين الاثنتين، إذ تسبق تلك اللغة الحضرية إلى اللسان، و تصير ملكة له، فيتعذر عليه تحصيل الملكة المطلوبة من اللغة الفصحى.

و يدلل على رأيه بعرض حالة الأمصار في عهده؛ -فأهل إفريقية يقـصد بهـم تونس و الجزائر- أعرق في العجمة و أبعد عن اللسان الأول، و هم قاصرون تمامـا عن تحصيل ملكته بالتعليم. و يقول في ذلك: " و السبب في ذلك ما يسبق إلى المـتعلم من حصول ملكة منافية للملكة المطلوبة، بما سبق إليه من اللسان الحضري الذي أفادته العجمة، حتى نزل بها اللسان عن ملكته الأولى إلى ملكة أخرى هي لغة الحضر لهـذا العهد. و لهذا نجد المعلمين يذهبون إلى المسابقة بتعليم اللسان للولدان، و يعتقد النحـاة أن هذه المسابقة بصناعتهم، و ليس كذلك، و إنما هي بتعليم هذه الملكة بمخالطة اللسان و كلام العرب. نعم صناعة النحو أقرب إلى مخالطة ذلك. و ما كان من لغـات أهـل الأمصار أعرق في العجمة و أبعد عن لسان مضر قصر بصاحبه عـن تعلـم اللغـة المضرية و حصول ملكتها لتمكن المنافاة حينئذ، و اعتبر ذلك في أهل الأمصار. فأهل إفريقية و المغرب لما كانوا أعرق في العجمة و أبعد عن اللـسان الأول، كـان لهـم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم "1. و أهل الأندلس أقرب منهم في تحصيل الملكة لعنايتهم بالمحفوظات اللغوية نثرا و شعرا. و أما أهل المـشرق فبقـي فيـه اللـسان المضري محتفظا بتمامه و إجادته لعهد الدولة الأموية و العباسية، حتى غلب الأعـاجم على الملك و الدولة، و تلاشى أمر العرب و فسد كلامهم، و صار من يـتعلم الملكـة اللسانية مقصرا عن تحصيلها. و في ذلك يقول ابن خلدون:" ثم عادت الملكة من بعـد ذلك إلى الأندلس كما كانت، و نجم فيها ابن سيرين و ابن جابر و ابن الجياب و طبقتهم ثم إبراهيم الساحلي الطويجن و طبقته، و قفاهم ابن الخطيب من بعدهم ... و بالجملـة فشأن هذه الملكة بالأندلس أكثر، و تعليمها أيسر و أسهل، بما هم عليه لهذا العهد كمـا قدمناه من معاناة علوم اللسان و محافظتهم عليها و على علوم الأدب و سند تعليمها ... و اعتبر ذلك بحال أهل المشرق لعهد الدولة الأموية و العباسية، فكان شأنهم شأن أهل الأندلس في تمام هذه الملكة و إجادتها، لبعدهم لذلك العهد عن الأعاجم و مخالطتهم إلا في القليل. فكان أمر هذه الملكة في ذلك العهد أقوم، و كان فحـول الشعراء و الكتاب

1- المقدمة. ابن خلدون. ص 1089.

لعهدهم أوفر لتوفر العرب و أبنائهم بالمشرق ".1

نفهم من قول ابن خلدون أنه كلما كان المناخ صافيا نقيا بعيدا عن آثار العجمـة كلما كان حصول الملكة اللسانية قائما عن طريق العناية بعلوم اللسـان و مدارستـها و انتقاء جيد كلامهم نثرا و شعرا و حفظه، فبذلك تتم الملكة و تجود.

و الآن ما علاقة ما جاء به العلامة عبد الرحمن بن خلدون بواقعنا اليوم ؟

إن تعليم اللسان المضري في الأمصار لا يحقق لهم إجادة الملكة اللـسانية للمتعلمـين فكم من تقارير صيغت، و كم من ندوات أقيمت، و كم من أفكار و آراء طرحت، كـل ذلك سبيلا إلى البحث عن أحسن الطرق و أنجعها و أيسر المنـاهج و أقومهـا، إلا أن أزمة تحصيل ملكة اللغة تبقى مراوحة مكانها. و السبب كما حدده الرجـل العبقـري يكمن في وجود تلك الملكة الحضرية العامية التي تسبق إلى ألسنة المتعلمـين، و هـي منافية للملكة المطلوبة، أي ملكة الفصحى.

إن إدراك الملكة اللسانية و تحصيلها يفرض علينـا تـسخير التـراث الأدبـي واللغوي للعرب لفائدة المتعلمين قراءة و كتابة و سماعا و حفظا و اعتماد أنجع الـسبل و الطرائق و المناهج الكفيلة ببلوغها أو على الأقل حصول أدنى مستوى إجادتها و ذلك أضعف الإيمان.

3. فبعدد أن بين ابن خلدون قصور تحصيل الملكة اللـسانية عـن أهـل الأمـصار و المستعربين من العجم، يلفتنا إلى أمر بالغ الخطورة و هو قصور هؤلاء عن تحصيل العلوم، و يرى الرجل أن طالب العلم من المستعربين سواء أكان فارسـيا أو بربريـا أو روميا، أو إفرنجيا " إذا طلب العلم بين أهل اللسان العربي، جاء مقصرا عن الغايـة و التحصيل، و ما أوتي إلا من قبل اللسان" فاللسان وعاء الفكر و وسـيلته و مـن لا يؤتى زمامها، أو كانت لديه ناقصة مخدوشة كما قال فإنه لا يحصل على المادة العلمية بصورة صحيحة تامة.

إن فكرة ابن خلدون يؤيدها الواقع الذي تشهده كثير من جامعات البلاد العربيـة فالطلاب الوافدون إليها يجدون معاناة كبيرة في فهم محاضرات باللغة العربية، و أكثر من ذلك أنهم يجدون عسرا في استيعاب الأفكار و النظريات العلمية، و هكـذا يكـون تكوينهم غير طبيعي و يوسم بالضحالة و الضعف.

1- المقدمة. ابن خلدون. ص 1091.

و العلاج ينبغي أن يكون في بداية الأمر بمساعدة هؤلاء الأجانب من الجانب اللغوي حتى يظفروا على الأقل على أدنى حد من ملكة اللسان العربي، و من ثم يقدرون به على فهم دروسهم و محاضراتهم، فقد عنون الرجل فصلا من فصول المقدمة بـ(في أن العجمة إذا سبقت إلى اللسان قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي)1. و هذا الرأي أساسه أن مباحث العلوم إنما هي في المعاني الذهنية و الخيالية، واللغات تترجم عما في الضمائر من هذه المعاني. و في ذلك يقول : " و اللغات إنما هي ترجمان عما في الضمائر من تلك المعاني، يؤديها بعض إلى بض بالمشافهة في المناظر و التعليم، و ممارسة البحث بالعلوم ، لتحصيل ملكتها بطول المران على ذلك، و الألفاظ و اللغات وسائط و حجب بين الضمائر، و روابط و ختام عن المعاني، و لا بد من اقتناص تلك المعاني من ألفاظها لمعرفة دلالاتها اللغوية عليها، و جودة الملكة لناظر فيها، و إلا فيعتاص عليه اقتناصها زيادة على ما يكون في مباحثها الذهنية من الاعتياص"2.

و نفهم من قول ابن خلدون أن القصور في ملكة اللسان العربي يؤدي لا محالة إلى قصور في حصول ملكات العلوم المختلفة، فإذا كان الأساس ضعيفا هشا غير مستحكم البنيان، فكيف يستقيم ما يبنى على هذا الأساس ؟ و نحن نعلم أن الألفاظ واللغات ترجمان عما في الضمائر من تلك المعاني المرتبطة بالعلوم. فسوء فهم اللغة ينجر عنه حتما سوء فهم ما يتلقّن من العلوم بوساطة تلك اللغة. وهذا إن كان تحصيل العلوم بالمشافهة في المناظرة و التعليم و ممارسة البحث أيضا.

أما إذا كان تحصيلها من الخط، أضيفت إلى ذلك واسطة أخرى، لأن الكتابة تحمل الألفاظ، و الألفاظ تحمل المعاني، و يقول الرجل: " و إن كانت ملكة في الدلالة اللفظية و الخطية مستحكمة ارتفعت الحجب بينه و بين المعاني. و صار إنما يعاني فهم مباحثها فقط "3. أما إذا كانت الملكة اللفظية و الخطية غير مستحكمة، اعتاص كما قال على المتعلم أو الباحث اقتناص تلك المعاني.

---

1 – المرجع السابق . ص 1051 .

2- المرجع السابق . ص 1052 .

3- المرجع السابق . ص 1052 .

إذا فتحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي إنما يكون أولا بالتحكم في أدواتها ووسائلها أي اللغة التي هي وعاء الفكر و ترجمان المعاني. ثم ثانيا الإقبال على فهم معانيها المرتبطة بالذهن و الخيال، هكذا يتم حصول الملكة اللغوية و ما يشع عنها من علوم. و قد طبق هذا الفهم على الأجانب الذين يدرسون العلوم العربية أو يبحثون فيها سواء من ذلك علوم الشريعة أو العلوم المنقولة من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية.

و الأجانب الذين يحصلون العلوم العربية تقصر بهم ملكة اللسان و الخط عـن تحصيل المعاني و الأفكار، و السبب في هذا القصور ما سبق إلى ألسنتهم مـن ملكـة لغاتهم الأصلية " فإذا تقدمت في اللسان ملكة العجمة، صار مقصرا في اللغة العربية" 1 فإن محل النطق -و هو اللسان- إذا شغل بملكة لغة، قلّ أن يجيد ملكة أخـرى وكـذا الخط. و إذا قصر بها اللسان العربي، صعب عليه فهم المعاني و الأفكار "و إذا كـان مقصرا في اللغة العربية و دلالاتها اللفظية و الخطية اعتاص عليه فهـم المعـاني."2. و إذا كان الأعاجم قاصرين عن تحصيل الملكة اللسانية العربية فما السر في كون كثير من حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم ؟.

يجيب ابن خلدون عن ذلك بأن هؤلاء هم عجم في النسب لا في اللغة، والأخيرة هي المرادة هنا، و هي التي ينسب لصاحبها القصور عن إجادة العربية و علومها. أما هؤلاء فقد تربوا في الحضارة الإسلامية، و أجادوا ملكـة اللغـة العربيـة، فأحـسنوا الإجادة، و كتبوا في علومها، فأحسنوا الكتابة. فيقول: "من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملّة الإسلامية أكثرهم العجم، و ليس في العرب حملة علم، لا في العلوم الشرعية و لا في العلوم العقلية، إلا في القليل النادر. و إن كان منهم العربي في نـسبه، فهـو أعجمي في لغته و مرباه و مشيخته، مع أن الملة عربية"3. و يضيف قائلا: " و ربما يكون الدؤوب على التعليم و المران على اللغة وممارسة الخط يفضيان بصاحبهما إلى تمكن الملكة، كما نجده في كثير من علماء الأعاجم، إلا أنه في النادر ... و لا يعترض ذلك بما تقدم بأن علماء الإسلام أكثرهم العجم، لأن المراد بالعجم هنالك عجم النـسب لتداول الحضارة فيهم و أما عجمة اللغـ ـة فليست من ذلك، و هي المرادة هنا.

1- المرجع السابق. ص 1053.

2- المرجع السابق. ص 1053.

3- المرجع السابق. ص 1047.

و لا يعترض ذلك أيضا مما كان لليونانيين في علومهم من رسوخ القدم فإنهم إنما تعلموها من لغتهم السابقة لهم و خطهم المتعارف بينهم. و الأعجمي المتعلم للعلم في الملة الإسلامية يأخذ العلم بغير لسانه الذي سبق إليه، و من غير خطه الذي يعرف ملكته، فلهذا يكون له ذلك حجابا. و هذا عام في جميع أصناف أهل اللسان الأعجمي من الفرس و الروم و الترك و البربر و الفرنج، وسائر من ليس من أهل اللسان العربي "1. فالأعاجم الذين أخذوا بزمام العلوم المختلفة و الصنائع إنما كانوا أعاجم في النسب لازموا العرب و خالطوهم فتمكنوا من لسانهم و صاروا يخطون به فيحسنون الخط و يكتبون به فيجيدون الكتابة. و الصنائع كانت عند الحضر "و أن العرب كانوا أبعد الناس عنها، فصارت العلوم لذلك حضرية و بعد العرب عنها و عن سوقها. و الحضر لذلك العهد هم العجم أو من في معناهم من الموالي و أهل الحواضر، الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة و أحوالها من الصنائع و الحرف، لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة بينهم منذ دولة الفرس. فكان صاحب صناعة النحو سيبويه و الفارسي من بعده و الزجاج من بعدهما، و كلهم عجم في أنسابهم. و إنما ربوا في اللسان العربي، فاكتسبوا بالمربى و مخالطة العرب و صيروه قوانين وفنّا لمن بعدهم."2. فالأعاجم إذن أسهموا إسهاما كبيرا بوساطة اللسان العربي في إرساء أسس العلوم المختلفة في اللغة و النحو و الشريعة و في سائر العلوم الأخرى، و كان لهم الدور الكبير في إقامة صرح الحضارة الإسلامية.

---

1 – المرجع السابق . ص 1055 .

2 – المرجع السابق . ص 1049 .

الفـصـل الرابع:

الملكة اللسانية و دراسة اللسان العربي.

1 - علوم اللسان العربي و أثرها في خدمة الملكة.
2 - كتب النحو و دورها في خدمة اللسان العربي.
3 - قرائن الكلام و قوانين الإعراب.

إن المتصفح المتعمق لما حوته مقدمة ابن خلدون الشهيرة من جواهر اللسان العربي المبين يخلص إلى كون الرجل آخذا بمجامع هذا اللسان من كل جوانبه، و إن برزت فكرة جامعة بين مختلف الألسنة البشرية في قوله: " و هو أي اللسان، في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم "1. و انصبت اهتماماته على خصائص اللسان العربي و مميزاته الصوتية، والصرفية و النحوية و البيانية، و ما طرأ عليه من تحولات و تغيرات في بنيته الأصلية، و تحقيق في أسباب التطور الذي حدث في هذا اللسان و يخص أعلام كل علم بالذكر منوها بما لهم من محاسن، و ناقدا ما عليهم من مثالب. فهو عندما كان يتحدث عن أساطين علماء البيان في تفسير القرآن خص بذلك الزمخشري فقال: " وأحوج ما يكون إلى هذا الفن المفسرون، و أكثر تفاسير المتقدمين غفل منه حتى ظهر جار ا الزمخشري، و وضع كتابه في التفسير، و تتبع آي القرآن بإحكام هذا الفن بما يبدي البعض من إعجازه، فانفرد بهذا الفصل على جميع التفاسير"2 ثم لا يلبث أن يعقب على هذا الإعجاب بقوله:" لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة، لأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة، مع وفور بضاعته من البلاغة "3.

اعتاد ابن خلدون في مقدمته أن يؤسس العلوم المختلفة على أصول ثابتة وفروع تتفرع عنها، فيقرر أن اللسان العربي ينبني على أربعة أركان، و رتب هذه الأركان أو الأصول مراتب متفاوتة فيما بينها حسب توفيتها لأداء المقاصد التي يقصدها المتكلم فقال عن اللسان العربي:" أركانه أربعة: وهي اللغة، والنحو، و البيان، و الأدب. ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، و هي بلغة العرب، و نقلتها من الصحابة و التابعين عرب، و شرح مشكلاتها من لغتهم، فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة "4.

فكيف يعرفها ابن خلدون، و ينزلها منازلها بمقتضى ما يقتضيه الأهم من المهم؟

وفي ذلك يقول الرجل:"و الذي يتحصل أن الأهم من المقدم منها هو النحو، إذ به يتبين

---

1 – المقدمة . تاريخ العلامة ابن خلدون. ص 1056.

2 – المرجع السابق. ص 1068.

3-المرجع السابق . ص 1068.

4 –المرجع السابق . ص 1055.

أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول و المبتدأ من الخبر، و لولاه لجهل أصل الإفادة".1

إذا تأملنا هذا النص جيدا نجد أنه يتضمن ثلاث كلم هي مفاتيح لهذا النص:

1 – الأهم.

2 – أصول القاصد.

3 – الدلالة.

1- فالأهم يدل على أن هناك أمرا مهما لا ينبغي إغفاله و لا التفريط فيه، إنما ينبغي إدراجه ضمن إطاره الخاص به، و تنزيله المنزلة اللائقة به، و درسه في مرتبته المناسبة له.

2- أما أصول المقاصد: فهي علامة على وجود فروع، و هذه الأصول منطلقات أساسية انطلقت منها مجمل الدراسات الإسلامية العربية في مختلف نواحيها، فالمقاصد منها الأصل الذي لا ينبغي الإحادة عنه و لا تعليله، و منها الفرع الذي يمكن تعليله أو تأويله.

3- والدلالة: هي الهدف الذي يقصده المتكلم حين يتكلم، فهناك دال و هو الاسم ومدلول عليه و هو الشيء المسمى به، و الدليل و هو الجامع لهما، إذًا فمعرفة الفاعل من المفعول و المبتدإ من الخبر ضرورية لازمة لمعرفة أصل الإفادة.

لِمَ قدم ابن خلدون النحو و أنزله المنزلة الأولى ؟

يرى الرجل أن علم النحو أهم هذه العلوم، إذ يتبين به ما يسميه أصل الإفادة أو ما يطلق عليه "أصول المقاصد بالدلالة"، و يعني بها تميز الفاعل من المفعول و المبتدإ من الخبر. و يضيف قائلا: "و كان من حق علم اللغة التقدم لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير، بخلاف الإعراب الدال على الإسناد و المسند و المسند إليه، فإنه تغير بالجملة و لم يبق له أثر، فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة، إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة و ليست كذلك اللغة "2.

و هنا ينبهنا ابن خلدون إلى قضية هامة أثبتتها اللسانيات المعاصرة و هي أن اللسان البشري يتطور تطورا خطيرا في معانيه و مبانيه لأنه عرضة لأحداث الخطـــاب

1- المقدمة. ابن خلدون. ص 1055.

2- المرجع السابق. ص 1055.

المتكررة في كل حين، و ما اللسان العربي إلا واحد من الألسن البشرية يتأثر و يؤثر بما يلاقي من ألسن الأمم التي دخلت الإسلام و اتخذت اللسان العربي أساسا لها في أمور حياتها.

و إذا عرفنا أن مصطلح "علم اللغة " كما فهمه ابن خلدون و من قبله كان يعني البحث في الألفاظ و معانيها، أدركنا سر الترتيب و الأهمية بين النحو و علم اللغة إذ الألفاظ ما زالت باقية في أوضاعها - معانيها و استعمالها – بخلاف الإعراب الذي تغير جملة و أخلّ بأصل الإفادة.

و لعل هذا المعنى هو الذي ما يزال مسيطرا على أذهان القائمين على أمر اللغة من المحافظين، فتنزوي دراسة علم اللغة إلى جانب دراسات النحو و الصرف، مع أنه أصبح لعلم اللغة -بالفهم الحديث- مجالات واسعة تختص بهذا العلم و لا مجال ههنا للأخذ في تفاصيلها.

و الحقيقة أنه كلما استخدمت كلمة اللغة عند علماء العربية الأصلاء إلا و قصد بها اللهجة، لأنها دائما تكون مضافة مثلا: لغة تميم أو لغة حمير أو لغة هذيل... إلخ، و إن كان ابن خلدون أورد تعريفا يوهم أن اللغة تعني اللسان، و ربما كان هذا من إطلاق الجزء و إرادة الكل، و هو متسع في المجاز عند العرب، فقال: "و اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، و تلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكة في العضو الفاعل لها هو اللسان، و هي في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم."1

هذا التطور اللغوي في اللسان العربي كانت له أسباب و نوازع، ذلك أن الإسلام دين الإنسانية جمعاء، و القرآن بلسان عربي مبين، فاعتنقته الأمم المختلفة، فأثر ذلك في السلوك اللغوي اليومي بسبب المخالطة و المعاشرة و التزاوج بين الشعوب المختلفة. يقول ابن خلدون: " فلما جاء الإسلام و فارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في الأمم و الدول و خالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين من العجم، و السمع أبو الملكات اللسانية، ففسدت بما ألقي إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع."2.

1- المقدمة. ابن خلدون. ص 1056.

2- المرجع السابق. ص (1056-1057).

نلمس في قول ابن خلدون مصطلحين هامين، لا يخصان لسانا دون لسان و لا قوما دون قوم هما:

أولا: الكلام عنده فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فقوله: فعل يخرجه عن التجريدات الفلسفية و يضعه في صلب الدراسات العلمية التي تخضع للتجارب المخبرية فينبغي أن ندرس الجهاز الصوتي للإنسان و أحياز الحروف و صفاتها في المخابر.

و هذا ما يؤيده قول الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح: "إن الدوال اللغوية و غير اللغوية تتكون دائما من مادة هي قوامها و محلها، و نسميها الدال، و من مضمون يحل هذا المحل و هو المدلول، إلا أن اللسان قد يفارق غيره من الدوال في أنه صوت ملفوظ، فإن بعض الدوال قد تكون مادتها غير صوتية، (و تكون أنوارا أو مادة صلبة أو حبرا أو حركات)، و تكون أصواتا لكنها غير ملفوظة أي غير حادثة في المخارج و الأحياز الصوتية الإنسانية، فهذه ميزة تمتاز بها عن غيرها."1

إذا فاللغة هي فعل حادث يحدثه العضو الفاعل و هو اللسان.

ثانيا: السمع أبو الملكات اللسانية، إذ هو الحاسة الحساسة التي تؤثر في اللسان، إذ سرعان ما تؤثر في الألسن البشرية فتتزاوج اللغات و يتداخل بعضها في بعض، و لا حاجة إلى ذكر الشواهد المختلفة التي تبين ذلك، فواقعنا اللغوي في جزائرنا خير دليل على ذلك. و هكذا يهتدي ابن خلدون إلى المقومات الأساسية التي تقوم عليها الألسن البشرية و لا يكتفي بوصفها كما يفعل كثير من اللسانيين، كما يهتم بنشأة النحو العربي مع أبي الأسود الدؤلي ليؤرخ له، و يتابع استخراج قوانينه التي " انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد أحوج ما كان الناس إليها، لذهاب تلك الملكة من العرب فهذّب الصناعة، و كمل أبوابها و أخذها عنه سيبويه، فكمل تفاريعها، و استكثر من أدلتها و شواهدها،و وضع فيها كتابه المشهور الذي صار إماما لكل ما كتب فيها من بعـ ـده، ثم وضع أبو علي الفارسي و أبو القاسم الزجاج كتبا مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الإمام في كتابه"2.

و خلاصة القول، فابن خلدون يعرف النحو العربي بأنه:

أ- الركن الأساسي الأول في هيكلة اللسان العربي بوظيفته الأساسية التي لولاها لكـان

1- عبد الرحمن الحاج صالح. مدخل إلى علم اللسان الحديث. مجلة اللسانيات. ص 37. ط 1971.

2- ابن خلدون. المقدمة. ص 1057.

الإخلال بأصل الإفادة، و يتجنب القيود و الحدود التي أثقلت كاهله و أخرجته عن وظيفته الحيوية حتى مجه الذوق السليم، لأن العربية ليست صناعة العربية التي تعني معرفة القوانين النحوية، و القواعد الجامدة، "لذا نجد كثيرا من جهابذة النحاة و المهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين، إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودته، أو شكوى ظلامة، أو قصد من قصوده، أخطأ فيها الصواب و أكثر من اللحن، و لم يجد تأليف الكلام لذلك، و العبارة عن المقصود فيه على أساليب اللسان العربي. و كذا تجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة، و يجيد الفنين من المنظوم و المنثور وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول، و لا المرفوع من المجرور، و لا شيئا من قوانين صناعة العربية."1

بهذا الحس الناقب و بملاحظته الدقيقة استطاع ابن خلدون أن يهتدي إلى التفرقة بين سلامة العربية الأصلية، و بين القوانين التي تحكمها، و التي استبدت بعقول النحاة المتأخرين لذا يقول: لا تلتفتن في ذلك إلى خرشفة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركم عن التحقيق."2. بيد أن الرجل يفرق بين مذهبين في العربية:

فالأول مذهب الأصالة، يغني صاحبه عن الأمرين، معرفة القوانين النحوية، و امتلاك ناصيته القول. و المذهب الثاني هو الذي لا يجدي صاحبه شيئا، و لا يقدم له سوى القوانين الجافة التي كانت سببا في فساد السليقة العربية. فالمذهب الأول مذهب سيبويه و من حذا حذوه، و المذهب الثاني يخص المتأخرين من النحاة فيقول في هذا الصدد: "و قد نجد بعض المهرة في صناعة الإعراب بصيرا بحال هذه الملكة و هو قليل و اتفاقي و أكثر ما يقع للمخالطين لكتاب سيبويه، فإنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط، بل ملأ كتابه من أمثال العرب و شواهد أشعارهم وعباراتهم، فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة. أما المخالطون لكتب المتأخرين العارية من ذلك إلا من القوانين النحوية مجردة عن أشعار العرب و كلامهم، فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة، أو ينتبهون لشأنها فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب و هم أبعد الناس عنه. "3.

---

1 – ابن خلدون. المقدمة. ص 1082.

2 – المرجع السابق. ص 1084.

3- المرجع السابق. 1083.

تخلص بنا نظرية ابن خلدون اللسانية إلى التفرقة بين الملكة و التأدية، فالملكة لا تحصل إلا بالمران و الدربة و المعاناة والتكرار حتى تصبح صفة راسخة في المتكلم. أما التأدية فحال متغيرة غير راسخة، تسبق الملكة، و ليست هذه الملكة خاصة بلسان دون لسان بل هي صفة مشتركة بين الألسن البشرية جمعاء.

و في كل الصناعات بون شاسع بين الجانب النظري فيها و بين جانبها العملي التطبيقي، لذا نجد من يتقن النظريات و لا يحسن تطبيقها، إذًا فصناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة و مقاييسها خاصة، فهو علم بكيفية لا نفس كيفيته، فليست نفس الملكة، و إنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع و يحكمها عملا كما أسلفنا. و هذا الكلام نجده عند علماء اللسانيات الحديثة كالعالم الأمريكي نوام شومسكي الذي فرق بين الملكة و التأدية (la compétence et la performance) أو عند دي سوسير في التفرقة ين اللسان و الكلام (la langue et la parole).

و يكفي ابن خلدون علما أنّه سبقهما إلى التفرقة بين الصفتين، و عليه فهذه التفرقة ليست بجديدة عند العلماء العرب.

ب- علم اللغة: و يعرفه ابن خلدون بأنه بيان الموضوعات اللغوية، و المقصود بالموضوعات اللغوية -في فهم ابن خلدون- ما يشمل استعمال الألفاظ في معانيها الأصلية كما فعله الخليل في معجم العين، و الزبيدي في مختصر العين، و الجوهري في الصحاح و ابن سيدة في المحكم. كما يشمل استعمال الألفاظ في معانيها المجازية كما فعله الزمخشري في "أساس البلاغة". كما يشمل أيضا بيان الوضع و الاستعمال ببيان الوضع العام للألفاظ، و ما تستعمله له من المعاني الخاصة، و هو ما سماه الثعالبي "فقه اللغة". و قال عنه ابن خلدون إنه فقه في اللغة عزيز المأخذ". كما يشمل أيضا البحث " في الألفاظ المشتركة"، فألف فيها بعض المتأخرين مثل الألفاظ "لابن السكيت، و " الفصيح " لثعلب و غيرهما.

فهذه مباحث علم اللغـ ـة، أو الموضوعات اللغوية لهذا العلم.

عندما نستقرئ ما قاله ابن خلدون بشأن علم اللغة نجده يفرق بينه و بين فقه اللغة و هما موضوعان كثر الحديث عنهما و عن التفرقة بينهما.

يمتاز ابن خلدون بالواقعية و الدقّة، فقد لاحظ التباين بين الوضع العام، و الأداء الخاص، يعني بين أصل الوضع و الاستعمال، و أدرك بنفاد بصيرته أن القوانين العامة

تعني علم اللغة، و الخاصة المستعملة تعني فقه اللغة. فلئن كان علماء الشريعة ميزوا بين الأصول و الفروع، كذلك فعل علماء اللسان العربي إذ سلكوا المسلك نفسه و يقول ابن خلدون: " ثم لما كانت العرب تضع الشيء لمعنى على العموم ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظا أخرى خاصة بها، فرق ذلك عندنا، بين الوضع و الاستعمال، و احتاج الناس إلى فقه في اللغة عزيز المأخذ، كما وضع الأبيض بالوضع لكل ما فيه بياض، ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب، و من الإنسان بالأزهر، ومن الغنم بالأملح، حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها لحنا و خروجا عن لسان العرب"1

نستنتج من هذا الكلام أن علم اللغة أعم من فقه اللغة، و قد اعتاد ابن خلدون أن يعرض الفن و من ألّف فيه، فقد امتاز في التأليف في فقه اللغة الثعالبي و سمى مؤلفه بهذا العنوان " فقه اللغة " وهو كتاب ينظر إلى الفروق الدقيقة بين الكلم، فهو يقول مثلا: " لا يقال كأس، إلا إذا كان فيها شراب، و إلا فهي زجاجة، و لا يقال مائدة إلا إذا كان عليها طعام، و إلا فهي خوان. و لا يقال كوز إلا إذا كان له عروة و إلا فهو كوب و لا يقال قلم إلا إذا كان مبريا و إلا فهو أنبوبة، و لا يقال خاتم إلا إذا كان فيه فص و إلا فهو فتخة*، و لا يقال فرو إلا إذا كان عليـه صـوف و إلا فهو جلد"... "و لا يقال أريكة إلا إذا كانت عليها حَجَلَة* و إلا فهي سرير، و لا يقال لطيمة* إلا إذا كانت عليها طيب و إلا فهو عير* ... "2.

كل هذه المفردات يفرق بينها العموم و الخصوص فما كان عاما يدخل في علم اللغة و ما كان خاصا يدخل في فقه اللغة، و الذي ألّف في علم اللغة " وكان سبق الحلبة الخليل بن أحمد الفراهيدي، ألف فيه كتاب " العين " فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي و الثلاثي و الرباعي و الخماسي، و هو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي."3. فالخليل بن أحمد جمع المستعمل و المهمل و الشاذ و المطّرد و القليل و النادر حسب الوضع اللغوي، فأنشأ لنا القوانين العامة تاركا الفروق لفقهاء اللغة العربية. و هكذا تبقى اللغة تعني الكلم المفردة سواء كانت صيـغا محصـورة

1- المقدمة. ابن خلدون. ص 1062.
2- فقه اللغة. الثعالبي. ص 15.
3- المقدمة. ابن خلدون. ص 1059.

* فتخة: حلقة من ذهب تلبس في البنصر كالخاتم.
* حجلة: ساتر كالقبة يزين بالثياب و الستور للعروس.
* لطيمة: وعاء المسك. * عير: وعاء يحمل فيه البز و المسك و غيرهما للتجارة ، فهو أعم من اللطيمة.

و مضبوطة أم أشتاتا من الكلام المتناثرة لا تحكمها إلا القواميس اللغوية. فما علاقة هذا العلم بملكة اللسان العربي ؟

كانت الملكة للعرب بالطبع، إذ كانوا يستعملون الألفاظ في مواضعها ثم فسدت هذه الملكة، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضعه و خيف الجهل بالقرآن والحديث، فكان تدوين الألفاظ و معانيها و في ذلك يقول ابن خلدون: " و لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب، استنبطت القوانين لحفظها، ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم و مخالطتهم، حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضعه عندهم، ميلا مع هجنة المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب و التدوين خشية الدروس و ما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن و الحديث، فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك، و أملوا فيه الدواوين "1.

فهذا علم اللغة و الحاجة إليه دينية في المقام الأول.

ج- الركن الثالث من علوم اللسان العربي هو علم البيان، و هو علم مستحدث بعد علمي النحو و اللغة، و قد أطلق ابن خلدون على البحث البلاغي كلّه " علم البيان " ويقول:" و هو من العلوم اللسانية، لأنه متعلق بالألفاظ و ما تفيده، و يقصد بها الدلالة عليه من المعاني. و ذلك أن الأمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي إما تصور مفردات تسند و يسند إليها و يفضي بعضها إلى بعض، و الدلالة على هذه هي المفردات من الأسماء و الأفعال و الحروف. و إما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة، و يدلّ عليها بتغير الحركات و هو الإعراب، و أبنية الكلمات، و هذه كلها صناعة النحو. و يبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة، أحوال المخاطَبين أو الفاعلين، و ما يقتضيه حال الفعل، و هو محتاج إلى الدلالة عليه، لأنه من تمام الإفادة، و إذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة من كلامه، و إذا لم يشتمل على شيء منها، فليس من حسن كلام العرب، فإن كلامهم واسع، و لكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب و الإبانة "2.

1- المقدمة. ابن خلدون. ص 1258.

2- المرجع السابق. ص 1064.

هذا النص في حد ذاته يعد بيانا لعلم البيان، و حدا يفصح لنا عن أن اللسان ليس مجرد ألفاظ و ما تضمنته من معان بل هناك أشياء تتجاوز الملفوظ، و تستفاد من سياق الكلام، و الأحوال التي تلاف المخاطبين، و تحيط بالمقام الذي قيل فيه هذا الكلام.

إن أول شيء يلفت النظر هو التسمية التي أطلقها على هذا الاسم حيث سماه بعلم "البيان"بينما المتداول في عرف الدارسين هو علم "البلاغة"و إذا استجلينا الأمر نجد أن الرجل أصاب في تسميته هاته لأنه يستمد معلوماته من أصول اللسان العربي المبين ألم يرد في القرآن الكريم قوله تعالى: "الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان"1. ألم يؤلف الجاحظ هو الآخر كتابا من أمهات الكتب و سماه "البيان و التبيين"؟.

يرى ابن خلدون أن موضوع علم البيان هو دراسة الأحوال و الهيئات المختلفة والسياقات و التقديم و التأخير، و ما استعمل في غير ما وضع له، كالاستعارة والكناية و ما ضارعها من الاستعمالات اللسانية التي تحف بها قرائن تدل على معنـى غير المعنى الملفوظ، و يسميها عبد القاهر الجرجاني "المعنى و معنى المعنى"، و رتب عرضها حسب الطريقة التالية:

1 - التقديم و التأخير 2 - درجة التبليغ حسب حالة المخاطب.
3 - التعريف و التنكير. 4 - مطابقة الجملة للواقع أو عدم مطابقتها.
5 - الفصل و الوصل. 6 - الإيجاز و الإطناب.
7 - المنطوق و المفهوم. 8 - الدلالة على ملزوم اللفظ المركّب.

و يكتفي ابن خلدون بهذه الأوضاع الثمانيةِ و يبين الغاية منها و هو إظهار إعجاز القرآن الكريم الذي نزل باللسان العربي المبين، و عجز فرسان الفصاحة عن معارضته و تحديه. و بهذا اللون من البيان يتفاضل بين كلام و كلام و بين قول و قول، فيقول ابن خلدون مبينا ثمرة هذا العلم: "اعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن، لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة و مفهومة و هي مراتب الكمال، مع الكلام فيما يختص بالألفاظ في انتقائها و جودة رصفها و تركيبها و هذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه، إنّما يدرك بعض الشيء

1- سورة الرحمن. الآيتان (1-2).

منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي و حصول ملكته، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه"1. فرغم كل هذا العرض ينقلنا ابن خلدون إلى الإدراك الفعلي لهذا العلم و هذا الإدراك لا يحصل إلا بالملكة الراسخة و الذوق السليم، لذا فإننا لا نستطيع أن نفهم علم البيان ما لم نتطرق إلى معنى هذين المصطلحين " الملكة و الذوق".

إن مصطلح الملكة يتردد كثيرا في كتابات ابن خلدون، و قد جعلها الرجل المعيار الحقيقي للتعمق في أي فن من فنون الدراسات اللسانية و غير اللسانية، و يعني بها -كما ذكرنا- الصفة الذاتية الراسخة المتمكنة في وجدان الكاتب أو النحوي أو اللغوي بها يدرك الحسن من القبيح و الغثّ من السمين، و السليم المستقيم من المحال الرديء و هذه الصفة لها أساسان:

إما أن تكون جبلية تنشأ مع الطفولة التي عاشت في محيط عربي صريح، أو غير عربي يسترضعها المولود منذ صباه كما يسترضع حليب أمه، فينشأ المولود مطبوعا بتلك الصفة اللسانية الذاتية التي تشربها لحمه و دمه، فسالت أصواتا عذبة، و كلمات رقيقة مشرقة و بيانا ساحرا جميلا. و إما أن تكتسب هذه الصفة بالتدرج، و ذلك بمخالطة أمهات الكتب، و أرباب البلاغة و الفصاحة، و تسبقها حالة غير قارة، فإذا نضجت و اكتملت أصبحت كالصفة الذاتية الطبيعية إدراكا و ذوقا. فإذا تمكنت هذه الملكة في اللسان، و ملكها صاحبها و استولى على ناصيتها أصبحت هي الذوق.

"و استعير لهذه الملكة عندما ترسخ و تستقر، اسم الذوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان. و الذوق إنما هو موضوع لإدراك الطعوم، لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان، من حيث النطق بالكلام، كما هو محل لإدراك الطعوم، استعير له اسمه، و أيضا فهو وجداني اللسان، كما أن الطعوم محسوسة له، فقيل له ذوق"2.

واضح أن ابن خلدون يفرق بين الملكة التي هي حذق الأشياء و معرفة حقائقها، وبين الذوق الذي يختص به علم البيان، فالأولى -أي الملكة- حس متمكن، و الثاني ذوق جمالي. فقد يملك المرء ملكة القوانين إلا أنه لا يرقى إلى درجة الذوق و لذا ينبغي أن نعلم أن إدراك القوانين وحدها أمر غير مجد ما لم ترق إلى مرتبة الملكة الذواقة.

و خلاصة القول في علم البيان أنه يتجاوز القوانين و المقاييس و الضوابط إلى الذوق

1- المقدمة. ابن خلدون. ص 1068.

2- المرجع السابق. ص 1087.

الرفيع، و الفهم القويم لأسرار اللسان العربي المبين.

د- و ماذا عن الركن الرابع للسان العربي "علم الأدب" ؟ .

يقول ابن خلدون إنه لا موضوع لهذا العلم، و لا قوانين تحكمه، بل يعتمد على العلوم الثلاثة السابقة علم النحو، و علم اللغة، و علم البيان و يزيد عليها بذكر أيام العرب وأنسابهم و حروبهم و سلمهم و منظومهم و منثورهم، و أفراحهم و أتراحهم و أعيادهم وفرسانهم و تقاليدهم و أعرافهم إلى غير ذلك مما يجمعه مصطلح التراث ليكون ذلك مساعدا على الفهم ثم الحفظ، فحصول الملكة" لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه، فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه"1.

و لئن كان ابن خلدون قد قال بأن: "هذا العلم لا موضوع له، ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها "2، فإنه ما لبث أن قال: "ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا الأدب هو حفظ أشعار العرب و أخبارها و الأخذ من كل شيء بطرف يريدون في علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط، و هي القرآن و الحديث، إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخر ون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم و ترسلهم بالاصطلاحات العلمية، فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم، ليكون قائما على فهمها"3.

من هذا التعريف المختصر ينطلق ابن خلدون في أجواء الأدب وأركانه، و موضوعاته التي لا نهاية لها، و ذلك بأن يحيط الأديب "بالصناعة الأدبية" و لا يفوته أن يعرج على أساطين الأدب العربي و مؤلفاتهم الأساسية الجامعة لأصول الأدب فيقول: "و سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن يعني الأدب و أركانه أربعة دواوين هي:

1 - أدب الكاتب لابن قتيبة.
2 - كتاب الكامل للمبرد.
3 - كتاب البيان و التبيين للجاحظ.
4 - كتاب النوادر لأبي علي القالي.

1- المقدمة. ابن خلدون ص 1069.
2- المرجع نفسه. ص 1069.
3- المرجع نفسه. ص 1069.

و ما سوى هذه الأربعة فتبع لها و فروع عنها، و كتب المحدثين في ذلك كثيرة "1.

فإذا تصفحنا هذه المؤلفات لوجدنا تفسير القرآن و البلاغة و النقد و القصص و السير و الشعر و الخطب و كل فنون اللسان العربي في هذه الأمهات مستوفاة، و هذا ما يفهم منه أن لفظة " الأدب" أو الصناعة الأدبية " كما سماها تعني الثقافة الجامعة المانعة.

و لا مجال هنا لإعادة تفصيل ما قاله ابن خلدون في شأن هذا الموضوع فقد تم تناول مسائله في الفصل الثالث "تحصيل الملكة اللسانية".

إذًا فالملكة و الذوق و الصورة الذهنية و الصناعة الأدبية و الأسلوب كل هذه لا تحصل إلا بالمعاناة و المران و المجاهدة حتى ترسخ تلك الصفات و تصبح جبلية في الناطق باللسان العربي المبين.

2 – كتب النحو و دورها في خدمة اللسان العربي:

تعد قضية النحو العربي من أعوص القضايا التي شغلت بال جلّ أهل العلم و المربين والمعلمين قديما و حديثا. فالمتعلم لدرس النحو العربي يقضي سنوات طويلة لفهم جوانبه و مسائله و استيعابها بيد أنه بعد تلك الرحلة الطويلة بين دفات كتبه و تشعب مناحيه، ووعورة مسالكه يجد نفسه في آخر المطاف خاوي الوفاض لا يعتدل لسانه و لا يستقيم بيانه. وهذا يثير حقا الغيظ و الأسف لدى المربيين و المدرسين و كل الساهرين على مؤسسات التعليم بدءا بالصفوف الأساسية و مرورا بالأطوار الثانوية و انتهاء عند مدرجات الجامعة. فالكلّ على مستواه الخاص يشكو همه من مشقة هذا الأمر؛ فالطالب يستعصي عليه تحصيل مادته من لدن المدرس فيصاب بالضعف و النفور و من ثم هجرانه، و قد يهجر بصحبة حتى مدرسه. أما المدرس فهو الآخر يقف مذهولا حائرا في أية طريقة يعتبرها أو منهج ينهجه لإيصال بضاعته النحوية إلى المتعلمين، فكم من ندوات - في هذا الشأن- أقيمت، وكم من تقارير المفتشين رفعت في هذا المضمار، لكن يبقى كل ذلك سرابا، ما لم تكن هنالك نوايا طيبة لدى جميع الأطراف المحيطة بهذه العملية التربوية التعليمية للتصدي للمشكلات الحقيقية التي تحول دون تحقيق الأهداف المرجوة من دروس النحو و اللغة. و رفوف المكتبات العربية تعج بكتب النحو مما ألفه تلاميذ الخليل بن أحمد الفراهيدي و سيبويه و غيرهما، و قد توالت قوافل النحاة عبر العصـ ـور كل منهم سـ ـاهم في غنى تلك

1- المقدمة. ابن خلدون. ص 1070.

المكتبات جهد ما استطاع، بمؤلفات في المتون أو كانت بالشرح أو الاختصار أو المناقشة و الجدل، تأييدا لمذهب أو نصرة لشيخ، أو رغبة في التفرد بالرأي. و مطولات النحو فيها جهد عميق، و توجيهات موغلة في الإحالة و استطرادات حول المسائل، و تعدد للآراء بالدفاع عنها أو دفعها مما يجعل مجرد حصول ملكته أمرا مستحيلا.

أما متون النحو و مختصراته، و خلاصاته ففيها تركيز للأسلوب الجاف، يؤدي إلى تعقيد الأفكار كان من الصعب جدا استيعابها و معرفة القصد منها، و ربما أدى ذلك كله إلى إرهاق المتعلمين و صرفهم عنها و عن النحو و اللغة على وجه العموم.

و كان لابن خلدون نظرات و آراء حول تلك المسائل و القضايا السابقة و فيما يلي بيان ذلك:

1 - الصلة بين كتب النحو و الملكة اللسانية.

2 - مختصرات النحو و متونه مخلة بالتعليم.

3 - العلوم الآلية كالنحو لا توسع فيها الأنظار و المسائل.

4 - كثرة التأليف في النحو عائقة عن التحصيل.

يراد بالنحو تلك الضوابط و المقاييس و الموازين التي تضبط اللغة و تجعل المرء يتجه في كلامه اتجاه العرب الفصحاء و البلغاء الذين أخذوا لغتهم عن أسلافهم عذبة نقية خالصة من الشوائب. فالنحو إذًا ضروري للكلام كضرورة الهواء للإنسان، لكن إذا استخدم في اللغة بقدر حاجتها منه كان مقبولا مستساغا، أما إذا جاوز الحاجة و الفائدة فإنه حينئذ يكون فوق طاقة المتعلم إذ يصعب فهمه و استيعابه، و ربما كانت من ذلك القطيعة مع أمر اللغة و ما يرتبط بها.

و الملاحظ عند الكثيرين من عوام المثقفين في العالم العربي الآن أنهم يجدون صعوبة في التفريق بين النحو و اللغة، و يعتبرونهما شيئا واحدا لا يصح أحدهما دون وجود الآخر، فليس النحو في فهم هؤلاء وسيلة للغة، بل هو اللغة نفسها، وما دام تفهمه و استيعابه تقف دونهما العوائق العلمية التي تنقلب إلى عوائق نفسية و ذهنية. فإن أمر ذلك كله ينقلب على اللغة نفسها، فتوصف بالصعوبة و التعقيد. و في هذا كتب ابن مضاء القرطبي يقول:" و مثل هذا المكتوب – الرد على النحاة - و كتب النحويين كمثل رجال ذوي أموال عندهم الياقوت الرائق و الزبرجد الفائق و الذهب الإبريز

و الورق التي برزت في الخلوص كل التبريز، و قد خالطها من الزجاج الذي صفى حتى ضن زبرجدا و النحاس الذي عولج حتى حسب عسجدا ما هو أبهى منظرا و أعظم في مرأى العين خطرا، و أكثر عدة و أجد جدة، حتى صاروا بها ألهج و ظنوا أنهم إليها أحوج "1.

هذه القضية درسها اللغويون العرب المحدثون بعمق و استقصاء، فدلوا على ما حواه النحو العربي من الصنفين، و دللوا على ما ارتأوه بما أتاحته لهم ثقافتهم اللغوية الحديثة من فهم جديد لقضايا النحو.

أما ابن خلدون فماذا يقول عن هذه القضية ؟.

يعالج ابن خلدون هذا الموضوع في إطار نظرته للملكة اللسانية التي تحصل بالمران والدربة و التمرس بالنصوص، فهو يرفض أن يكون للنحو صلة بالكلام في الأساس ويقول في ذلك:" فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية، و أنها مستغنية عنها بالجملة." يبدو أن الرجل منطقي تماما مع نفسه و مع نظرته، فالنحو -في رأيه- ليس هو الكلام، و الكلام هو الذي يكون الملكة، و ما دام الأمر كذلك، فلا علاقة له بتلك الملكة و ليس ضروريا لها كما سبق بيانه آنفا. لكن ابن خلدون تحدث عن كتب النحو التي حَوَتْ ما أسماه أحيانا "قوانين الإعراب" و أحيانا أخرى "صناعة الإعراب" و هو في حديثه ذاك لم يناقش ما حوته من تلك القوانين أو هذه الصناعة ببيان جدواها أو عدم فائدتها كما فعل ابن مضاء قديما و علماء اللغة العرب حديثا، فإنها كما قرر بكل جرأة و صراحة لا علاقة لها بملكة اللسان. و في تقويم ابن خلدون لتلك الكتب راح يبحث عن المسائل التي تخدم قضيته -أي الملكة اللسانية- تلك التي ترتبط بالنصوص و إجادتها بعد الحفظ و كثرة الاستعمال، ولذلك فإن الكتب النحوية العربية من حيث علاقتها بهذه الفكرة نوعان:

الأول: ما من شأنه يخدم اللغة و يفيد الملكة، و هي الكتب الكثيرة التي تحوي كلام العرب من المنظوم و المنثور، و من الأمثال و الشواهد فيستقر في محفوظ الدارس و المتعلم، و يتنبه به لشأن الملكة، و يرى أن ذلك يتحقق في " كتاب سيبويه". أما من يغفل عن التفطن لهذه الأمور السابق ذكرها فيحصل -كما يقول- على علم اللسان صناعة و لا يحصل عليه ملكة.

1- الرد على النحاة. أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء. ص 81. تحقيق د. شوقي ضيف. طبع القاهرة سنة 1947.

النوع الثاني: و هو ما لا يخدم اللغة و لا يغني في شيء الملكة، و ذلك ما نجده في كتب النحو المتأخرة التي كان كل همها لصناعة الإعراب وحدها، فهي محشوة بالتشقيق و التفريع و الجدل العقيم، و هي في الوقت ذاته خالية من كلام العرب شعرا و نثرا فدارسو هذه الكتب -كما يقول- " يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب و هم في الحقيقة أبعد الناس عنه."1. و بعد أن يطبق الرجل نظرته على كتب النحو في الأندلس و المغرب و إفريقية، يقلب يديه في أسف ليقول: " فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل، و بعدت عن مناحي اللسان و ملكته، و ما ذلك إلا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان و تراكيبه و تميز أساليبه و غفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم، فهو أحسن ما تفيده الملكة في اللسان، و تلك القوانين إنما هي وسائل للتعليم، لكنهم أجروها على غير ما قصد بها و أصاروها علما بحتا، و بعدوا عن ثمرها "2.

و خلاصة الموقف إزاء ما في كتب النحو أن الداعين للتجديد قديما و حديثا نظروا فيما حوته من " قوانين النحو " لمعرفة ما يخدم منها اللغة و ما يخدم منها المنطق والجدل و دارت جهودهم في هذا الإطار وحده.

أما ابن خلدون فلا حاجة له إلى تلك القوانين، فهي -في رأيه- لا تنفع ملكة اللسان ولا تضرها، و أن ما يخدم اللغة منها إنما هو ما يحوي قدرا كبيرا من النصوص القيمة التي من شأنها أن تساعد على تكوين الملكة. أما ما في هذه الكتب النحوية مما أسماه " قوانين المنطق العقلية"، و العلم البحت و الجدل، فهي أمور بعيدة كل البعد عن جوهر اللسان وملكته. تلك هي نظرة ابن خلدون لكتب النحو، و قد تكون متطرفة تجعلنا نتوقف عندها لمراجعة أنفسنا، و البحث عن أحسن السبل و أيسرها في التعامل مع النحو بما يكفل حاجات المتعلمين الضرورية من مادته و موضوعاته مع العناية فيها بالنصوص الراقية الأصيلة و الأمثلة الجميلة العذبة.

إن ما أُلِّف من المتون و المختصرات النحوية، "كالحدود النحوية" للرماني و" الحدود النحوية " للفاكهي، و"الشيرازيات " و " البصريات " لأبي علي الفارسي و " القانون " للجزولي علي بن عيسى، و التسهيل لابن مالك، " و الخلاصة الألفيـ ـ ـة " له أيضـ ـا

1- المقدمة. ابن خلدون. ص 1083.

2- المرجع السابق. ص 1084.

و" مختصر المقرب " لأبي حيان، و الأجرومية" لابن آجروم الصنهاجي و غيرها من المؤلفات الأخرى، كان الكثير منها لا يصلح للناشئة المتعلمين، إذ يسبب لهم ضيقا شديدا، و صعوبات علمية و نفسية يتعذر احتمالها.

فماذا يرى ابن خلدون في الكتب عموما و منها النحو؟.

يقرر ابن خلدون أولا أن كثير من المتأخرين كانوا مولعين باختصار العلوم، بأن وضعوا لكل علم قليلا من الألفاظ و لكنه محشو بالمعاني، و من ناحية أخرى أنهم يلجؤون إلى اختصار الكتب المطولة تقريبا للحفظ، و من ذلك - كما ذكر - فيما يختص بالنحو ما فعله ابن مالك في العربية، و لعله يشير بذلك إلى "الخلاصة الألفية ". و يقول: " و هذا فساد في التعليم و إخلال بالتحصيل" لما يترتب عليه من صعوبات معنوية و لفظية.

فمن الناحية الأولى "تلقى على المبتدئ غايات العلوم، فتكون صعبة مقفلة عليه لأن استعداده قاصر عن إدراكها، فهذا الاستعداد ينمو قليلا قليلا، و ينبغي ابتداء أن يؤخذ بالتقريب و الأمثال الحسية، حتى يتهيأ لما هو أرقى من ذلك بالتدريج، فإذا كلف المتعلم بهذه النتائج و الغايات من القواعد المكثفة، كل ذهنه، و صعب عليه هذا العلم " فتكاسل عنه، و انحرف عن قبوله، و تمادى في هجرانه " 1.

وأما عن الصعوبات اللفظية، فإن ألفاظ المختصرات عويصة الفهم، لأنها تحوي معاني كثيرة متزاحمة، فتشغل المتعلم بحلّ الألفاظ، و يضيع وقته في الوسيلة بدلا من الغاية.

و يترتب على هاتين الصعوبتين أن ما يحصل عليه المتعلم بعد كل هذا العناء والجهد و المشقة " ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة ففي الأخيرة الوضوح و البسط، و في الأولى عسر الفهم، و سوء العرض والإخلال بالبلاغة "2.

فهلاّ يسمع ذلك أولئك الذين يشقون على أنفسهم و على الناس، بالبحث عن الكتب الصعبة الألفاظ الكزة المعاني، فيقررونها على الطلاب، فيشقون بها صحبة مدرسيهم ويضيع الجهد و الوقت في تحليل الألفاظ و استخراج المعاني العويصة مع قلة الفائدة.

---

1 – المقدمة.ابن خلدون. ص 1031 .

2 – المرجع السابق. ص 1232 .

هذا مع الاختصار و التبسيط في كتب النحو. أما ما يخص مطولات النحو التي تموج بالفروع و الآراء و الجدل، و الافتراضات و التأويلات، فإنها تزيد الأمور تعقيدا وعسرا. هذا النوع من الكتب كثيرة هي عند المتأخرين، نجده في " شرح الكافية " لابن الحاجب، وفي "ارتشاف الضرب من كلام العرب" لأبي حيان، و في "التذييل و التكميل شرح التسهيل" لأبي حيان أيضا، و في " شرح الأشموني " و في " شرح المفصل " لابن يعيش.

و لقد لقيت هذه الكتب هيبة و ترحيبا لدى المشتغلين بالنحو، بحكم تعظيم المتخصصين في النحو لها، و اعتمادهم عليها. و لا بأس من ذلك ما دام الأمر يهم المتخصصين الذين يكدون فيها أذهانهم طلبا للتوغل و تجاوز الحدود أما أمر المتعلمين العاديين فهذا مرفوض لدى ابن خلدون. و يقرر في بداية الأمر أن من العلوم ما هو مقصود لذاته كالعلوم الشرعية والطبيعيات و الإلهيات، و من العلوم ما هو وسيلة لغيره كالنحو و المنطق. و في ذلك يقول: " أما العلوم التي هي مقاصد، فلا حرج من توسعة الكلام فيها، و تقرير المسائل واستكشاف الأدلة و الأنظار، فإن ذلك يزيد طالبها تمكنا في ملكته و إيضاحا لمعانيها المقصودة. و أما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية و المنطق و أمثالها فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط، و لا يوسع فيها الكلام، و لا تفرع المسائل لأن ذلك مخرج لها عن المقصود."[1].

إذا فلا حرج في إطالة الكلام و الاستدلالات و الأنظار في النوع الأول، أما النوع الثاني فينبغي الاقتصار فيه على ما تحقق المقصود، و ينتفع به في الغاية منه، فلا يوسع فيها الكلام و لا الأنظار و لا تفرع المسائل للمتعلمين و الناشئة.

فهذا التطويل و التفريع في هذه الكتب يجعلها هدفا في ذاتها، و يفوت المقصود منها و هذا خروج بها عن طبيعتها التي هيئت لها إلا إذا كان ذلك محصورا لدى المتخصصين الذين بإمكانهم الإبحار في أعماقها، و التنقيب عن لآلئها.

و أمر آخر أنها بهذا الطول يعز على المتعلم احتواؤها، ناهيك بتحصيل ما هو مقصود منها، فالاشتغال بها إضاعة للعمر في الوسيلة قبل الوصول إلى الغاية.

إن ما يقدمه لنا ابن خلدون من أفكار قيمة في شأن تدريس النحو، يجعلنا نقف وقفة جادة و حازمة نبحث خلالها عما ينبغي أن نقدمه لطلابنا من دروس النحو ما من شأنها

---

1 – إبراهيم النجار. الفكر التربوي عند العرب. ص 632 . الدار التونسية للنشر1985.

أن يعمل على تحقيق الهدف منها دون عسر أو قسر. أما الطلبة المتخصصون في المعاهد والجامعات فلهم أن يعمقوا البحث في مسائله و فروعه بالاعتماد على مناهج موسومة بالتيسير و محققة للأهداف المتوخاة.

و من معوقات تحصيل النحو للمتعلمين كثرة التأليف فيه، و تعدد مذاهبه واختلاف مصطلحاته، مما أغنى المكتبات العربية بهذه المادة من حيث حجمها و طعمها و طريقة عرضها. و لقد ساهمت المذاهب النحوية المختلفة من بصرية و كوفية و بغدادية وأندلسية في كثرة التأليف في هذا العلم أضف إليها اختلاف المصطلحات فيه.

هذا كله -في رأي ابن خلدون- يعيق تحصيل الملكة في هذا العلم للمتعلمين فكيف يحصلون على تلك الملكة مع كثرة التآليف و اختلاف المذاهب و المصطلحات و قد يفنون أعمارهم في ذلك كله، بيد أن تحصيل ملكة هذا العلم تبقى قاصرة عندهم "و بالجملة فالتآليف في هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحاط بها، و طرق التعليم فيها مختلفة؛ فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين، و الكوفيون و البصريون و البغداديون والأندلسيون مختلفة طرقهم كذلك "1

و الحقيقة أن المتعلم لهذا الفن - أي النحو - و حتى المتخصص فيه، يقع في حيرة و اضطراب بسبب هذه العوامل المذكورة سابقا، و الواقع الذي تعيشه المعاهد المتخصصة في اللغة العربية و فنونها تثبت هذه الحيرة و هذا الاضطراب إذ يقع الطلبة حائرين أمام ما تعرض عليهم من مسائل نحوية تضاربت فيها الآراء و اختلفت فيها المذاهب و يدفعهم كل ذلك إلى التساؤل: هل نحن مطالبون بمعرفة كل ذلك؟ و هل نحن مجبرون على حفظ ذلك ؟ و هل نطالب بذلك في الامتحانات ؟ إلى غيرها من الاستفهامات و التساؤلات التي تثقل كاهله و تشوش ذهنه و تجعله يقف أمام جبل طال شموخه و صعب تسلقه.

إن فكرة ابن خلدون جديرة بالاهتمام بها تجعلنا نفكر مليا فيما ينبغي أن نقدمه للمتعلمين مما هو أهم بالتمسك قدر الإمكان بخط النحو الأصيل، و ترك المختلف فيه والمتضارب فيه للمولعين بهذا الفن من المتخصصين و أهل الدراية إن أرادوا إلى ذلك سبيلا.

1- المقدمة. ابن خلدون. 1058.

3 - قرائن الكلام و قوانين الإعراب:

في حديث عبد الرحمن بن خلدون عن أمر اللغة العربية نجده يردد مصطلحات تكاد تكون من لوازمه الخاصة به و هي:

1- لغة مضر أو اللسان المضري.

2- لغة العرب لهذا العهد أو لسان العرب لهذا العهد.

3- لغة أهل الحضر و الأمصار أو عرف التخاطب في الأمصار.

4- أشعار العرب و أهل الأمصار لهذا العهد.

بداية ينبغي تحديد فهم ابن خلدون لهاته المصطلحات الأربعة، ثم معرفة القصد من هذين التعبيرين " قوانين الإعراب " و " قرائن الكلام " بتطبيق ذلك على مستويات اللغة الأربعة ثم تأصيل هذا الموضوع في الدراسات اللغوية الحديثة.

1- أما لغة مضر: فإنه يقصد بها اللغة الفصحى التي وجدت بين العرب الخلّص الأقحاح قبل أن يأتي إليها الفساد بمخالطة الأجانب و المولدين ، إنها القرآن الكريم "قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلّهم يتّقون" 1. و هي - أية لغة مضر - التي كانت مرجع النحاة، فقد درسوها و استنبطوا منها قواعدهم خشية على دينهم و ضمانا لسلامة لغتهم فهي منسوبة إلى " مضر " الجد الأول لعرب الشمال، و صار يطلق عليها لسان مضر أو اللسان المضري ".

2- أما لغة العرب لهذا العهد، فيقصد بها اللغة العربية الفصحى التي كانت مستعملة في عهد ابن خلدون و هو القرن الثامن الهجري - و هي تعد امتداد للغة الفصحى القديمة "لغة مضر"، بيد أنها لحقها تغيير في كثير من مظاهرها على مستوى البنية و الإعراب.

3- و لغة أهل الحضر و الأمصار: يقصد بها لغات التخاطب العامية التي تختلف من بيئة إلى أخرى، فهي في المشرق و أمصاره مخالفة للمغرب و أمصاره و كذلك الشأن بالنسبة إلى الأندلس و أمصارها، و إفريقية و أمصارها. و أطلق عليها جميعا "عرف التخاطب في الأمصار" كما قال: " اعلم أن عرف التخاطب في الأمصار و بين الحضر ليس بلغة مضر القديمة "2.

---

1 – سورة الزمر . الآية 23 .

2 – ابن خلدون . المقدمة . ص 1078 .

و هذه اللغات قد لحقها أيضا التغيير على مستوى الإعراب و التصاريف و الاصطلاح وفي ذلك يقول: " و هي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم، فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهال المغرب، و كذا أهل الأندلس معهما، و كلّ منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده و الإبانة عما في نفسه. و هذا معنى اللسان و اللغة. وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد."1. و رغم الاختلاف و التغيير الحاصل على مستوى اللغة فإن المقصود منها حاصل وقائم و هو الإبانة و الإفصاح عما في النفس.

4- أما أشعار العرب لعهده، فهي الأشعار التي كانت شائعة في الأمصار لعهده و هذه الأشعار بعدت عن لغة مضر، و راحت تستخدم النوعين الأخيرين أي لغة العرب لعهده، و لغات التخاطب في الأمصار، فكان الشعراء يقرضون الشعر كما يقول -في سائر الأعاريض- على ما كان عليه السلف المستعربون، و تذكر منه المطولات مشتملة على مذاهب الشعر و أغراضه، و قد سمى أهل المغرب هذه القصائد "الأصمعيات" نسبة إلى الأصمعي راوية الشعر، و سماها أهل المشرق "البدوي" نسبة إلى البادية، و سموا ما تغنوا به منها " الحوراني " نسبة إلى منازل العرب البادية في أطراف الشام و العراق.

و الآن نطرق باب موضوعنا "قرائن الكلام و قوانين الإعراب" الذي تعرض له ابن خلدون في مواضع ثلاثة من مقدمته الشهيرة، في حديثه عن "أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر و لغة حمير" في الفصل السابع و الأربعين. و في حديثه عن " لغة أهل الحضر و الأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر " في الفصل الثامن و الأربعين، كما تعرض له في حديثه عن " أشعار العرب و أهل الأمصار لهذا العهد " في الفصل الستين.

و سنتعرض لبعض جوانب رأيه في هذا الموضوع المثير من خلال ما ذكره عن هذه المستويات اللغوية السابقة.

الإعراب و قوانينه في لغة مضر:

يرى ابن خلدون أن الإعراب وجد في اللسان المضري، و أنه كان يلتزم طريقة واحدة و مهيعا معروفا، و مع ذلك يقرر الرجل ما يلي:

1- المقدمة. ابن خلدون. ص 1079.

إن هذا الإعراب بعض من أحكام اللسان، و تفسير عباراته، و أنه يمثل ناحية واحدة في النطق العربي السليم، لكن لهذا النطق جوانب هامة فضلا عن الحركات الإعرابية في حصول الفائدة و إفادة المعنى. و قد سمى ذلك "بساط الحال" و هو ما يدل عليه بأحوال و كيفيات في تراكيب الألفاظ و تأليفها، من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب و في ذلك يقول: "و ذلك أنّا نجدها -أي لغة العرب لهذا العهد- في بيان المقاصد و الوفاء بالدلالة على سنني اللسان المضري، و لم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعين الفاعل من المفعول، فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير و بقرائن تدل على خصوصيات المقاصد، إلا أن البيان و البلاغة في اللسان المضري أكثر و أعرق لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها. و يبقى ما تقتضيه الأحوال -و يسمى بساط الحال- محتاجا إلى ما يدل عليه و كل معنى لا بد أن تكتنفه أحوال تخصه، و تلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع. و أما في اللسان العربي فإنما يدل عليها بأحوال و كيفيات، في تراكيب الألفاظ و تأليفها، من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب."1.

نفهم من قول ابن خلدون أن استيفاء أمر الدلالة لا يتوقف عند الحركات الإعرابية فحسب بل ثمة جوانب أخرى لا تقل أهمية عنها، تهتم بها البلاغة و هي مرتبطة بالظروف و الأحوال و الكيفيات التي يقع فيها الخطاب اللغوي، بعضها يتصل بطريقة النظم و التأليف و بعضها الآخر يدرك من خلال السياق، و هذا ما من شانه يعمل على تمام الفائدة و الوفاء بالدلالة. كما يقرر ابن خلدون أمر آخر له ارتباط بنشأة النحو و تدوينه، و هو الخوف على القرآن و الحديث من أن يأخذ إلى طريقهما اللحن و الفساد بمخالطة الأعاجم و أن ذلك أهم الدوافع إلى تدوين أحكام الإعراب حفاظا على القرآن و السنة، و هما كما يقول: أصلا الدين و الملة و في ذلك يقول: "و كان القرآن منزلا به و الحديث النبوي منقولا بلغته وهما أصلا الدين و الملة، فخشي تناسيهما و انغلاق الأفهام عنهما بفقدان اللسان الذي تنزلا به، فاحتيج إلى تدوين أحكامه و وضع مقاييسه و استنباط قوانينه، و صار علما ذا فصول و أبواب و مقدمات و مسائل، سماه أهله بعلم النحو و صناعة العربية. "2.

1- المقدمة. ابن خلدون. ص 1073.

2- المرجع السابق. ص 1075.

فالدوافع إذًا إلى تدوين أحكام اللسان العربي و وضع مقاييسه و استنباط قوانينه إنما هي دوافع دينية في المقام الأول خشية على القرآن و السنة من أن يتسلل إليها الخلل والفساد و توخيا لإدراك مقاصد هذين المصدرين في المعاش و المعاد. و يواصل قائلا: " فأصبح فنّا محفوظا و علما مكتوبا و سلّما إلى فهم كتاب ا و سنة رسول ا راقيا. و لعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد و استقرينا أحكامه، نعتاض عن الحركات الإعرابية التي فسدت في دلالتها بأمور أخرى وكيفيات موجودة فيه".

حسب فهمنا لكلام ابن خلدون أن تدوين أحكام اللسان العربي كان خوفا على الكتاب و السنة من الفساد، و أنه صار بعد تدوينه سلّما إلى فهمها و إدراك مقاصدهما، أما الآن -أي في عهد ابن خلدون- فلم نعد -كما يقول- بحاجة إلى التزام الإعراب في النطق إذا ما اعتنينا بهذا اللسان العربي و استقرينا أحكامه.

هذا الكلام قد يتخذه الدارسون المجددون، و أعداء اللغة العربية مطية لتحقيق أغراضهم المشبوهة في سبيل المساس بكمالها و شموخها، و أنّى يكون لهم ذلك و أهل هذا اللسان قائمون لهم بالمرصاد ؟

و نحن نرى أن لساننا لا يزال اللسان العربي الفصيح، أي اللغة الفصحى لغة القرآن و الحديث اللذين نزلا بلغة مضر التي نعتز بها. كيف لا و أن سر بقاء هذا اللسان إلى اليوم راجع إلى هذين المصدرين، فأين اللغة اللاتينية اليوم؟ و أين هي كثير من اللغات الأخرى في العالم لم يكتب لها البقاء و الخلود سوى على مستوى ما وعته كتب التاريخ و حفظته آثار النفوس القديمة التي أتى عليها الدهر.

الإعراب و قرائن الكلام في لغة العرب لعهد ابن خلدون:

إذا أمعنا النظر في مضمون الفصل السابع و الأربعين الذي عنونه ابن خلدون بـ" أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر و لغة حمير" نجد أنه كشف عن لغة العرب لعهده من ناحيتين:

أ - ناحية الألفاظ و المعاني و الأسلوب.

ب- ناحية فقدان الإعراب و الاستعاضة عنه بقرائن الكلام.

أما عن الجانب الأول، يرى ابن خلدون أن اللّسان العربي لعهده كانت تستعمل فيه الألفاظ الصحيحة في معانيها الموضوعة لها. و أنها تؤدي الأغراض و المقاصد بين المتخاطبين والسامعين، و أن أساليبها من النظم و النثر تؤدى بها مقتضيات الأحوال

على ما يتطلبه الذوق و البلاغة، و هي في كل ذلك مماثلة للّسان المضري الذي كان للعرب من قبل. وفي ذلك يقول ابن خلدون: "مازالت هذه البلاغة و البيان ديدن العرب و مذهبهم لهذا العهد... نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الأولى، و التعبير عن المقاصد و التعاون فيه بتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد، و أساليب اللّسان و فنونه من النظم و النثر موجودة في مخاطباتهم، و فيهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم، والشاعر المفلق على أساليب لغتهم، و الذوق الصحيح و الطبع السليم شاهدان بذلك ".1

و أما عن الجانب الثاني، فإن ابن خلدون يقرر أن الإعراب قد فقد من اللغة العربية في عهده، و أن فقدان هذا الإعراب لم يهدم أداء اللّغة لمعناها الصحيح البليغ بل إنه يمكن أن يعتاض عنه بما أسماه " قرائن الكلام " و فيما يلي بيان ذلك يقول الرجل:" و لم يفقد منها إلاّ دلالة الحركات على تعين الفاعل من المفعول، فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير و بقرائن تدل على خصوصيات المقاصد "2.

و يفهم من هذه العبارة السابقة عدة أمور منها:

1 - أن اللغة العربية لعهده قد فقدت دلالة الحركات على تمييز المعاني النحوية .

2 - أن اللغة العربية اعتاضت عن هذه الحركات الإعرابية بما أسماه "القرائن الدالة على خصوصيات المقاصد".

3 - ما تقتضيه الأحوال أو ما أسماه " بساط الحال " كما أسلفنا ذكره سابقا، وهو ما يحيط بالمعنى من أحوال و كيفيات حتى ينتهي إلى المخاطب تاما غير منقوص.

و الجدير بالاهتمام أن ابن خلدون يربط في أداء المعنى بين ما أسماه " أصل المعنى " و " كمال المعنى " و أنهما معا الإثنين يتكاملان في الظفر بالمدلول المقصود من الكلام و أن أي خطاب و أية عبارة ليس المقصود من ذلك النطق فقط، إنما المقصود منه أن يفيد المتكلم به سامعه ما في ضميره و خلجات نفسه إفادة تامة، فإفادة المدلول المقصود من الكلام (المعنى) لا تتحقق بأداء الألفاظ لمعانيها و لكنها تتحقق فضلا عن ذلك بما أسماه (بساط الحال)، أو بعبارة أخرى فإن تمام الفائدة لا يحصل بالإعراب وحده إنما يحصل بهذه القرائن كلها و التي منها الإعراب.

1- المقدمة. ابن خلدون. ص 1074.

2- المرجع السابق. ص 1073.

و هكذا يقرر ابن خلدون فكرته في قوله: " لا يضر فقدان الإعراب إذ تغني عنه القرائن" و هي فكرة في تمام الجرأة و الشجاعة لم يسبقه إليها علماؤنا المتقدمون والمتأخرون، ذلك ما سنتعرف عليه في المبحث التالي " لغة أهل الحضر و الأمصار أو عرف التخاطب في الأمصار".

الإعراب و عرف التخاطب في الأمصار:

وصف ابن خلدون لغة أهل الحضر في الأمصار أو عرف التخاطب في الأمصار بأنها لغة قائمة بنفسها مختلفة عن اللّسان المضري القديم، و مختلفة أيضا عن لسان العرب -أو لسان الجيل- لعهده. و يدل على ذلك ما فيها من التغاير الذي يصفه النحاة "باللّحن"، و استعمالها أيضا لاصطلاحات خاصة بها، بل إنها لمختلفة فيما بينها من مصر لآخر كما أسلفنا. و لو نقلنا هذه النظرة إلى وقتنا الحاضر، لوجدنا ما يقرب حديثه هذا من فهمنا في لهجات الأقطار العربية الآن، فتلك اللّهجات تختلف و تتباين من بلد إلى آخر، و حتى داخل البلد الواحد نلحظ هذا التباين و الاختلاف.

و يقرر ابن خلدون مع كل هذا أن لغات الأمصار مؤدية لأغراضها محققة للإفهام و الفهم، و توضيح المراد و تأدية المقصود و الإبانة عما في النفس مع أن الإعراب قد تعذّر. وفي ذلك يقول الرجل: "و كلّ منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده و الإبانة عما بنفسه،وهذا معنى اللّسان و اللّغة، و فقدان الإعراب ليس بضائر لهم، كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد "1.

يبدو أن ابن خلدون منسجم مع نظريته الاجتماعية المتكاملة، لأن اللّغات إحدى مظاهر المجتمع الإنساني بل أخطر هذه المظاهر جميعا، و نظرته هاته إلى اللّغة تعد إحدى جزئيات هذه النظرية. فهو يرى أنه مادامت اللّغة تؤدي وظيفتها و يحصل التفاهم بها بين أهلها، و قد فرضت استعمالها على الألسن، و حققت الصلات الاجتماعية بين الناس في الأمصار فلا بأس.

إن هذا الفهم قد يغضب الدارسين المحافظين للّغة و قد يعدونه خرقا صـارخا و جنايـة كبرى في حق اللّغة و في ذلك يقول الدكتور سالم علوي "إن هذه الرؤية العلمية الفسيحة للإعراب التي نجدها في مؤلفات العلماء الأصلاء، و المبثوثة فـي مؤلفـاتهم المختلفـة الفقهية و الأصولية و النحوية و الأدبيـة و غيرها، هي التي افتقدها العلمـ ـاء العرب

1- المقدمة. ابن خلدون. ص 1079.

المتأخّرون، و حصروا مصطلح الإعراب في خان ضيق يعنون به الحركـات الـثلاث الرفع و النّصب و الجر التي تتجلى في أواخرالأسماء المعربة و الأفعال المضارعة لها من الكلم المفردة التي لا يمازجها الإعراب في عرف العلماء الأصلاء"1.

فمفهوم الإعراب إذا يتعدى ما حصروه فيه من المجال الضيق من أنه مجرد حركات إعرابية قليلة الشأن. فلو أن قائلا قال: " هذا قاتلٌ أخي بالتنوين، و قال آخر:"هذا قاتلُ أخي" بالإضافة، لدلّ التنوين على أنه لم يقتله، و دلّ حذف التنوين على أنه قد قتله. و قد قال رسول ا صلى ا عليه وسلم: "لا يقتل قرشي صبرا* بعد اليوم".

فمن رواه جزما أوجب ظاهر الكلام للقرشي أن لا يقتل، إن ارتد و لا يقتص منه إن قَتَلَ. و من رواه رفعا، انصرف التأويل إلى الخبر عن قريش أنه لا يرتد منها أحد عن الإسلام فيستحقّ القتل.

و على هذا الأساس يكون مفهوم الإعراب صحة المقاصد، و صدق المعاني المتوخّاة من استقامة التراكيب النحوية المتواطئ عليها في اللّسان العربي.

الإعراب و قرائن الكلام في الشعر لعهد ابن خلدون:

يقول ابن خلدون: " اعلم أن الشّعر لا يختص باللّسان العربي فقط، بل هو موجود في كل لغة، سواء أكانت عربية أم عجمية... و لما فسد لسان مضر و لغتهم التي دونت مقاييسها و قوانين إعرابها، و فسدت اللغات من بعد بحسب ما خالطها و مازجها من العجمة، فكان لجيل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر في الإعراب جملة و في كثير من الموضوعات اللغوية و بناء الكلمات. و كذلك الحضر أهل الأمصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الإعراب و أكثر الأوضاع و التصاريف و خالفت أيضا لغة الجيل من العرب لهذا العهد. ثم لما كان الشعر موجودا بالطبع في أهل كل لسان، لأن الموازين على نسبة واحدة في أعداد المتحركات و السواكـــــن و تقابلها، موجودة في طباع البشر، فلم يهجر الشعر بفقدان لغة واحدة و هي لغـــة مضر"2. يستوقفنا النّص عند نقاط ثلاث هي:

- أن الشعر لا يختص باللّسان العربي فقط. - الشعر موجود بالطبع في أهل كل لسان. - لم يهجر الشعر بفقدان لغة مضر.

1- وقائع لغوية و أنظار نحوية. د. سالم علوي. ص 231.

2- المقدمة. ابن خلدون. ص (1124-1125).

* صبرا: أصله الحبس و الصبر نصب الإنسان للقتل.

فالشّعر إذا موجود في كل لغات البشر، و لكل قوم شعراؤهم، فللعرب شعراؤهم وللفرس شعراؤهم أيضا...كما أن الشعر موجود بالطّبع في كل لسان، لأن الموازين - كما يقول- على نسبة واحدة في أعداد المتحركات و السواكـ ـ ـن و تقابلها موجودة في طباع البشر، لذلك كان وجوده لدى جميع ألسنة الناس لما تيسر لنفوسهم من عوامل نفسية جعلتهم على استعداد لنظم قوافيه و رص أبياته.

و قد كان للعرب شعراء في لغة مضر التي استقرأها النحاة، و وضعوا على أساسها قوانين الإعراب، ثم فسدت هذه اللّغة بمخالطة الأعاجم، و خرج منها ما أسماه "لغة العرب لعهده"، التي خالفت لغة مضر في الإعراب و في كثير من الموضوعات اللّغوية، و على مستوى بنية الكلمات، و هناك أيضا لغات الأمصار التي فقدت الإعراب جملة، و اختلفت اصطلاحاتها فيما بينها. و مع ذلك بقي العرب المستعجمون يقرضون الشعر مثل أسلافهم من العرب المستعربين في سائر الأعاريض وفي سائر الأغراض و الفنون الشعرية. فماذا يقول الرجل عن موقف المشتغلين بعلم اللّسان لعهده؟. يقول: "و لهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة، و فيهم الفحول و المتأخّرون عن ذلك، و الكثير للمنتحلين للعلوم لهذا العهد، و خصوصا علم اللّسان يستنكر هذه الفنون التي لهم إذا سمعها و يمج نظمهم إذا أنشـ ـد، و يعتقد أن ذوقه إنّما نبا عنها لاستهجانها، وفقدان الإعراب منها، و هذا إنما أتى من فقدان الملكة في لغتهم فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه و ذوقه ببلاغتها إن كان سليما من الآفات في فطرته ونظره"1. يقول ابن خلدون عن علماء اللّسان لعهده إنّهم يرفضون هذا النوع من الشّعر لاعتقادهم أنه خارج عن سنن العرب في نظمهم إذ هو مستهجن مرذول فاقد الإعراب لذا يجب اطّراحه. بيد أن للرجل فهما آخر لهذا الموضوع يتماشى و فهمه للملكة اللّسانية. فالدلالـ ـة -كما قال- "بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة، فإذا عرف اصطلاح في ملكـ ـ ـة و اشتهر صحت الدلالة، و إذا طابقت تلك الدلالة المقصود و مقتضى الحال صحت البلاغة. و لا عبرة بقوانين النحاة في ذلك "2.

إذا فالشعر الذي نظمه العرب المستعربون لا عيب فيه و لا نقيصة ما دام ليس خارجا عما تُعورف عليه بين أهله، و ما دام يؤدي الفائدة و يحقّق الغرض المقصود منه كاملا

1- المقدمة. ابن خلدون. ص 1126.

2- المرجع نفسه. ص 1126.

غير منقوص. فحينئذ لا عبرة بقوانين النحاة في ذلك ما دام يستغنى عنها بالقرائن.
يبقى الآن بيان فكرة "قرائن الكلام" في منظور الدراسات اللغوية الحديثة. أصدر الدكتور تمام حسان كتابا له سماه " اللّغة العربية معناها و مبناها ". و يعد هذا المؤلف بحقّ ثمرة معايشة و مصاحبة طويلة للتّراث اللّغوي العربي، برزت فيه محاولة جريئـة لإعادة ترتيب الأفكار اللّغوية بداية من العالم سيبويه و من بعده و تصنيفها على أساس جديد، و هو ما أطلق عليه " المعاني و المباني و العلامات".
و المعاني في الأصوات و الصرف و النحو معان وظيفية تؤديها المباني التي تشتمل عليها و تنبني منها هذه العلوم، في مقابل المعنى المعجمي الذي تدل عليه الكلمة المفردة، و المعنى الدلالي الذي يدل عليه المقام.
و المباني: هي تجريد لغوي غير منطوق و لا مكتوب، يعبر به عن المعاني، فهي رموز تستخدم في نظام اللّغة لمعرفة المعاني و الدلالة عليها.
و العلامات: و هي ما يتحقق في الكلام المنطوق و المكتوب فعلا من تحقق المبنى فيه بعلامة خاصة، و يكون للمبنى الواحد علامات متعددة، واحدة منها هي النطق.
و قد قام المؤلف بتطبيق نظريته على الأصوات و النظام الصوتي و النظام الصرفي و النظام النحوي و على مستوى المعجم و الدلالة؛ فبدأ بوضع الأسس التي ينبني عليها النظام النحوي للّغة العربية الفصحى و هي:
1 - المعاني النحوية العامة (كالنفي و الاستفهام و الشرط ... إلخ).
2 - المعاني النحوية الخاصة (كالفاعلية و المفعولية ... إلخ).
3 - المعاني التي تربط بين المعاني الخاصة حتى تكون صالحة لأداء المراد منها عند تركيبها (القرائن المعنوية).
4 - ما تقدمه الأصوات و الصرف للنّحو من مبان صوتية أو صرفية كالحركات والحروف و مباني التصريف (القرائن اللفظية).
5 - القيم الخلافية أو المقابلات بين أحد أفراد عنصر مما سبق و بقية أفراده.
و على هذا الأساس أقام المؤلف نظريته مما أسماه (قرائن التعليق) و تنقسم إلى نوعين:
1 - قرائن معنوية: الإسناد - التخصيص - النسبة - التبعية - المخالفة.

2 ـ قرائن لفظية: (العلامة الإعرابية) و هي: الرتبة ـ الصيغة ـ المطابقة ـ الربط ـ التضام ـ الأداة ـ النغمة.

ثم راح يشرح هذه القرائن شرحا وافيا، مبينا دور كلّ منها في النظام النحوي للّغة العربية. لكن المهم من هذا بيان وجوه الاتفاق و الاختلاف بين نظرة العلاّمـــــة عبد الرحمن بن خلدون، و منهج اللّغوي المعاصر الدكتور تمام حسان عن القرائـــن و قوانين الإعراب.

أولا: هناك توافق في التسمية "القرائن"، فهي عند ابن خلدون " قرائن الكلام " وأنها عند الدكتور تمام حسان " قرائن التعليق " لفظية معنوية.

ثانيا: أكّد ابن خلدون في كل مرة أن هذه القرائن قد تغنينا عن الإعراب، و أن الحركة الإعرابية واحدة منها فقط، فيتّضح المقصود من الكلام بدون حركة الإعراب. وهذا المعنى نفسه جاء في كتاب (اللغة العربية معناها و مبناها) بعد شرح القرائن تفصيلا تحت عنوان " القرائن تغني عن العوامل " .

ثالثا: قدم ابن خلدون رأيه في إطار نظرته الاجتماعية للّغة على أنها " ملكة " تكتسب بالتعليم و المران و الدربة، و مادامت هذه الملكة قد تحققت على مستوى اللّغة لعهده فإنها تكون صحيحة بليغة فلا حاجة بعدها إلى الإعراب، إذ فيها من القرائن ما يغني عنه. و لئن اختلفت الجهة بين الرجلين إلا أن النتيجة كانت واحدة.

و خلاصة القول يحق لنا أن نعقّب على ما أورده ابن خلدون في تعامله مع علوم اللّسان العربي، ولئن أصاب الرجل في كثير من أفكاره و آرائه التي جاء بها، فإنه حاد عن بعض الصواب في بعض آرائه حسب فهمه المتواضع له. فهو يرى أن اللّغة ثابتة و أن النحو متطور، و العكس هو الصحيح، فاللغة بمعنى الكلم المفردة يعتريها التغير بسرعة تناسبا مع عامل الاستعمال لها، و اعتبارا لنظرية ابن خلدون " في أن السمع أبو الملكات اللّسانية " فالألفاظ تحيا وتموت و تظهر و تختفي و " لقد أحسن علماء اللّسان العربي عندما راعوا هذه النظرية اللّسانية و منحوا هذه الألفاظ ألقابا تتناســب و أوضاعها كالمولّد و المعرب و الأصيل والدخيل، و نسبوا لكل قبيلة لغتها الخاصة بها فقال: لغة تميم و لغة هذيل و لغة طيء... إلخ. و من هنا تكاثرت المترادفـــات و الأضداد و المشترك في اللسان العربي " 1

---

1 – د. سالم علوي. وقائع لغوية و أنظار نحوية.ص 126. دار هوما للطباعة و النشر والتوزيع. الجزائر. 2000.

إلاّ أن النحو صعب التطور فاستعصى على الألسن تغيير البنى النحويـ ـ ـ ـة، و إن التبس عليهم الإعراب استعاضوا عنه بالوقوف على السكون مخافة الوقوع في اللحن.

وقد أثبتت البحوث اللّسانية أن النّحو كنظام للألسن البشرية لا يتغير بسرعة، و إن كان قد طرأ عليه تطور فبطء شديد لا يمكن ملاحظته بسهولة. و إذا فقدت الألسن نظامها النحوي فيعني ذلك زوالها. "ولولا أن المقام لا يسمح بذلك لضربنا الأمثلة المتعددة من استعمالاتنا اليومية في الجزائر ذات النظام العربي و الألفاظ الأجنبية، فقد تغيرت المفردات بالجملة، ولم يبق إلا التركيب النحوي العربي لهذه العبارات المتداولة في كلامنا "1.

إن هذه الملاحظة لا تنقص من شأن الرجل و من علمه الغزير في اللّسان العربي وربما كان يقصد غير ما فهمنا، لأن الكلم في زمانه مازالت في أماكنها و لم يفقد اللّسان العربي وقتئذ سوى الحركات الإعرابية التي وقع فيها التغيير بالجملة.

و يرى في ذلك أنه بمقدور الكلام أن يقوم بوظيفته كأداة اتصال و تفاهم بين النـ ـاس و يحقق مقصوده منه بصرف النّظر عن الجانب الإعرابي له مادامت " قرائن الكلام " تغني عن وجود الإعراب. و هذه خرجة غير مألوفة من لدن العبقري ابن خلـ ـدون و هي دعوة خطيرة لا تصدر إلا من عظيم يدرك ما يقول.

و ما شد أذهاننا كثيرا فيما جاء به ابن خلدون في شأن اللّسان العربي و الذي ينبئ عن إحساس لغوي عميق و إلمام كبير بشؤون هذا اللّسان، قدرته على التفريق بين هذا اللّسان كأداة خلق و إبداع. و هذا اللّسان كقواعد و قوانين و مقاييس، فشتّان بين الأمرين، فعلم اللّغة ليس هو اللّغة، فهذا مرتبط بالوضع و القياس و ذلك يرتبط بالحاجة والاستعمال. و هذه الإشكالية حيرت كثيرا من المشتغلين بالدرس اللغوي و صعب عليهم هضمها، إذ أن العملية متداخلة فيما بينها، فمن المصطلحات التي ابتكرها ابن خلدون قوله " اللغة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تكون ملكة في العضو الفاعل و هو اللّسان "، و قوله: " السمع أبو الملكات اللّسانية " ، و تعريفـ ـ ـه " الملكة "و " الذوق " والفرق بينهما ، و " الصورة الذهنية " و " الصنعة الأدبيـ ـة " و" الصناعة اللغوية " و"الصناعة البلاغية " و " الأسلوب و معناه " .

1- المرجع السابق. ص 163.

هذه المصطلحات في مجملها وظيفية، و لم نألفها في كتب النحو و اللّغة و البلاغة و الأدب، فجاءت مبثوثة هنا و هناك، و ما فعله عالمنا الجليل أنه ترصد تجارب الأولين و سبر أغوار تراثنا في ملكة هذا اللّسان العربي فجمع كل ذلك بما وهبه حسه اللّغوي الرقيق و نظرته الثاقبة الواعية في مقدمته الشهيرة. و هكذا فإن اللّسان عنده ليس اللّفظ والمعنى فحسب، و إنّما هو كل هذه الأركان الأربعة مجتمعة اللّغة و النّحو و البيان والأدب، و هذا ما نرغب في تأصيله في دراستنا للّسان العربي المبين في مدارسنا ومعاهدنا و جامعاتنا، لأن عملية الفصل بين هذه الأركان الأربعة أفقدت هذا اللّسان روحه و سر جماله.

إذا فالملكة و الذوق و الصورة الذهنية و الصناعة الأدبية و الأسلوب، كل هذه الأمور لا تحصل إلا بالمجاهدة و المعاناة و المران و الدربة حتى ترسخ تلك الصفات في نفوس الناس، فتصبح جبلة و طبيعة في المتكلم باللّسان العربي المبين.

الفصـ ـ ـل الخـ ـامس

السليقة اللغوية عند المحدثين

- السليقة اللغوية عند العرب المحدثيـن.
- السليقة اللغوية عند المحدثين الغربييـن.
- اللغة بين سليقة الأداء و قواعد النحـو.
- الإبداعيـ ـ ـ ـة فـ ـي اللغـ ـ ـ ـة.

كان العربي في القديم يتكلم لغته العربية بالسليقة، من غير تلقين و لا تعليم يؤديها بصورة آلية دون تكلف و لا إجهاد، و السبيل إلى ذلك المران و التعود و التكرار، فهو مجبول على استخدام لغته وفق المقامات المختلفة و وفق خصائصها.

و السليقة -كما نعلم- لا تمت بصلة إلى البداوة أو الجنس، ذلك أن معظم علماء اللغة لا ينتمون إلى الجنس العربي، و من الخطإ ربط أمر السليقة بذلك الأعرابي الذي يوجد في أطراف البادية.

و قد أسقط هذا الزعم و الاعتقاد الخاطئ العبقري عبد الرحمن ابن خلدون حيث يقول: " تتحدث العرب بالفصحى و هي عبارة عن ملكة تكونت و رسخت فيهم فأصبحت لا شعورية، و لهذا يعتقد بعض المغفلين أنها طبع و جبلة يتحدثها العرب دون جهد و مشقة و لهذا قيل إن العرب تنطق بالطبع "1.

و من خلال كلامه عن مفهوم الملكة راح يوضح الفرق الكائن بين الملكة و الطبع؛ " فالملكة هي فعل اختياري غير غريزي، و إنما تشبه الطبع عندما تتم نتيجة المران والقدم فيظنه المشاهد طبيعيا و هو ليس كذلك لأنها تحدث دون فكر و روية مثل الطبع المتميز بالعفوية و عدم الكلفة "2.

فالملكة عند ابن خلدون تتم على ثلاثة مستويات: الصفة و الحال و الملكة؛ ففي المستوى الأول يحصل التكرار الأول و يسميه الصفة و في المستوى الثاني يحصل التكرار الثاني و الذي تتكرر فيه الصفة و يسميه الحال، و هي صفة متغيرة غير راسخة، و في المستوى الأخير يتم تكرار هذه الحال حتى تثبت و ترسخ و تسمى ملكة. " لأن الفعل يقع أولا و تعود للذات منه صفة ثم تتكرر فتكون حالا، و معنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة"3.

إذا فالمتأمل لكلام ابن خلدون يخلص إلى أن الملكة لا يربطها بالجنس العربي رابط، و هي تحصل بالتكرار و كثرة الاستعمال لأساليب العرب مما حفظه منظوم كلامهم و منثورهم.

---

1 – ابن خلدون. المقدمة. ج4 ص 1399.

2 – المرجع نفسه. ص 1399.

3 – المرجع نفسه. ص 1389.

فالسليقة إذا تحصل بتمام الملكة، و الملكة لا تحصل إلا بالتكرار، و هكذا فإنها تمثل مرحلة من مراحل إتقان اللغة حسب المتعارف عليه دون التصرف فيها و الشعور بخصائصها و قواعدها.

1- السليقة اللغوية عند العرب المحدثين:

لا تعني السليقة، و معناها الطبيعة و الجبلّة، مجرد الإعراب و مراعاة قواعده عند الكلام فحسب، بل تعني أيضا التصرف في وجوه الكلام بالاشتقاق و التعريب و القياس على ما وضعته العرب و تكلمت به من صيغ و أساليب حتى ما تعلق منها بالبلاغة و مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

و في سبيل ذلك ألقى الدكتور عبد ا كنون محاضرة في مؤتمر الدورة الثلاثين لمجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1964 بعنوان: السليقة عند العرب المحدثين؛ و بين فيها أمثلة عن إثبات بقاء السليقة العربية و عملها و لو في نطاق محدود، و كان بحثه قائما على اللغة العامية المغربية. و الأمثلة التي قدمها الأستاذ جاءت حسب ما اتفق دون مراعاة ترتيب و لا ملاحظة تصنيف و هي كالآتي:

الفنّان:

" و قد أطلقه العرب الأولون على الحمار الوحشي لتفننه في العدو، لكن هذا الإطلاق قد توحش مع الحمار الوحشي، فلم يكن ليستعمل من عهد الأعشى و من إليه من الشعراء المتقدمين. و جاء العرب المحدثون فأطلقوه على الشخص الموهوب بهبة فنية من شعر أو تمثيل أو موسيقى، و سار بهذا المعنى كلّ مسار. و قد توقف فيه كثير من الباحثين اللغويين أولا لأنه لم يرد عن العرب إلا بالمعنى السابق، و رأينا كثيرا من الكتاب والأدباء المحافظين يتجنبونه في تعبيرهم، فمنهم من يقول: فنّي، و منهم من يقول: مفن. ولكن كثرة الاستعمال فرضته على الجميع. لا سيما أنه مخرج على القواعد العربية أصح تخريج، فقد جعله المعجم الوسيط صيغة مبالغة للفن، و يمكن أن يكون من قبيل النسبة كالحداد و البناء و العطار و نحوها. و لا يخفى أن وزنه أكثر دورانا على الألسنة من فنّي و مفن، لذلك تقبله الجمهور قبولا حسنا و لم يبغ به بديلا. و قد أحسنت لجنة المعجم الوسيط أيما إحسان بإدخاله للمعجم و عدم وضع أية علامة بإزائه مما يدل على توليده أو حدوثه لأنه لفظ عربي أصيل "1.

---

1 – مجلة مجمع اللغة العربية. ص 165 . مؤتمر الدورة 30 . (1963 – 1964) القاهرة . الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية 1965.

واضح أن لفظة الفنان قد تغيرت دلالتها من ارتباطها بالحمار الوحشي في تفننه في العدو إلى ارتباطها بالإنسان في تفننه في فن من الفنون، و لما نزلت على ألسنة الناس واستساغوها و قبل بها ذوقهم فلم يبغوا بها بديلا.

القدّيس:

يظهر أن نصارى العرب هم الذين وضعوه، لأنه عندهم بمنزلة الولي عند المسلمين وهو مأخوذ من القدس بمعنى الطهر و النزاهة. و قد ورد هذا الوزن في اللغة اسما وصفة للدلالة على الكثرة، فالاسم مثل: هجير أي دأب و عريس لموضع الأسد و في المعربات سحيل و مريخ و قسيس. و الصفة مثل: الصديق و السكّيت و الشرير. و على كل حال فالقديس لفظة محدثة، و هي -بلا شك- مقيسة على ما ورد في هذا الوزن أي فِعيل، و إنما يبقى النظر في صحة هذا القياس. فابن دريد يقول في الجمهرة بعد سرده لكثير من مثل هذه الألفاظ كما نقل عنه السيوطي في المزهر:" اعلم أنه ليس لمولّد أن يبني فِعيلا إلا ما بنته العرب و تكلّمت به، و لو أُجيز ذلك لقلب أكثر الكلام فلا تلتفت إلى ما جاء على فعيل مما لم تسمعه إلا أن يجيء فيه شعر فصيح " و لكن المجمع الموقّر لا يمانع في جواز القياس على هذا الوزن، و قد أثبتت لجنة المعجم الوسيط كلمة القديس في المعجم بدون علامة مطلقا "1.

و لعل في النطق بكلمة قديس على وزن فعيل لما لازمه من شدة الطُهر و النزاهة و لذلك أجرته العرب مجرى الصفة.

مزيان:

فهي صيغة مبالغة من الزين، مثل مفضال و معطاء و منحار، و هو يكثر في لسان أهل المغرب بمعنى حسن و جيد، و نرى كثيرا من إخواننا المشارقة يستغربه لأول ما يسمعه، و هو لا غرابةَ فيه، و اشتقاقه صحيح. و قد دخل إلى اللغة الإسبانية بحكم المخالطة، فكثير ما نسمعه من الإسبانيين الذين قطنوا المغرب و هم ينطقونه (مسيانو)، و الغرض من إثباته هنا هو التنبيه على عمل السليقة إذ كان هذا اللّفظ من كلام العامة"2، واضح أن إخواننا المشارقة يستغربون هذه اللفظة لعدم شيوعها على ألسنتهم ولكن بقليل من التأمل يدركون أنها على تمام الصحة اشتقاقا و قياسا.

---

1 – المرجع نفسه.ص 167 – 168.

2- المرجع السابق. ص 168.

الكسكاس:

لم تقف السليقة عند العرب المحدثين على العمل في دائرة القواعد و القياس على المأثور من كلام العرب الأولين، بل تخطت الحدود و ارتجلت كما كان هؤلاء يرتجلون في القديم، فكانوا إذا اشتدت فصاحتهم ارتجلوا، و من ذلك هذا الوزن في الآلة، فكما أن القدماء وضعوا أسماء للآلة على غير الأوزان المعروفة كسيف و قلم و سكين، كذلك وضع المتأخرون اسم الكسكاس للآلة التي يطبخ فيها الكسكس و ليس لها عندنا اسم غيره. إنهم عرب المغرب، و هم الذين يعتنون بما لا يعتني بهذا اللون من الطعام و عنهم عرفه الناس. وهي آلة تشبه المصفاة ذات ثقوب في قعرها، فتوضع على طنجرة غليانة و بداخلها الكسكس الذي يتبخر بفعل غليان الطنجرة و يكون ذلك هو طبخه. و هذا العمل جار على سنن العربية و فرضه الاستعمال سدا للحاجة و هاهو ابن جني يقول: " اعلم أنك إذا أداك القياس إلى شيء ما ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره فَدَع ما كنت عليه إلى ما هم عليه"1.

و قد قال علماؤنا من قبل بهذا الوزن "البركار" تعريبا لآلة الرسم المعروفة كما وجد له نظير جديد في الآلات الحديثة و هو " التلفاز " و هذا من عمل السليقة.

الثرّار:

و هناك كلمة أخرى تدل عليه و هي الشّلال، و كلتاهما من عمل السليقة المحدثة والثرار و إن لم تشتهر أوضح دلالة و أصح مأخذا فإنها من ثر الماء ثرا و ثرورا: بمعنى غزر وكثر. و أما الشّلال فهي من شلّت العين الدمعَ أرسلته. و المراد ليس المفاضلة بين الكلمتين و لكن الإشارة إلى أن السليقة حينما تلح عليها الحاجة إلى التعبير، فإنها تنطق هنا و هناك، و من ثم يأتي الترادف في اللغة. و الأمثلة من هذا القبيل كثيرة تبرز بقاء السليقة و عملها.

الطّيّارة:

و الطّيارة مثال لما توفقت فيه السليقة أكثر من توفق الخبرة. فإن الأقلام المثقفة جرت على استعمال الطائرة و لا يكاد أحد يكتب الطيارة. و شركات الطيران و الصحف في إعلاناتها و الإحصاءات الرسمية إنما تعبر بالطائرات، و ذلك و إن يكن

---

1 – ابن جني. الخصائص. ج1 ص125.

صحيحا إلا أن أحدا لا يمتري في أن الطيارة التي تجري على ألسنة الجماهير أقوى دلالة و أكثر تعبيرا، فإنها تدل على الكثرة و المبالغة بصيغتها. في حين أن الطائرة إنما تدل على مجرد الوصف، و ما أشبهها بالسيارة التي لم يقل فيها أحد السائرة، و لو قالها لما سارت. فهل الفرق بين السير و الطيران في الاعتياد و الغرابة هو الذي جعل الأدباء يقبلون في الطائرة الوصف المجرد و لا يقبلون في السيارة إلا صفة المبالغة ؟

و أيا ما كان الأمر فقد غلبت السليقة هنا الخبرة، و دلّ ذلك على وجودها و على قوتها الكامنة في النفوس التي لا تحتاج إلا إلى قليل من العناية لتنقلب حسا لغويا فعالا.

و ما أحرانا أن نعامل هذه الكلمة و ما كان على غرارها بما يعامل به السماع من التقديم على القياس. لا سيما و هي على ما يبدو أكثر مطابقة لاعتبارات أحوال الاشتقاق ومقتضياته.

ألفاظ للحياة العامة:

منها الميزانية، الاقتصاد، الجريدة، قلم التحرير، الجمعية، الإدارة، المسرح التمثيلية المقهى، الملعب، العمارة، الشقة، الكشافة، الحوالة، طابع البريد، الخريطة الجغرافية الاستئناف، المحامي، الكلية، الجامعة، المتحف.

هذه و غيرها مما يعد بالآلاف من ألفاظ الحياة العامة، كلها من عمل السليقة عند العرب المحدثين، و هي ما بين موضوع ابتداء للمعنى الذي يدل عليه باشتقاق أو نسبة أوغير ذلك. و ما كان لفظا معلوما يدل على معنى عام فأشرب الدلالة على المعنى الجديد، و حمل عليها حملا و سار على ألسنته العامة، و استعمله الكتاب و الشعراء والمؤلفون و أصبح من صميم متن اللغة الذي لا غنى عنه لأحد.

و مما لا شك فيه أن هذه الألفاظ قد اشترك في وضعها أشخاص بأعيانهم من صحفيين و تراجمة و علماء و هيئات لغوية مختصة، و لكن الكثرة الكاثرة منها إنما هذبه الذوق العام و الاستعمال الواسع النطاق بحيث ما استقر في وضع القبول حتى جاز امتحانا عسيرا و خلف وراؤه الكثير مما لم يحصل على إجازة الجماهير له و هذا هو عمل السليقة، و هكذا كان الواضع العربي الأول يعمل ثم يتلقى الجمهور عمله بالقَبول أو الرفض"1.

1- مجلة مجمع اللغة العربية. ص 170. مؤتمر الدورة الثلاثين (1963-1964). القاهرة. الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية 1965.

واضح أن المجمعات العربية في تطورها تحتاج إلى التعبير عن المفاهيم الجديدة و قد تخونها الألفاظ و التعابير و الأساليب المألوفة لديهم في التعبير عن هذه المعاني الجديدة التي عهدوها، فكان من الضروري البحث عن أوعية جديدة لها عن طريق اللجوء إلى توليد و اشتقاق ألفاظ جديدة من سابقتها تلبية للحاجة، و سدا للعجز. فهذا يعد من عمل السليقة.

مصادر شتّى:

وضعت مصادر عديدة منذ فجر النهضة العربية، منها ما كان على طريقة المصدر الصناعي للدلالة على نظرية أو مذهب أو لمجرد التقوية، مثل الفوضوية و الاشتراكية والوصولية و الانتهازية و الفعالية و الحساسية. و منها ما كان اشتقاقا من الاسم الجامد قبل أن يفكر أحد من المجمعيين في ضرورة هذا الاشتقاق، بل قبل أن يكون هناك أي مجمع عربي. فقد كثر الكلام عن تشريك العناصر الذي كان يراد به اندماج الأقوام المتساكنين في البلاد العثمانية، و منهم العرب، في العنصر التركي و ذلك في مطلع القرن العشرين، ثم قيل على هذا النمط تمصير الأدب في مصر و سودنة الإدارة في السودان، ومغربة القضاء في المغرب، و قيل أيضا التأقلم و التطور و الاستغراب والاستشراق.

و هذه المصادر الأخيرة وضعت لها كذلك أفعال، و بعض هذه الأوضاع لم يخضع للبحث المجمعي و لا وضع تحت أنظار حراس اللغة، مما يؤيد رأي الأستاذ في السليقة و عملها الذي لم ينقطع قط."1.

كما اشتقت أفعال من الاسم الجامد. فقالوا: تأقلم و تطور و استغرب و استشرق من الإقليم و التطور و الاستغراب و الاستشراق. و قالوا: حج و زار و خلّل و قدس بمعنى زار الخليل و القدس بعد ما حج إلى مكة المكرمة و زار المدينة المنورة. و كأنهم لما قالوا حج و زار حذفوا المفعول به للعلم به هنا لأن الحج لا يكون إلا لمكة و الزيارة لا تكون إلا للمدينة شعروا بالحاجة إلى ما يؤدي المراد من زيارة الخليل و القدس، فاشتقوا الفعلين المذكورين لما في ذلك من الاختصار و عدم إعادة الفعل زار و الإتيان بالخليل و القدس بعده. و هذا من المقاصد البلاغية.

و يقولون في أحد الأمثال المغربية: "إذا خلجت عسلجت"، و يعنون بذلك أن الأرض

---

1 - المرجع السابق. ص 170.

إذا صارت خلجانا من كثرة المطر أنبتت العساوج بكثرة. و المراد بالعساوج هنا الكلأ فاستحدثوا فعلا من الخليج و آخر من العساوج. و هذه الأمثلة و غيرها الكثير ترينا إلى أي حد تتصرف السليقة عند العرب المحدثين.

و هذه الأمثلة التي لا يمكن أن تحصر في هذا البحث، تبين مدى مرونة اللغة العربية و حريتها و قدرتها على التكيف مع الأوضاع الجديدة التي يفرضها التطور المستمر و هي أي اللغة العربية أداة طيعة لمن يتذوقها و يحسن التصرف في خصائصها، " فما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب".

هذا عن عمل السليقة اللغوية الذي لا يزال يلاحظ في السلوك اللغوي عند العامة والذي يحتاج إلى تهذيب و صقل حتى يصبح من صميم أساليب لغتنا العربية.

أما ما يخص السليقة لدى المتعلمين في عصرنا هذا فيجب البحث في الطريقة المثلى التي ينبغي انتهاجها مع اللغة طلبا للذوق الرفيع و الحس اللغوي الأصيل، و من ثم تحقيقا للسليقة اللغوية و لا سيما و نحن نعيش وضعا لغويا معقدا يندى له الجبين ذلك ما سنبينه بعد.

2- السليقة اللغوية عند المحدثين الغربيين:

تروج في الغرب نظريتان لغويتان في تفسير السليقة اللغوية انطلاقا من كيفية اكتسابها هما النظرية البنوية أو الوظيفية و يمثلها كلّ من بلومفيلد الأمريكي، و أندري مارتيني الفرنسي. و النظرية التحويلية التفريعية و يمثلها نوام تشوسكي.

أما النظرية البنوية أو الوظيفية فإنها تكتفي بالوصف و الشكل دون التعمق في المضمون الحقيقي للغة، و اعتبار الإنسان فيها مجرد آلة مقلّدة.

أما النظرية التوليدية التفريعية، فإنها تجاوزت الشكل و الوصف إلى المضمون الداخلي الإبداعي في اللغة.

ترى النظرية البنوية الملكة اللغوية عادة من العادات تكتسب بالمحاكاة والتقليد. وبدرجة أقل بالقياس، و هي عبارة عن سلوك اجتماعي يمكن اكتسابه بشكل آلي، و ذلك من خلال التمارين الشفوية و الكتابة المكثفة.

و ينظر تشومسكي للغة على أنها أداة خلق و إبداع تبعا لنظام قاعدي معين و يقول في موضع آخر " إن اكتساب اللغة ليس مرهونا بحفظ و سماع الجمل و التراكيب بل هو مرتكز على إبداع و إنشاء تراكيب و جمل جديدة غير محدودة في حين أن الجمل

و التراكيب المسموعة محدودة". و يضيف تشومسكي إلى جانب هذا عامل الفطرة اللغوية في ذهن الإنسان، و قد قادته هذه النقطة إلى نقطة رئيسية جديدة في نظريته و هي التفريق بين ما يسميه (compétence)أي الكفاية، و ما يسميه (performance) أي الأداء. أما الكفاية فهي جملة من القواعد اللغوية الكلية المتشكلة في ذهن الإنسان و التي تجعله قادرا على اكتساب أية لغة على وجه الأرض. و أما الأداء فهو الاستعمال الفعلي للغة في ظروف معينة ملموسة.

ثم زاد على هذين المصطلحين مصطلحين آخرين ربطهما بالكفاية و بالأداء. و هما البنية التحتية أو العميقة (Deep structure) و البنية السطحية (surface structure). وبين أن لهذه و تلك مجموعة من القواعد و القوانين تتحكم في مبناها و معناها، و هذه القواعد هي قواعد التوليد و التحويل. و بذلك يستطيع الإنسان –انطلاقا من هذه القواعد المعلومة المحدودة- أن ينشئ عددا لا حصر له من الجمل و العبارات بشكل مبدع خلاّق. و الواقع أن مفهوم المحدثين للسليقة اللغوية يقترب عموما مع مفهوم علمائنـا العرب القدامى و بخاصة مدرسة تشومسكي التي ترتكز على الإبداع الذي تناسته أو تجاهلتـه المدرسة الوظيفية البنوية التي تعتمد على الشكل و المحاكاة. و يقول تشومسكي إن الإنسان مجبول على اكتساب الكثير من المهارات و منها مهارة الكلام أو بعبارة أخرى (ملكة اللغة)، هذه القدرة على اكتساب اللغة هي قدرة طبيعية و الناس كلهم متساوون فيها. فبالإمكان أخذ طفل صغير من باريس و تربيته في بيئة عربية فإنه سرعان ما يتعلم الكلام العربي بسلامة و دون أية لكنة، و بالعكس. و هذا دليل على أن الناس مهما كان عرقهم فإنهم مجبولون على اكتساب هذه المهارة اللغوية، فهي مثل ملكة المشي الطبيعية.

3- اللغة بين سليقة الأداء و قواعد النحو:

ينظر التحويليون في تعريف النحو من زاويتين: أولهما أن النحو نظام من القواعد والأحكام و الضوابط قائم في ذهن أبناء اللغة منذ الطفولة المبكرة عن طريق عملية الاكتساب اللغوي، و هذا النظام من شأنه أن يساعدهم على إصدار الكلام الفعلي و فهم معانيه. و الثانية: أن النحو نظرية يقيمها اللغوي مقترحا بها وصفا لسليقة المتكلم. "و هم يرون أن الذي يعرف لغة ما معرفة تامة على وجه الاكتساب، شأنه شأن أبناء اللغة الذين يكتسبونها اكتسابا و تتمكن فيهم سليقةً، لا يعرف على وجه الوعي المباشر

إلاّ قليلا من القواعد التي تصدر عنها، أما أكثر القواعد فهو يصدر عنها متجاوزا منطقة الوعي لها أو التصور النظري لها."1.

و هذا القول يبين أن اللغة -أية لغة كانت- ملك جميع من يستعملها، سواء أكان ابن هذه اللغة أم كان خارجا عنها؛ فالأول أخذها سليقة يستعملها بمرونة و عفوية دونما مشقة و تكلف. و الثاني أخذها عن طريق الاكتساب، فتحكم في نظامها و عرف خصائصها وتمرس بأساليبها، و قد ينافس بها أهلها و هذا أمر واضح كما بينّاه فيما سبق. و في مفهوم التحويليين أن النحو في أصل النظرية الموضوعة عند اللغويين مرادف للسليقة عند أهل اللغة، و أن ما يلتمسه اللغويون من قواعد و أصول عند وصف اللغة وتغييرها مرادف للقواعد و الأصول التي يصدر عنها أهل اللغة في مواقف الاستعمال، وأن وعي من يستعملون اللغة على تلك القواعد و الأصول صراحة مسألة لا يستقيم لأحد أن يرسل فيها قولا مطلقا.

" و يرى تشومسكي أن ابن اللغة لا يمكن له أن يفيد عن لا وعيه الذي يصدر عنه في سليقته. و يقرر " أن من الواضح أن تقريرات ابن اللغة و آراءه حول سلوكه اللغوي وسليقته يمكن أن تكون خاطئة. و هكذا يحاول النحو التفريعي أن يحدد ما الذي يعرفه المتكلم ابن اللغة فعلا، لا ما يمكن له أن يدلي به حول معرفته."2.

فكما سبق أن تم بيانه فإن ابن اللغة الذي يتكلم بسليقته قد يكون خاطئا في آرائه وأحكامه التي يصدرها حول سلوكه اللغوي شأنه شأن الأعرابي القديم الذي درب على فصاحة القول و سلامة اللسان إن سألته ـِلمَ ترفع أو تجر؟ فإنه يظل عاجزا عن نفعك بنافع فيما سألته لأنه يجهل طبعا النحو الذي ظهر بعد زمانه، فالأهم أن كلامه صحيح مستقيم يؤدي المقصود منه. و يبقى أمر ما يمكن أن يدلي به حول معرفته فهذا يخص المشتغلين بهذا الحقل المتضلعين فيه. و أن الأمر الذي يشد الأذهان عند التحويليين هو قدرة ابن اللغة على فهم و إدراك جمل لغته المتجددة غير المتكررة و قدرته أيضا على نظم الجمل الكثيرة المناسبة للمواقف و المناسبات المختلفة دون تكرار لأية جملة سابقة. بيد أن هذا الأمر لم يغفله علماؤنا الأوائل؛ فها هو ابن جني المتوفى في أواخر القرن الرابع الهجري يقول:" ألا ترى أنك لم تسمع أنت و لا غيرك

---

1 – عن نهاد الموسى. اللسانيات من خلال النصوص. ص 117. د. عبد السلام المسدي. الدار التونسية للنشر.

2 – المرجع السابق. ص 118.

اسم كل فاعل و لا مفعول و إنما سمعت البعض فقست عليه غيره فإذا سمعت قام زيد أجزت ظَرف بشر، وكرم خالد"1. فالأمثلة و النماذج الكلامية المأثورة عن كلام العرب الفصحاء إنما القصد منها -كما هو معلوم- في درس اللغة و النحو أن نقيس عليها ما نحتاج إليه من كلام في حياتنا اليومية بحسب المقامات المتباينة. فالقاعدة النحوية أو الصرفية هي المنطلق نحو عملية الإبداع و عن طريقها ننشئ عددا لا حصر له من الجمل و الأساليب، فالضوابط والمقاييس معدودة بينما النظم و التأليف لا متناهٍ.

4- **الإبداعية في اللغة:**

إن صفة الإبداعية في اللغة إحدى أهم الصفات الأساسية التي تتصف بها اللغات بصورة مشتركة؛ فاللغة تتسم بميزة أساسية من حيث إنها توفر للإنسان الوسائل الكفيلة بأن تجعله قادرا على التعبير بشكل غير متناه عن أفكاره و عواطفه المختزنة في كيانه، و تحقق له التفاعل بصورة دائمة و متجددة مع كل المواقف المتنوعة و المتباينة التي يواجهها في حياته اليومية و بشكل لا متناه أيضا.

و قد أشير إلى هذه الصفة الإبداعية في القرن السابع عشر، في ظل النظرية اللسانية الكلاسيكية2. إلا أن هذا المظهر اللغوي أهمل تلقائيا و بصورة متدرجة خلال تطور اللسانيات البنوية الحديثة، و ذلك بتأثير من المبادئ السلوكية في علم النفس، غير أنه لا يمكن إغفال بعض ملامح هذا المظهر الإبداعي في اللغة التي نجدها عند اللسانيين البنويين، فأندريه مارتيني مثلا يتكلم عن المواقف المتنوعة و غير المتناهية، و عن مسائل الخبرة التي تعبر عنها اللغة. فاللغة تبتكر بواسطة عدد محدود من القواعد عددا غير متناه من الأشكال و التراكيب المتنوعة.

تقوم اللغة الإنسانية على تنظيم منفتح و غير مغلق من العناصر تتجلى فيه السمة الإبداعية عبر مقدرة المتكلم على إنتاج و على تفهم عدد غير متناه من الجمل لم يسبق له سماعها قبل. و الإنسان وحده هو الذي يختص بهذه القدرة دون سواه من الكائنات الأخرى. و ترتبط هذه المقدرة أساسا بتنظيم قوانين لغوية تسمح لمن يدركه أن ينتج بواسطته جملا غير متناهية اعتمادا على ذلك الأساس أي الضوابط و المقاييس

---

1 – ابن جني . الخصائص . تحقيق علي النجار. ج1 ص 317. دار الهدى للطباعة والنشر بيروت لبنان.

2 – د. ميشال زكريا. الألسنة التوليدية و التحويلية و قواعد اللغة العربية. ط1 ص 29 المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع بيروت. لبنان 1982م.

و القوانين التي تتشكل منها، كما تسمح له بفهمها و فهم ما ينتجه الآخرون ممن يعيش بينهم، فكما تمت الإشارة إليه سابقا أن عدد هذه القوانين و الضوابط و المقاييس محدود و مع ذلك فإن عملية الإبداع غير محدودة و لا متناهية، و شأن ذلك شأن الآلة الحاسبة فإنها يقيدها نظام دقيق بيد أنها تقدم لنا عمليات حسابية غير متناهية.

و الجانب الإبداعي في اللغة يتميز بما يلي:

أ- إن استعمال اللغة الطبيعي تجددي فيه ميزة الابتكار و التجديد، يوفر لها نظامها الذي تتميز به القدرة على بناء البنى الإفرادية و التركيبية بشكل لا متناه بحسب مقتضيات الأحوال.

ب- إن استعمال اللغة حر لا يخضع للمثيرات الخارجية أو الداخلية و بفضل هذا التحرر أصبحت اللغة كوسيلة تفكير و تعبير ذاتيين كما يقول نوام تشومسكي.[1]، فاللغة بهذا المنظور بعيدة عن كل المثيرات فهي قائمة بذاتها و لذاتها.

ج- إن الاستعمال اللغوي أثبت وجود تماسك في اللغة و ملاءمتها لأحوال وظروف التكلم و مقامات الخطاب.

إذًا فالإبداعية في اللغة تتجلى في قدرة متكلمها على إنتاج عدد غير متناه من جمل و تراكيب اللغة وفق نظامها الخاص تعبيرا عن حاجاته المتنوعة و أفكاره و مشاعره المختلفة بشكل دائم و متجدد؛ فالعازف على آلة موسيقية مثلا ينتج ألحانا لا حصر لها يعبر بها عن مشاعره و أحاسيسه اعتمادا على نوطات محدودة معدودة.

و مظهر الإبداع هذا يمتاز به الإنسان و يقوم به بصورة طبيعية، و ليس وقفا على الإبداع اللغوي أو الأدبي الفني بل هو ملك الجميع.

1- المرجع السابق. ص 30.

الفصـــل الســادس

مناهـــج البحــث فـــي اللغـــة

- علم اللغة العام.
- علم اللغة التقابلي.
- علم اللغة التاريخي.
- علم اللغة المقارن.
- علم اللغة الوصفي.

اهتم الباحثون و الدارسون منذ زمن بعيد باللغة، لمعرفة أصلها و شأنها وطبيعتها و خصائصها من حيث ألفاظها و تراكيبها و معانيها و وظيفتها التي تقدمها في المجتمع، وحاجاتها بالنسبة إلى الفرد. و لو استقصينا مجاري تاريخ المجتمعات الإنسانية لعرفنا أن أمر اللغة من أبرز الظواهر التي نالت حصتها في البحث و التفكير. فاهتمام العلماء بهذا الميدان كان بدوافع متباينة كثيرة منها الاجتماعية و منها السياسية و منها الاقتصادية و منها القومية و منها الدينية، فكان من جراء ذلك أن خاف تراثا ضخما تراكم على مر العصور، ذلك ما نلمسه في كتب الفلاسفة اليونان و الرومان القدامى، من أفلاطون في النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد و أرسطو(ت ـ : 332 ق م) و شيشرون (ت ـ: 43 ق م) و يوليوس قيصر (ت ـ: 44 ق م) و قارون (ت ـ: 27 ق م) و إلى غيرهم من العصور المتلاحقة. و كانت هنالك مناقشات أقل عمقا و أبعد عن الدقة العلمية، تقوم معظمها على محاولات لربط اللغة بالسحر و الشعوذة لأمور دينية.

بقي أمر الدراسة اللغوية على تلك الحال بين الاندفاع و التراجع و بين القوة والجمود حتى كانت البداية في دراسة اللغة العربية مع أبي الأسود الدؤلي (ت ـ: 69 هـ) فيما تذكره الروايات عن المحاولة الأولى لوضع النحو، و ما قام به من نقط الإعراب في المصحف الشريف. لكن لم يكتب لهذا العمل أن يصل إلينا شأنه في ذلك شأن عبد ا بن أبي إسحاق الخضرمي (ت ـ:117 هـ) و عيسى بن عمر(ت ـ: 149 هـ)1. فلم تنقل كتب التراجم شيئا منها مما يكون عونا على الكشف عن طبيعة هذه المحاولات مع اللغة. و نعتقد أن الإبداع اللغوي الحق قد برز في صورة منهج واضح المعالم على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ـ: 175 هـ) و تلميذه سيبويه (ت ـ: 180 هـ) و هو المنهج الذي سار عليه كل من يرغب في أن يدرس اللغة قديما و حديثا. فعلى الرغم من هذا الاهتمام الكبير بدراسة اللغة و مناقشة قضاياها في بحوث وأعمال كثيرة، إلا أن ذلك ما زاد على أن كان حجر الأساس لقيام البنـ ـ ـاء اللغـ ـوي المتين وعلى أن كان سجلا صادقا لوقائع التفكير اللغوي وقتئذ، و مجالا للتطبيق عند اللغوي المعاصر.

---

1 – يقول ابن النديم عن كتابي عيسى بن عمر:" و هذان الكتابان ما وقعا إلينا و لا رأيت أحدا يذكر أنه رآهما ".

ظلت الدراسات اللغوية في العربية و في غيرها من اللغات الأخرى، مزيجا من فروع علم اللغة المختلفة مع عناية خاصة بالجانب التركيبي للجمل. و قد كان من بين علماء اللغة أو الباحثين فيها ممن وجه جهده إلى البحث في أصل اللغة و نشأتها و خصائصها العالم ابن جني من خلال كتابه "الخصائص"، فقد استخدم مصطلح علم اللغة بالإشارة إلى البحث "في أصل اللغة و نشأتها و هل هي توقيف أم اصطلاح أو تقليد و محاكاة"؟1، و في جانب آخر إلى جمع الألفاظ و تبويبها في صناعة المعاجم. يقول صاحب مفتاح السعادة: "علم اللغة علم باحث عن مدلولات جواهر المفردات و هيئاتها الجزئية التي وضعت تلك الجواهر معها لتلك المدلولات بالوضع الشخصي، و عما حصل من تراكيب كل جوهر، و هيئاتها الجزئية على وجه جزئي و عن معانيها الموضوعة لها بالوضع الشخصي"2.

و يقول في موضع آخر مشيرا إلى موضوع علم اللغة:" و موضوعه جواهر المفردات و هيئاتها من حيث الدلالة على المعاني الجزئية ... و غايته الاحتراز عن الخطإ في فهم المعاني الوضعية و الوقوف على ما يفهم من كلام العرب"3.

فعلم اللغة عند صاحب مفتاح السعادة كما هو عند غيره من اللغويين القدامى علم يبحث في وضع القواعد النحوية لدفع الخطإ و الاحتراز منه، و في القوانين الصرفية وكيفية اشتقاق الكلمات أو وضعها وفق الموازين التي تقبلها العربية، ثم تصنيف هذه الكلمات في معاجم ككتاب " العين " الذي يعد من أقدم المعالم العربية سار فيه صاحبه على منهج صوتي صرفي، رتب حروف العربية فيه طبقا لمخارجها مبتدئا بأصوات الحلق و منتهيا عند الحروف الشفوية.

و بناء على هذا المدلول فقد كانت كلمة اللغوي في الدراسات اللغوية العربية القديمة تشير إلى من يقوم بإعداد المادة التي يقوم النحوي بالنظر فيها لاستنباط الأحكام والقواعد و القوانين، فَمهمة اللغوي إذًا كانت مهمة وصفية يعتمد عليها النحوي في وضع المعايير و المقاييس التي تضبط اللغة، و في ذلك يقول السيوطـ ـي:" اعلم أن

---

1 – لمزهر. جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. ص 25/1.

2 – مفتاح السعادة . طاش كبرى زاده . ص 100/1.

3 – المرجع السابق. ص 101/1.

"اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب و لا يتعداه، و أما النحوي فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوي و يقيس عليه"1.

أما فقه اللغة: فإننا نجد في التراث العربي القديم كتابين يحملان هذا المصطلح أحدهما لابن فارس، صاحب نظرية التوقيف في اللغة(تـ 395 هـ) و عنوان كتابه "الصاحبي في فقه اللغة و سنن العرب في كلامها " و الآخر للثعالبي أبي منصور (تـ: 430 هـ) و عنوانه " فقه اللغة و سر العربية " و لكن أحدا من هذين الرجلين لم يقم بشرح مصطلح فقه اللغة، و لا ما الذي أراده به. و لكن إذا ما حاولنا أن نتبين ما رمى إليه هذان العالمان بهذا المصطلح، فإننا نجد في كتاب ابن فارس مجموعة من الأبحاث لا يجمع بينها رابط، وربما كان الكتاب في أصله مجموعة أفكار كانت تشغل ذهن صاحبها، فأفرغها في كتاب، ففيه أبحاث عن أصل لغة العرب، و عن اختلاف اللغات، و الاحتجاج باللغة، و عن الخط العربي، كما يتضمن كذلك أبحاثا عن الفعل و الحرف و دراسة بعض الأدوات و الحروف.

أما كتاب الثعالبي، و هو في الواقع كتابان جمعهما في كتاب واحد من قسمين يضم أولهما، و هو الذي عناه بعنوان الكتاب " فقه اللغة " مجموعات من الألفاظ التي تتناول شيئا بعينه كالألفاظ الخاصة بالثياب، و بالطعام، و بخلق الإنسان، و بأسماء الإنسان والنبات، و الشجر... و غيرها، مع الإشارة إلى الألفاظ التي دخلت إلى العربية عن أصل غير عربي. و في القسم الثاني الذي يشير إليه العنوان " سر العربية " و هو مجموعة من الأبحاث التي تتعلق بالنحو و بالصرف و البلاغة، كالتقديم و التأخير و الإضافة والاستعارة، و التذكير و التأنيث، و النعت و الاشتقاق... إلخ.

و كما هو واضح فإن محتويات الكتابين لا تشير إلى معنى محدد أو ميدان واضح في الدراسات اللغوية، و قد كان ابن جني (تـ: 392 هـ) عندما وسم كتابه باسم "الخصائص" أقرب إلى مدلول فقه اللغة عن اللغويين القدماء، و هو معرفة خصائص العربية و مميزاتها.

و في الثلث الأول من القرن العشرين أخذ مصطلح " فقه اللغة " يشير إلى مدلول كلمة فيلولوجي (Philologie) في الدراسات الغربية، و هو معنى غير محدد و مدّ ـ ق عند

---

1 – المزهر. جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. ص 59/1.

اللغويين الغربيين، فقد كان عند بعضهم يشير إلى نشر النصوص و النقوش القديمة ويشير عند آخرين إلى معنى مرادف لمصطلح علم اللغة، و منهم من عده العلم الذي يبحث في قواعد النحو و الصرف، و غيرهم عدوه العلم الذي يبحث في نقد النصوص الأدبية ومقابلتها بما في لغات أخرى، من حيث مضمونها و ما فيها من المعاني و القواعد النحوية والبنى الصرفية و الصور البلاغية، بالإضافة إلى بحث تاريخ هذه اللغة أو تلك."1.

فما هو علم اللغة في الدراسات الغوية المعاصرة ؟ و ما موضوعاته ؟

لما كان هذا العلم من العلوم الحديثة النشأة فقد اعترضته عدة عقبات في تعريفه و تحديد موضوعاته، و من هذه العقبات أن هذا العلم ينمو و يتطور بسرعة كبيرة لا تسمح لمصطلحاته بأن تتضح تماما و لا لنظرياته بأن تستقر على تحديد نهائي لموضوعاتها أو جوانب البحث فيها، و قد أخذت آراء العلماء المحدثين تتجه إلى حصره في الميادين التالية:

- علم الأصوات (Phonology)، علم الصرف(Morphology)، علم التراكيب (Syntaxe). علم المعاجم (lexicology) و علم الدلالة (semantix).

و قد سارت في خط مواز لهذه الحقول التي تعد حقول تخصص دقيق في ميدان علم اللغة العام (General linguistics) مجموعة من الدراسات التي تعد ميدان دراسة لغوية منبثقة من المعنى القديم لمصطلح " فقه اللغة " أو " خصائص اللغة " و تتصل بعلم اللغة العام بسبب و منها2:

1- **علم اللغة العام**: و هو العلم الذي يبحث في النظريات اللغوية العامة، و مناهج البحث فيها، اعتمادا على تحليل التراكيب إلى العناصر التي تتكون منها، إلى فونيمات تنتظم لتكون مجموعة من المورفيمات، و هذه تنتظم لتكون بدورها الجملة التي تعد وحدة التفاهم و التخاطب بين المتكلم و السامع، و وحدة الإفصاح فيما يجري بين الفرد و نفسه، و قد تعددت مناهج العلماء في النظر إلى الجملة و تحليلها، فمنهم من يرى أن على الباحث أن يبدأ بمعرفة الوازع أو الدافع الذهني عند المتكلم، الحافز الذي دفعـ ـه

---

1 – د. خليل أحمد عمايرة. في نحو اللغة و تراكيبها. ص 18 ط1 . عالم المعرفة للنشر و التوزيع جدة. المملكة السعودية 1984 م.

2- المرجع السابق. ص 19.

للنطق بهذا التعبير أو ذاك، ثم يقوم بتحليل الجملة في ضوء ذلك. و منهم من يرى أن عليه أن ينظر إلى الجملة على أنها الدافع الذي يظهر تصرفا سلوكيا عند السامع، و في ضوء هذا التصرف يستطيع الباحث تحليل الجملة، و منهم من يرى أن على الباحث أن يبدأ لتحليل الجملة من الجملة ذاتها إلى الوحدات المكونة لها، من الأكبر إلى الأصغر في ضوء القواعد التوليدية و التحويلية. كما يبحث هذا الميدان كذلك في معرفة الخصائص الرئيسية التي تكون لغة ما، وفي وضع الأسس الأولية للتحليل اللغوي القائم على فهم الجوانب الصوتية و الصرفية والدلالية و المعجمية في تلك اللغة، و في المعاني المختلفة التي تؤديها الجملة.

2- علم اللغة التقابليّ:

و هو أحد ميادين علم اللغة التطبيقي الذي يعد الجانب العملي التطبيقي للدراسات اللغوية التقابلية، إذ أنها تمثل جانبه النظري، و فيه يقوم الباحث بدراسة مقابلة لظاهرة لغوية معينة في لغتين أو لهجتين، لإثبات الشبه و الفروق بينهما، و رصد ما يراه واصفا كل ما يتعلق بتلك الظاهرة في اللغتين أو اللهجتين كل واحدة على حدة في مستويات التحليل الصوتية و الصرفية و التركيبية و الدلالية، و ذلك لوضع حلّ للصعوبات التي تعترض سبيل من يرغب في تعلم لغة غير لغته.

ظلت الدراسات اللغوية التقابلية حتى أوائل الستينيات من القرن العشرين تساهم في وضع الكتب و رسم مناهج التدريس، يتنبأ فيها الباحثون بالأخطاء التي يمكن الوقوف عندها في ضوء دراساتهم للظواهر المماثلة، و يرسمون للدارسين الذين يرغبون في تعلم لغة جديدة، منهجا يسيرون عليه مقابلا بمنهج في لغتهم الأم، مع مراعاة العادات اللغوية التي يكون الدارس قد اكتسبها في لغته، فيتنبه إليها، ذلك لأن أصحاب هذا المنهج يرون أن اللغة عادة مكتسبة كأية عادة اجتماعية أخرى. و في أوائل الستينيات من القرن العشرين اتجهت الأنظار إلى نظرية جديدة يتزعمها اللغوي الأمريكي نوام تشومسكي، وهي النظرية التوليدية التحويلية، التي يرفض صاحبها و أتباعه القاعدة الرئيسية التي يعتمد عليها أصحاب المدرسة السلوكية، و بها يؤكدون أن اللغة عادة مكتسبة تنمو و تتطور بمرور الزمن حيث يكتسب الإنسان كلمات جديدة و معاني جديدة، و هذا ما ينقضه أصحاب المدرسة التوليدية، فهم يرون أن اللغة فطرية جبلية تقوم على عدد من العمليات العقلية الداخلية.

3- علم اللغة التاريخيّ:

لقد عكف عدد من الباحثين في القديم و من المحدثين على دراسة أصل اللغة ونشأتها ولكن هذه الجهود لم تصل إلى نتائج علمية يمكن الاعتماد عليها. فاتجه الباحثون و العلماء إلى البحث في اللغات القديمة كالهندية، كما فعل كل من سابير و بلومفيلد التي عدها العلماء الأصل الذي انبثقت عنه لغات الأسرة الهندية الأوروبية كلها و اتجهوا كذلك إلى البحث في اللغة السامية الأولى بحثا عن الأصل الذي صدرت عنه لغات الأسرة السامية، و لكن نتائج أبحاث العلماء في اللغات القديمة لم تزد على أن حددت بعض ملامح هذه اللغات و أوجه التقارب و التباعد بينها، و من هنا فقد اتجه علم اللغة التاريخي إلى البحث في تاريخ علوم اللغة، كالأصوات و تطور أنظمتها و الصرف و تطور أبنيته، و دخول المفردات من لغة إلى لغة و تاريخ كلمات اللغة و تطور معانيها الدلالية في العصور المتعاقبة في ضوء استعمالها في المجتمع من حيث الانتشار و الدلالة، و العوامل المؤثرة في هذا الانتشار، أو المؤدية إلى دخول كلمات من لغة أخرى، ثم ارتباط كلمات اللغة بالتطور الحضاري للأمة التي تستعملها.

و يعنى هذا الميدان من الدراسات اللغوية بدراسة القواعد النحوية و تطورها من زمن لآخر، و بدراسة تطور المصطلحات النحوية و اللغوية و ما تشير إليه من المعاني في كل عصر، و كما أنه يعنى بتاريخ اللهجات و استقلالها عن اللغة الأم أو بتأثرها بها.

واضح أن العرب "لم يدرسوا لغتهم على المنهج التاريخي، و السبب في ذلك يتمثل في حرصهم على درس اللغة الصحيحة التي نزل بها القرآن الكريم مما يعين على فهم نصوصه و أحكامه فهما صحيحا يتسق مع الخصائص الحقيقية لهذه اللغة"1.

إن عدم الاهتمام بالمنهج التاريخي نابع من عمق قلب علمائنا العرب من أن فهم كتاب ا عز و جلّ يتطلب الرجوع إلى دراسة اللغة الدراسة التي تعين على فهم مقاصده و أحكامه تعالى.

1- عبده الراجحي. فقه اللغة في الكتب العربية. ص 177. دار المعرفة الجامعية. الاسكندرية مصر 1988 م.

4- علم اللغة المقارن:

قام أصحاب المنهج التاريخي بتصنيف اللغات إلى مجموعتين كبيرتين يطلقون عليها:

أ – أسرة اللغات الهندية الأوروبية، و تضم معظم لغات شبه القارة الهندية و إيران بالإضافة إلى اللغات المستعملة في القارة الأوروبية.

ب – أسرة اللغات السامية: و تضم العربية الشمالية و الجنوبية، و العبرية، و الحبشية و الآرامية، و الآكادية، و الفينيقية، و غيرها. فاعتمادا على رصد أوجه التماثل و الاختلاف بين هذه اللغات و ما يتفرع عنها من لهجات تتباين بمرور الزمن حتى تصبح لغات في المستويات أو الأنظمة الصوتية و الصرفية و التركيبية و الدلالية و المعجمية، اعتمادا على رصد ذلك قام العلماء بافتراض لغة قديمة انحدرت منها هذه اللغات فنشأت الفروع التي أصبحت: الرومانية و الجرمانية و السلافية و الهندية و الإيرانية. و تحت كل فرع من هذه الفروع وجد عدد من الفصائل:

الجرماني: الإنجليزية و الدنماركية و النوردية و الألمانية و غيرها، و الفرنسية و الإسبانية و الإيطالية و الرومانية المنبثقة عن اللاتينية. و تنتهي إلى أصل واحد هو الأصل الروماني. و هناك مجموعة من الفصائل الأخرى التي تنتمي إلى مجموعة واحدة من أسرة واحدة و هي: الروسية و الأوكرانية و السلوفاكية و التشيكية و البولندية و البلغارية و لغة الصرب، و ما يتفرغ منها من لهجات، و تنتمي إلى السلافية، ثم الهندية و تشمل عددا من اللغات ...

و ميدان الباحث في علم اللغة المقارن أن يقابل بين الظواهر اللغوية المختلفة والأنظمة التي تؤدي هذه الظواهر الصوتية و الصرفية و التركيبية ... في الفروع التي تنتمي إلى أصل لغوي واحد لبيان الصلات التاريخية، و رصد نقاط التلاقي و الاختلاف بينها.

و كذلك نجد "أن العرب لم يدرسوا لغتهم على أساس المنهج المقارن لأنهم رأوا في لغتهم من تفضيلهم إياها على ما سواها من لغات البشر، لكن نجد إشارات طفيفة إلى لغات أجنبية كالفارسية و الرومية كإشارات سيبويه في مواضع من الكتاب إلى الفارسية و كما فعل الثعالبي فيما يجري مجرى الموازنة بين العربية و الفارسية"1.

و من الواضح أن مثل هذه الإشارات كانت ترد عرضا دون أن تلفتهم إلى دراسة العربية على أساس مقارن.

---

1 – المرجع السابق . ص 178.

5- علم اللغة الوصفيّ:

ظلت الدراسات اللغوية المقارنة هي قبلة الباحثين للمقابلة بين لغتين من أصل واحد ودراستهما، إلى أن ظهر كتاب العالم السويسري دي سوسير (Dee saussure) بعد وفاته بثلاث سنوات سنة 1916 م بعنوان (Cours de linguistique général) الكتاب الذي حمل البذرة الأولى للمنهج الوصفي في دراسة اللغة، فأخذت الدراسات اللغوية تتأثر بآراء هذا العالم الذي رأى أن الدراسات القديمة في اللغة لم تأت بنتائج علمية مقنعة، و بناء على نتائج أبحاث هذا العالم، اتجه الباحثون إلى البحث في اللغة الواحدة في زمن بعينه، اعتمادا على أن لكل لغة مجموعة من الوحدات الصوتية تتألف منها مجموعة كلمات تلك اللغة، و منها تتألف الجمل التي تسير طبقا لقواعد معينة في الاستعمال الغوي الاجتماعي للتعبير عن المعاني الثقافية و الحضارية المختلفة. هذا عند علماء اللغة الغربيين. و ماذا عن هذا المنهج عند علماء اللغة العرب القدماء ؟

يرى ابن جني "أن اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[1]. يحمل رأي ابن جني نقطتين أساسيتين هما:

- أن اللغة مجموعة من الأصوات التي تنتظم في كلمة، و الكلمة تنتظم مع الكلمة فتكون جملة، و أن الجمل التي تنتظم فيها الكلمات تكون في مجموعها ما يسمى باللغة التي تعبر عن المعاني التي تختزن في ذهن المتكلم، و يحتاج في إخراجها، لنقلها إلى السامع، إلى تلك الجمل أو إلى هذه اللغة. فاللغة إذًا أهم وسيلة الاتصال بين الأفراد و الجماعات. ولما كانت اللغة على هذه الدرجة من الأهمية، فإنه ينظر إليها من جانبين:

الجانب الأول: هو الجانب الشكلي من اللغة و الذي يعنى بالتركيب اللغوي في مستوياته الثلاثة:

أ – المستوى الصوتي: و يدرس فيه الوحدات الصوتية التي تتكون منها الكلمة، ثم دراسة هذه الأصوات و استخراج خصائصها، ثم تحليل هذه الأصوات تحليلا فونولوجيا، بحيث تدرس فيه وظيفة هذه الأصوات في الكلمات فتميز بين كلمة و أخرى، و يترتب على ذلك اختلاف معنى الكلمات.

---

1 – ابن جني. الخصائص. ج1 ص 33.

ب – المستوى الصرفي: و فيه ينظر إلى بنية الكلمة، و قسمها الذي تلتحق به من أقسام الكلام ثم إلى تصريفها، و ما يكمن فيها من دلالة الزمن إن كانت فعلا، أو معنى التذكير أو التأنيث، أو الإفراد و التثنية و الجمع ... إلخ.

جـ – المستوى التركيبي: يبدو أن معظم علماء اللغة العربية القدماء، و كثيرين من المحدثين ينظرون إلى النحو على أنه هو علم اللغة، ففي القرن الأول الهجري "اندفع عدد من العلماء بدوافع دينية و سياسية و اجتماعية لاستقراء كثير من شواهد العربية لاستنباط قواعدها"1، و على الرغم من أن هذا الاستنباط قد سار في اتجاهين متوازيين و كون مدرستين اختلفتا في كثير من تخريج الظواهر اللغوية، و تقعيد القواعد، إلا أن وجهة نظر المدرستين قد التقت عند القول بأن النحو علم العربية إلى أن جاء ابن جني (ت 392 هـ) و ترك مجموعة الآراء اللغوية الرائدة في ميادين الصوت و الصرف و اللهجات العربية و خصائصها، و تداخل اللغات و تأثرها ببعض. فكانت مجالا خصبا للدارسين و ما تزال إلى اليوم من أكثر البحوث عمقا و إدراكا لأنظمة اللغة. و مما هو واضح أن التركيز على المادة النحوية بقواعدها وقوانينها و تطبيقاتها عند كثير من الدارسين القدماء و المحدثين، جعلها تكون بمثابة المرادف لمصطلح علم اللغة و دراسته، و صار الاهتمام بالجانب الإعرابي همهم الأول و الأخير، فبذلك كان النحو عند هؤلاء يعني إعراب الكلمات و الجمل. فالإعراب حسب هؤلاء إنما هو وسيلة تفكيك الجملة إلى قوالب و أجزاء ميتة لا حياة فيها تجعل الدارسين يصابون بالنفور و العزوف عن تعلم اللغة في مستوياتها المختلفة.

أما الجانب الثاني فهو الجانب الوظيفي، و تتم فيه دراسة الوظيفة التي تقوم بها الكلمة في مدرج الكلام، و معرفة ما إذا كانت الكلمة قد أخذت موقعها الأصلي، أو وقع تغيير في رتبتها، و كذلك معرفة قوانين انتقال التنغيم الذي تنطلق به من معنى إلى آخر...إلخ.

أما علم اللغة عند معظم العلماء المعاصرين منذ دي سوسير إلى يومنا هذا فهو العلم الذي يقوم بدراسة لغة ما في ذاتها و لذاتها، دراسة علمية دقيقة تعطي وصفا عميقا تاما لأنظمة اللغة، و كيف تعمل هذه الأنظمة، اعتمادا على ملاحظة الظواهر اللغوية المختلفة ثم دراستها و وضع النظريات لتعليل الملاحظات، ثم وضع النظريات موضع التجريب الدقيق بالتطبيق لمعرفة ما ينطبق من اللغة على القواعد و القوانيـ ـ ـن و ما

1 – تمام حسان . التراث اللغوي عند العرب. مجلة فصول. ص 87. العدد الأول. 1980.

يخرج عليها، و لمعرفة انسجام هذه القواعد مع الاستعمال اللغوي، ثم الكشف عن خصائص تلك اللغة، و وضع القواعد التي تمكِّن من يرغب في تعلّمها من أن يحذو حذو أهلها دون الوقوع في الخطإ. فعلم اللغة إذا هو دراسة اللغة في ذاتها و بدون تأثر بعناصر أخرى أو بميادين بحث تاريخية أو تقابلية أو... و لذاتها أي لغير حاجة الوصول إلى نتائج تتعلق بميدان بحث آخر.

و يبدو أن النحاة و اللغويين العرب القدامى قد درسوا لغتهم على أساس المنهج الوصفي، بمعنى أنهم تناولوها -في الأغلب- تناولا لغويا مبنيا على وصف الظواهر اللغوية كما هي، و هو في جوهره يقترب من كثير من الدراسات اللغوية الحديثة.

و يتمثل المنهج الوصفي عندهم فيما يلي:

1 - أن طريقة جمعهم للمادة اللغوية اعتمدت على منهج واقعي واضح، فقد قاموا بتحديد البيئة التي يصح أخذ اللغة عنها، و ذلك بأن حصروها في أعماق بوادي شبه الجزيرة العربية، و علتهم في ذلك أن الحواضر و أطراف الجزيرة العربية بعيدة عن مواطن الفصاحة اللغوية لتعرضها لمؤثرات أجنبية "فلم يؤخذ عن حضري قط، و لا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم"1. و نفهم من هذا القول أن علماء اللغة العرب جعلوا المقياس الضروري صحة المصدر اللغوي المأخوذ عنه أي البعد عن المؤثرات الخارجية، و من ثم فإن البدو الذين تأثرت لغتهم بالعوامل الخارجية لا يصح الاعتماد عليهم في جمع اللغة.

2 - و السمة الثانية من سمات المنهج الوصفي، أنهم صنفوا مادتهم اللغوية على أساس وصفي، أي أن الصفة الغالبة على تصنيفهم هي الصفة التقريرية، وهو ما يلاحظ عند سيبويه، و كلمة الكسائي في ذلك مشهورة حين "سئل في مجلس يونس عن قولهم لأضربن أيهم يقوم، و لا يقال: لأضربن أيهم؟ فقال: أي هكذا خلقت" 2، "و هكذا خلقت" هي جوهر المنهج الوصفي بلا شك. و مما يدل على ذلك ما نجده عند كلّ من ابن فارس و الثعالبي و غيرهما، فهما لا يخرجان عن نطاق هذا المنهج فلا نجد تعليلا للظواهر اللغوية التي يوردانها في كتابيهما فنجد مثلا عبارة: "و من سنن العرب أن يعترض بين الكلام و تمامه كلام، و لا يكون هذا المعترض إلا مفيدا، و مثال ذلك

---

1 – السيوطي . الاقتراح . ص 23 .

2 – السيوطي . المزهر . 2/ 373 .

أن يقول القائل: " أَعملُ -و ا ُ ناصري- ما شئتُ، إنما أراد "أعمل ما شئتُ" واعترض بين الكلامين ما اعترض". و من مثل العرب تشير إلى المعنى إشارة و تومىء إيماء دون التصريح، فيقول القائل: "لو أن لي من يقبل مشورتي لأشرت و إنما يحث السامع على قَبول المشورة. و هذا المنهج الوصفي ظاهر فيما قدمه ابن جني من وصف للأصوات في "سر الصناعة" أو في "الخصائص".

3 - أنه مع هذا المنهج التقريري، لم يخل المنهج العربي من تعليل الظواهر اللغوية فإنهم لم يكونوا يفسرون هذه الظواهر اللغوية من خارجها، بل كانوا يعمدون إلى الربط بين الظواهر في سياق لغوي واحد، و من أظهر الدلائل على ذلك ما فصل فيه ابن جني في حديثه عن "الاستثقال و الاستخفاف" محاولا تحليل الظواهر اللغوية بالرجوع إليه، مؤكدا على قضية في غاية الأهمية بالنسبة للمنهج الوصفي، و هي أن اللغة مادة طبيعية يلجأ فيها إلى الحس و الطبع و لا يركن فيها إلى العقل أو الفلسفة أو المنطق فيقول: "اعلم أن علل النحويين و أعني بذلك حذاقهم المتقنين، لا ألفافهم المستضعفين أقرب إلى علل المتكلمين، منها إلى علل المتفقهين و ذلك أنهم إنما يحيلون على الحس و يحتجون فيه بثقل الحال أو خفتها على النفس، و يقول و لستَ تجد شيئا مما علّل به القوم وجوه الإعراب إلا و النفس تقبله، و الحس منطو على الاعتراف به؛ ألا ترى أن عوارض ما يوجد في هذه اللغة شيء سبق وقت الشرع، و فزع في التحاكم فيه إلى بديهة الطبع، فجميع علل النحو إذا مواطئة للطباع، و علل الفقه لا ينقاد جميعها هذا الانقياد" و يقول: "و من ذلك قولهم: إن "ياء" نحو ميزان و ميعاد، انقلبت على واو ساكنة لثقل الواو الساكنة بعد الكسرة. و هذا أمر لا لبس في معرفته و لا شك في قوة الكلفة في النطق به. و كذلك قلب الياء في موسر، و موقن "واوا" لسكونها و انضمام ما قبلها. و لا توقف في ثقل الياء الساكنة بعد الضمة، لأن حالها في ذلك حال الواو الساكنة بعد الكسرة و هذا - كما ترى - أمر يدعو الحس إليه، و يحدو طلب الاستخفاف عليه، و إذا كانت الحال المأخوذ بها، المصير بالقياس إليها، حسية طبيعية فناهيك بها و لا معدل بك عنها"[1].

و هكذا نجد ابن جني في مواضع كثيرة من الكتاب لا تجد تعليله مبنيا على أسـ ـاس

---

1 – ابن جني. الخصائص. ج1 . ص 48.

فلسفي أو منطقي، و إنما هو يصدر فيه عن اتصال بالحقائق اللغوية كما هي دون اللجوء إلى التخيل و الافتراض.

4 – أن دراستهم للغة لم تقتصر على مستوى واحد، و إنما شملت ما يدعو إليه المنهج الحديث؛ فدرسوا الأصوات و الصرف و النحو و الدلالة، و تناولوها تناولا وصفيا.

و المنهج المتناول إذا منهج لغوي وصفي في معظمه، و إذا كان العرب لم يهتموا بالمناهج الأخرى كالمنهج التاريخي و المقارن، فإن هذا الذي نهجوه أي المنهج الوصفي حري بالدرس و الاهتمام.

الفصـ ـل السابـ ـ ـع

اللغـة بيـن الطبـع و التكلـف

- اللغة و الطبع
- اللغة و التكلف
- آراء حول حقيقة اللغة.

1- اللغة و الطبع:

إن المتصفح لتراثنا اللغوي القديم يجد أن قدماء نقادنا قد وضعوا أصابعهم على قضايا هامة جديرة بالدراسة و البحث، إنها قضايا التباين بين الأداء الصوتي و المضمون الفكري للغة، و رغم إدراكهم لدور "الطبع" عند اختيار القول و من خير رجالنا الذين مثلوا الإحساس كان القاضي الجرجاني إذ يقول: "و قد كان القوم يختلفون في ذلك (التعبير الشعري)، و تتباين فيه أحوالهم، فيرقّ شعر أحدهم و يصلب شعر الآخر و يسهل لفظ أحدهم، و يتوعر منطق غيره، و إنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع و تركيب الخلق، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع و دماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة. و أنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك و أبناء زمانك، و ترى الجافي الجلف منهم كز الألفاظ، معقد الكلام، وعر الخطاب، حتى أنك ربما وجدت ألفاظه في صوته و نغمته و في جرسه و لهجته. و من شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك "و لذلك تجد شعر عدي و هو جاهلي، أسلس من شعر الفرزدق و رجز رؤبة و هما آهلان، لملازمة عدي الحاضرة و إيطانه الريف، و بعده عن جلاقة البدو و جفاء الأعراب، و ترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم، و الغزل المتهالك، فإن اتفقت لك الدماثة و الصبابة و انضاف الطبع إلى الغزل، فقد جمعت لك الرقة من أطرافها"1.

حين نتأمل قول الجرجاني في بيان أثر البيئة على الشاعر فإننا نهتدي إلى حقائق ثلاثة:

الأولى: تتجلى في قوله "أن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع".

و الجرجاني لا يقصد بالسلامة هنا كما يقصد غيره الذين آثروا لغة البادية لفصاحتها و بعدها عن مواطن الفساد. إنه ببساطة يريد بها العبارة التي تتسق و تنسجم مع الموقف الإنساني، مما يحدث عنه سلامة النظم و التأليف.

الثانية: في قوله: "ربما وجدت ألفاظه في صوته و نغمته و في جرسه و لهجته". و نعتقد هنا أن الجانب الذاتي الذي يتميز به كل إنسان يتضح في هذه اللمحة. و الدراسة الفونولوجية المعاصرة لم تعد تكتفي بشرح مخارج الحروف و أوصاف أجراسها، إنها تريد الكشف عن النظام الصوتي، و هو متفاعل مع الألفاظ التي يختارها الشاعر أو الكاتب، ثم هو مرئي من خلال المنغم و الجرس.

1- القاضي الجرجاني. الوساطة بين المتنبي و خصومه. ص17-18. دار إحياء الكتب العربية 1364هـ.

الثالثة: "إن رقة الشعر تأتينا من قبل الشاعر العاشق المتيم الذي ينضاف طبعه إلى غزله" و هو تأكيد لسيكولوجية اللغة التي تجعل من التأليف و النظم صنوا للموقف الإنساني و كشفا عن بعض ما في أعماق النفس الإنسانية.

و ابن جني في هذا الشأن يقول وهو يصف عمل علمائنا "إنهم يحيلون على الحس و يحتجون بثقل الحال أو خفتها على النفس"1. و يقول"و هذا -كما نراه- أمر يدعو الحس إليه و يحدو طلب الاستخفاف عليه، و إذا كانت الحال المأخوذ بها، المصير بالقياس إليها حسية طبيعية فناهيك بها و لا معدل بك عنها"2. كما يقول: "و لستَ تجد شيئا ما علل به القوم وجوه الإعراب إلا و النفس تقبله و الحس منطو على الاعتراف به؛ ألا ترى أن عوارض ما يوجد في هذه اللغة شيء سبق وقت الشرع و نزع في التحاكم فيه إلى بديهة الطبع، فجميع علل النحو إذاً مواطئة للطباع" 3.

"فأصول مناهج البحث في أي علم من العلوم تعتمد أول ما تعتمد على السنن الفطرية للعقل الإنساني في الإدراك، و اقتداره على الملائمة ما بين سلوكه، و بين الموضوعات التي يتناولها بالبحث"4.

فللغة إذاً جوانب خفية تمثل حقولا لا يزال علم اللغة يحاول استكشافها، و قد حدد معالمها ووصف أوضاعها علماؤنا الأفذاذ.

2- اللغة و التكلف:

ولا نزال هنا لا نبرح قول القاضي الجرجاني في مقابل حديثه عن الكلام المطبوع "و ترى الجافي منهم كز الألفاظ، معقّد الكلام، وعر الخطاب"5.

واضح أن ما كان يلاحظه الأستاذ لما كان يصدره بعض الشعراء عن غيره سجية و بعيدا عن سلامة الطبع إنما مرد ذلك إلى غلاظ الذوق وجفاء الطبع و استكراه الجبلة.

وها هو ذا قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي في كتابه نقد النثر يقدم لنا بعض الأوصاف التي ينبغي أن يتحلى بها الخطيب حتى يكون خطيبا حقاً إذ يقول: "ومن الأوصاف التي إذا كانت في الخطيب سمي سيدداً، و كان من العيب معها بعيداً أن يكون في جميــع

1- ابن جني. الخصائص ج1/ ص 48.

2- المرجع السابق ص 49.

3- المرجع السابق. ص 51.

4- القياس في النحو. د. منى إلياس. ص 116 . ط1. ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر. 1985م.

5- القاضي الجرجاني. الوساطة بين المتنبي و خصومه. ص 18/17. دار إحياء الكتب العربية 1364م.

ألفاظه و معانيه جاريا على سجيته غير مستكره لطبيعته و لا متكلّف ما ليس في وسعه. فإن التكلف إذا ظهر في الكلام هجنه و قبح موقعه"1. و حسبك من ذم التكلف أن ا عز و جلّ أمر رسوله صلى ا عليه و سلم بالتبرؤ منه، فقال: "قلْ ما أسألكم عليه من أجرٍ و ما أنا من المتكلِّفين"2.

و في معرض حديثه عن التكلف رد على هؤلاء الذين يعتقدون أن البلاغة إنما هي في الكلام المغربِ فيه و المتعمق في معناه فيقول: "و ألا يظن أن البلاغة إنّما هي الإغراب في اللفظ و التعمق في المعنى"3. و يواصل في بيان مفهوم الفصاحة و البلاغة في قوله: "فإن أصل الفصيح من الكلام ما أفصح عن المعنى و البليغ ما بلغ المراد، و من ذلك اشتقا. فأفصح الكلام ما أفصح عن معانيه و لم يحوج السامع إلى تفسير له، بعد ألا يكون كلاما ساقطا أو لألفاظ العامة مشبها. و لذلك قال بعضهم في وصف البلاغة: "هي أن يتساوى فيها اللفظ و المعنى، فلا يكون اللفظ أسبق إلى القلب من المعنى، و لا المعنى أسبق إلى القلب من اللفظ"4.

و يعاود حديثه عن هؤلاء الذين يتكلّفون الكلام الغريب و هم يوفون أن ذلك إنما هو من صميم البلاغة و حسن القصد قائلا:" و إنّما ينكر أن تكلّم الحاضرة و المولدون من الغريب بما لا يعرفون، و بما هم إلى تفسيره محتاجون، و أن تكلّم العامة السخفاء بما تكلّم به الخاصة الأدباء، و إنما مثل من كلّم إنسانا بما لا يفهمه و بما يحتاج إلى تفسير له كمثل من كلّم عربيا بالفارسية لأن الكلام إنّما وضع ليعرف به السامع مراد القائل فإذا كلّمه بما لا يعرفه فسواء عليه أكان ذلك بالعربية أم بغيرها"5.

و في هذا يسوق لنا بعض الكلام مما هو يجافي الذوق، ثقيل على القلب كقول أبي علقمة النحوي و قد عثر فسقط فاجتمعت عليه العامة، فقال: "ما بالكم تتكأكؤون علي كأنما تتكأكِؤون على ذي جنّة، افرنقعوا عنّي"، و كقول آخر من زمانه: "كنت في عقابيل من علّتي فتلفّعتُ بالعَفشليلْ".

1- أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي. نقد النثر. ص 105. دار الكتب العلمية بيروت- لبنان- 1982م.

2- سورة ص. الآية 286.

3- الوساطة. القاضي الجرجاني. ص 105.

4- المرجع السابق. ص 105.

5- المرجع السابق. ص 105.

"و هذا و شبهه منكر قبيح لا ينبغي أن يستعمله ذو عقل صحيح"[1]. فقد قال النبي صلى اللّه عليه و سلّم: " من بدا جفا".

و لا يزال صاحب الكتاب يبين لنا مواضع السجع في البلاغة مما تسمح به القريحة و يرضى عنه الذوق "و من أوصاف البلاغة أيضا السجع في موضعه، و عند سماحة القريحة به، و أن يكون في بعض الكلام لا في جميعه. فإن السجع في الكلام كمثل القافية في الشعر، و إن كانت القافية غير مستغنى عنها، و السجع مستغنى عنه؛ فأما أن يلزمه الإنسان في جميع قوله و رسائله و خطبه و مناقصاته فذلك جهل من فاعله و عي ممن قائله. و قد رويت للكراهية فيه عن الرسول صلى اللّه عليه و سلّم، فروي أن رجلا سأله فقال: "يا رسول اللّه أرأيت من لا شرب و لا أكل، و صاح فاستهلّ أليس مثل ذلك يطلّ؟" قال فقال: "أسجع كسجع الجاهلية؟! و إنما أنكر (ص) ذلك، لأنه أتى بكلامه كله مسجوعا، و تكلّف فيه السجع تكلّف الكهان. و أما إذا أتى به في بعض كلامه و منطقه و لم تكن القوافي مختلفة متكلّفة، و لا متمحلة مستكرهة، و كان ذلك على سجية الإنسان و طبعه، فهو غير منكر و لا مكروه"[2]. و ها هو ذا يورد لنا مما تكلّم به بعض أهل عصره فأتى بالسجع فيه محمودا و من الاستكراه بعيدا، إذ يقول: "و الحمد للّه الذي ذخر المِنّة لك، و أخرها حتى كانت منك، فلم يسبقك أحد إلى الإحسان إلي. و لم يحضك أحد في الإنعام علي و لم تتقسم الأيادي شكري فهو لك عتيد. و لم تخلق للمنن وجهي فهو لك مصون جديد، و لم يزل ذمامي مضاعا حتى رعيته، و حقي مبخوسا حتى قصيته و رفعت من ناظري بعد انخفاضه، و بسطت من أملي بعد انقباضه،..."[3]

فواضح أن صحاب النص السابق التزم السجع فيه كله بيد أنه حسن موضعه و لانَ جانبه و خفت وطأته على النفس فاستهوته و استعذبته.

و هكذا يبقى التكلف يطبع ألسنة كثير من الأدباء و الشعراء ليبلغ قمته في عصر الانحطاط فغدت آثارهم مذمومة ممجوجة متحجرة الأسلوب سافلة المعاني مردها جمود القرائح و غلق باب الإجتهاد و الإنسياق وراء الأهواء.

1- المرجع السابق ص. 106 / تتكأكؤون: تتجمعون –ذي جنة: الجنون - افرنقعوا: تفرقوا - عقابيل: واعدها عقبول: بقية المرض

2- المرجع السابق ص. 107 / العفشليل: الكساء الغليض – استهلّ الصبي: رفع صوته عند ولادته

3- المرجع السابق. ص .108 / يطلّ: أي لا تدفع ديته – متمحلة: أي محتالا لها.

3- آراء حول حقيقة اللغة:

حار الناس في التعرف على حقيقة اللّغة، و اختلف الدارسون فيما بينهم اختلافا بينا في تحديد مفهومها، كما اختلفوا في منهج دراستها و النظر فيها و إليها، ذلك أن اللّغة بمعناها العام شيئ معقّد مركّب، تُنبئ عن خواص الإنسان و ما يحيط به من جوانب عقلية و نفسية و اجتماعية و ثقافية... إنها المرآة العاكسة لكل هذه الخواص و الجوانب المختلفة، و الكاشفة عن طبيعته و أسراره. و ما أصعب أن يقف الدارس على هذه المناحي المتباينة المتداخلة في الوقت ذاته بنظرة واحدة أو النفاذ إليها بمسلك واحد!.

فالإنسان العادي يتعامل مع لغته كما لو كانت شيئا طبيعيا كالمشي أو التنفس، فإنه يتكلم و يتغنى بها، و يدبر شؤون حياته و يصرف أموره بتوظيفها دون عناء أو تفكير في أغوارها و مشكلاتها.

أما أهل اللّغة الذين يحترفون الدرس اللّغوي، فقد ذهبوا بنا بعيدا عن هذه النظرة السطحية، و انصرفوا إلى أعماق اللّغة للكشف عن أسرارها و طبيعتها المعقدة، و ألقوا إلينا مجموعة من الآراء في تحديد مفهومها. و يكفينا في هذا المقام أن نشير إلى ثلاثة من هذه الآراء لما لها من أهمية بالنسبة إلى الموضوع ههنا.

أولا: ما جاء به دي سوسير في ثنائيته الشهيرة Langue "اللّغة" و Parole "الكلام". و يقصد باللّغة أية لغة كالعربية أو الفرنسية أو الإنجليزية... و هي عنده بهذا التحديد جملة القواعد المخزونة في أذهان الجماعة صاحبة اللّغة، و هي عنده جماعية صرفة و عقلية خالصة. أما الكلام فهو الأحداث الفعلية المنطوقة الحاصلة من المتكلم في الموقع المعين. و هو بهذا التحديد مادي و فردي.

ثانيا: ما جاء به تشومسكي بثنائيته التي تشبه ثنائية دي سوسير و تتمثل فيما سماه compétence أي "القدرة" و performance أي "الأداء الفعلي". و يعني تشومسكي بالجانب الأول أي القدرة أن المتكلم أو السامع المثالي لديه مقدرة على توليد ما لا حصر له من الجمل الصحيحة إذا كان مستوعبا للغته، و يعني بالجانب الثاني "الأداء" تحويل هذه الأمثلة المولّدة إلى جمل حقيقية مصوغة وفق قواعد اللغة المتعارف عليها و يشير تشومسكي إلى هذين الجانبين بتسميات أخرى، هي البنية العميقة deepstructure، و البنية الصحيحة surface structure.

و البنية العميقة عقلية و الثانية واقعية، و الأولى هي مدار الدرس اللغوي عنده، و هي التي يركز عليها جهوده لمحاولة الوصول إلى المعرفة اللغوية عند الإنسان و الكشف عن هذه القدرة و طبيعتها. و هكذا نجد أن دي سوسير و تشومسكي اتفقا في تسمية ثنائية اللغة، كما اتفقا في الاهتمام بالجانب العقلي للغة، و إن كان الأول يفوق صاحبه في هذا الشأن إذ قصر عمله و كل جهوده على الجانب العقلي وحده، أي على القواعد اللغوية المخزونة في أذهان الجماعة صاحبة اللغة، و هي في رأيه تمثل اللغة المعينة التي ينبغي توجيه الدرس اللغوي إليها وحدها، دون الكلام الفعلي الواقعي.

و قد قوبل هذا الاتجاه العقلي للغة بشيء من النقد و الاعتراض من بعض الدارسين اعترض تشارلز بيبه على أستاذه دي سوسير لإخراجه الكلام من دائرة الدرس اللغوي، في حين أن الكلام هو العنصر الفاعل في المجتمع، و هي أداة تواصل بين أفراد هذا المجتمع، فإهماله إهمال للوظيفة الاجتماعية للغة، و كذلك حاول تلامذة تشومسكي تقديم وجهة نظر أخرى لرؤية شيخهم، فحاولوا تعديل هذه الرؤية أو تفسيرها على وجه آخر يضمن للغة أداء وظيفتها الاجتماعية؛ فاقترحوا مقدرة ثانية سموها "المقدرة الاتصالية" "communicative compétence" فإذا كانت المقدرة الأولى التي عني بها الأستاذ قادرة على توليد ما لا حصر له من الجمل الصحيحة، فإن المقدرة الاتصالية تتمثل في قدرة صاحب اللغة على اختيار الجمل التي تعكس القوانين و المعايير الاجتماعية التي تحكم أنماط السلوك في المواقف الاجتماعية التي تواجهه. فإذا كان المخزون العقلي من القواعد مستوعبا من المتكلم، أمكنه أن يتصرف و يأتي بالأمثلة التي تناسب مواقفه، و إذا كان الأمر بالعكس فمعناه أن هناك نقصا في مقدرته الأولى.

ثالثا: و هناك اتجاه ثالث في النظر إلى اللغة و تحديد مفهومها، لم يأخذ أصحاب هذا الاتجاه بثنائية اللغة، و اعتبروها كلا متكاملاً، دون تفريق بين جوانبها، و ركزوا اهتمامهم على الجانب الأدائي النطقي، مع إشارة واضحة إلى وظيفتها في المجتمع.

اللغة عند هؤلاء: "نظام من رموز ملفوظة عرفية، بها يتعاون أعضاء المجموعة الاجتماعية و يتعاملون".

من هذا التحديد لمفهوم اللغة يتبين لنا أن هناك فروقا بين هذا الرأي و سابقيه، فلنقف عندما جاء به هذا التعريف لمفهوم اللغة:

1. إن مصطلح رموز ملفوظة، ينبئ بوضوح عن الاهتمام البالغ بالأذان المنطوقة و هي ما يقابل الكلام عند دي سوسير و الأداء عند تشومسكي. و معلوم أن دي سوسير قد أخرج الكلام من الحسبان، و ألقى بمسؤوليته إلى علماء النفس، و أن تشومسكي ركز على الجانب العقلي، دون جانب الأداء الذي لم ينل منه حظا كافيا من الاهتمام ما يعادل اهتمامه بالجانب العقلي للغة.

و هذه العناية البالغة بالمنطوق من أصحاب الرأي الثالث، لا يعني إهمالهم للجانب العقلي، إنهم لم ينكروه، و إنما أخذوه مضَمّنا في الأحداث المنطوقة، فالرمز بالضرورة يعني بنفسه فكرة الثنائية (الصيغة و المعنى)، أي أن هناك شيئا يمثل شيئا آخر أو بعبارة أخرى الصيغة جزء من منطوق له معنى، و المعنى هو المترجم للجانب العقلي.

2. و المصطلح "عرفية" ذو دلالة مؤكدة على عمق الاختلاف بين هذا الرأي الأخير و النظريتين الأخيرتين للغة، كون اللغة عرفية يعني أنها مكتسبة، يكتسبها الإنسان بالتقليد و الخبرة و الدربة و الممارسة في المجتمع الذي يعيش فيه وفقا لما يجري فيه و تعارف عليه الناس. فاللغة بهذا المنظور ظاهرة اجتماعية، لا توجد و لا تعيش إلا في المجتمع أي مجتمع كان، بينه و بينها علاقة تأثير و تأثر، إنها ليست كالمشي أو التنفس، إذ أن عملية اكتساب اللغة شيء يختلف تمام عن ذلك، لاختلاف دور المجتمع و أهميته في العملين؛ فالطفل مهيأ بمفرده عن طر يق الاستعداد البيولوجي أن يقوم بكل ما يحتاج إليه من تعديل في جهازه العصبي و عضلاته التي من شأنها أن تقوده إلى المشي، و الحقيقة أن تكوين هذه العضلات و أجزاء الجهاز العصبي قد أعد أولا و قبل كل شيء وفقا لحركات المشي و ما أشبهه من أوجه النشاط الأخرى. و بمعنى أدق يمكن أن نقول إن الإنسان العادي مقدر له أن يمشي لأن تركيبه العضوي معدُ من وقت ولادته لأن يتقبل كل ما تهبه الطاقة العصبية و كل تكييف عضلي من شأنه أن يؤدي إلى المشي. و بعبارة أكثر اختصارا، المشي وظيفة وراثية بيولوجية للإنسان، أما اللغة فليست مثل المشي في ذلك.

فالإنسان مولود في أحضان مجتمع معين و من المؤكد أن يقوده إلى تقاليده، فرضا لو نقلنا طفلا من البيئة الاجتماعية التي ولد فيها ثم وضعناه في بيئة أجنبية عنه، فإنه في هذه البيئة الجديدة يكون كلامه فيها مختلفا عن كلام بيئته التي ولد فيها على خلاف

المشي فإنه يبقى كما لو كان في بيئته الأولى. فالكلام إذاً هو ظاهرة ثقافية اجتماعية مكتسبة لا سبيل إلى الوراثة فيه.

3. أما عبارة "بها يتعاون أعضاء المجموعة الاجتماعية المعينة و يتعاملون" فيرون بها أن اللغة بكل جوانبها كلٌّ متكامل يبلوره و يحقق وجود الأحداث المنطوقة، و من هنا فإن اللغة أداة للتواصل و التفاهم و التبليغ، بها يدبر الناس شؤونهم و ينجزون أعمالهم و بها يتعاونون و يتعاملون فيما بينهم.

هذه النظرة الاجتماعية إلى اللغة هي ما سارت و تسير عليه المدرسة اللغوية الاجتماعية و من أنصارها مدرسة "لندن" بريادة أستاذها "فيرث" و كثير من أتباعه المنتمين إلى هذه المدرسة و غيرها.

هذه الاتجاهات الثلاثة السابقة التي تبدو متعارضة ليست ضربا من العبث أو الخلط و سوء الفهم، إنها في الواقع رؤى مختلفة تعبر كل رؤية منها على وجهة نظر صاحبها إلى اللغة؛ فاللغة شبكة من النظم و الخواص المعقدة المتشابكة المتداخلة، فيها الجانب العقلي الكامن و الأداء المنطوق الفعلي، و فيها الجانب الاجتماعي و الثقافي و فيها خواص بيولوجية و عصبية...إلخ، إنها الإنسان نفسه بما ينتظمه من خواص و عوامل شتّى، لا يعرفها إلا مانحها و هو ا تعالى.

و للدكتور كمال بشر وجهة نظر أخرى في مناقشة قضية تحديد مفهوم اللغة محاولة منه للتعرف على واقع لغتنا القومية و الكشف عن الجوانب التي تنقصها من النظر و التحليل لإلقاء الضوء على الداء و من ثم محاولة وصف الدواء، إذ يقول: "فاللغة عندنا لها جانبان من الوجود، وجود بالقوة (potential) و وجود بالفعل (actual). و الثاني أسبق، حيث تبدأ الدائرة اللغوية بنطق الكلمات، و كل كلمة تنطق أو تسمع تترك مجموعة من الانطباعات في ذهن المتكلم أو السامع، انطباعات الأصوات و انطباعات حركات أعضاء النطق، كما تترك أيضا استعداداً معيناً لإعادة هذه الحركات و الإتيان بهذه الأصوات نفسها. هذه الانطباعات أو الفكر، تودع في الأذهان و من الممكن أن تصير حقيقة واقعية في الكلام بكل سهولة و طواعية[1].

و معنى هذا أن الصور النطقية و القواعد التركيبية المخزونة في الذهن تمثل جانب اللغة الموجود بالقوة، و أن الأحداث المنطوقة المسموعة تعني الجانب الموجود بالفعل.

---

[1] كمال بشر. اللغة بين الفهم و سوء الفهم. ص 93. دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع القاهرة 1999.

و من الواضح أنه لا وجود لأحد الجانبين دون الجانب الآخر، فالجانبان متعادلان في الأهمية و أحقية النظر فيهما بالدرس و التحليل.

و بداية يسلط الأستاذ النظر في اللغة باعتبار وجودها بالفعل (الأحداث اللغوية المنطوقة)، فهو المصدر أو المورد الذي يستمد منه الجانب الثاني أي الموجود بالفعـل (المخزونات العقلية) حقيقتَه. فالتعرف على الوجود بالفعل يقود حتما إلى التعرف على الموجود بالقوة. إذ الأول مرسل و الثاني مستقبل الذي من شأنه -بعد استقرار ما استقبل- أن يصير مرجعاً أو مصدرا لمادة الموجود بالفعل. و هكذا تتحقق الدائرة الطبيعية لعملية الكلام.

و هذا النظر في الموجود بالفعل يفرضه علينا واقع لغتنا العربية في وقتنا الحاضر إن أداءها بالفعل نطقا و كتابةً مشحون بالخلط و الاضطراب و البلبلة و منسوج من أشتات الكلام حتى أصبحت لغتنا عند السواد الأعظم منا مشوهة، مهددة بفقدان هويتها و ضياع خواصها الأصلية. و النظر في هذا الواقع، و محاولة الكشف عن عوامله و أسبابه ربما يقود إلى إصلاح ذات البين، و هذا الإصلاح للموجود بالفعل إصلاح للموجود بالقوة دون شك، و إصلاح الموجود بالقوة تفعيل لدوره في إصلاح الموجود بالفعل، فكيفما يؤد الكلام تكن حال المخزون في الذهن صحة و خطأ و غنى و فقراً...إلخ.

و يعود الأستاذ فيتصور رؤيته للحقيقة اللغوية و ما هبتها من حيث الطبع و الصنع و نصيبها من الجهتين حتى يصل إلى بيان واقع العربية و محاولة رد الأمور إلى نصابها من جانبيها الموجود بالقوة و الموجود بالفعل.

يرى أن هناك ثلاثة عناصر متتابعة "التهيؤ (أو الاستعداد)، "و المقدرة الدماغية على الإنتاج"، و هي ما يسميها العرب بالسليقة و أخيرا "عملية الإنتاج" نفسه، أي الإتيان بالأحداث الكلامية المنطوقة بالفعل، و هي -على ما يبدو- تقابل ما سماه دي سوسير بالكلام[1].

و بذلك يرى أن جانب الصنع أي صنع الإنسان للغته أوفى نصيبا و أوفر حظا من الطبع. و المقصود بالصنع هنا في اللغة الكلام و السماع (النطق الفعلي). و في تزويد المنح بالمادة أو البرامج التي تكون لديه المقدرة على الإنتاج. و من هنا يمكن تفسير

---

[1] المرجع نفسه. ص 16.

المقولة العربية الشهيرة، العربي يتكلم كلاماً صحيحاً فصيحاً بسليقته، فالسليقة هنا لا تعدو أن تكون المقدرة على الإتيان بهذا الكلام الذي هو في الأصل آتٍ و جارٍ وفق الرموز أو البرامج التي تعمل على تفعيل هذه المقدرة، و هذه الرموز أو البرامج هي الكلام الفعلي المنطوق و المسموع. و إذا كانت هذه الأخيرة صحيحة كان تفعيـ ـ ـ ل المقدرة صحيحاً أيضا.

فلننظر مثلا إلى كلامنا العادي اليومي؛ إننا نتكلم العامية بكل سهولة و طلاقة لا لأننا خلقنا بها، و إنما لأننا نتعامل بها ليل نهار، فاستقرت رموزها و برامجها في أمخاخنا و صرنا ننسج الكلام على منوالها.

و من هنا نرى أن اللغة أساسها الصنع و الاكتساب، و لذلك ينبغي تسليط الضوء على هذه العملية و العمل على كشف طبيعتها و العوامل المؤدية إلى تحقيقها على النحو المرغوب فيه.

فبكل تأكيد نريد صنع أو اكتساب لغة عربية صحيحة فصيحة أو شيئا قريبا من هذا باستعمال لسان عربي صحيح كتابةً و نطقاً. فما السبيل إلى هذا و ذلك؟ و كيف يتم لنا ذلك؟

تكتسب اللغة من البيئة التي يعيش فيها الفرد و يتعامل مع أهليها الناطقين بها، و يمكن الإشارة هنا بإيجاز إلى كيفية اكتساب الفرد للغته، مع الأخذ في الحسبان عملية اكتساب الطفل للغته بوصفه النموذج الحي الواقعي في هذه العملية بدايةً و نهايةً. فهو يمثل المسيرة الحقيقية لعملية الاكتساب هذه "إذ هو البادئ غفلا و المستمر نموا في الاكتساب اللغوي و المنتهى في آخر الشوط لمعرفة لغوية مطابقة في جملتها لما يجري حوله من خبرات و ممارسات في توظيف لغة الجماعة التي ينتمي إليها[1]. إن الطفل يسمع و يحاول أن يفهم، و بمرور الزمن يعمق فهمه للمسموع المتكرر المسوق على أنماط لغوية معينة، و يلاحظ و يحاول أن يدرك ثم يميز بين هذا المسموع، فيكتسب ما شاء له أن يكتسب منها وفقا لمراحل نموه اللغوي، إنه لا يتعلم كما يتعلم ذلك في المدرسة بمعنى أنه لا يلقن ليحفظ هذه المفردات و العبارات و الجمل، و إنما يسمعها مرارا و تكرارا حتى يحين الوقت الذي يسمح نموه الإدراكي للغة باكتسابها، و إذا به في فترة

---

[1] المرجع نفسه. ص 98.

ما يتعلمها بنفسه، بصورة أو بأخرى، فالطفل لا يعرف أن هذا اسم أو فعل أو هذه أداة نفي و أخرى أداة استفهام أو تعجب، و كذلك يجهل إعراب الأفعال و الأسماء.

و معنى ذلك أن الطفل يستخلص بنفسه حسب مراحل نموه الإدراكي ما يستطيع من قواعد اللغة و ظوابطها من النماذج التي يسمعها، و يحاول تطبيقها، و قد يعدلها إذا اكتشف خطأه في التطبيق، و هكذا يستمر على هذا النهج إلى أن يستوعب قواعد لغتـه ويسلم له تطبيقها بصورة أو بأخرى، حتى يطابق كلامه كلام بيئته في مجمله. يقوم الطفل بهذا الدور الفاعل، و يقع منه على كل المستويات اللغوية، صوتيا و صرفيا و نحويا و دلاليا، و إن كانت درجة الإدراك لما يسمع تختلف من حال إلى حال، و من فترة زمنية إلى أخرى حسب مراحل نموه، و نضج آلياته الفاعلة نطقا و أداء و فهما و استيعاباً. فعلى مستوى الأصوات يسمع الطفل أصوات اللغة تكراراً و مراراً، فتنطبع آثارها في ذهنه، و يحاول بنفسه أن يأتي على مثالها و قد يقع منه تجاوز في أداء بعض الأصوات لصعوبتها أو لالتباسها بغيرها، أو لقربها ببعضها من بعض في معظم الصفات كالنطق بالأصوات المفخمة (الضاد- الصاد- الظاء- الطاء) مرققة مع استبدالها بنظائرها (الدال- السين- الذال- التاء) و كذلك الحال بالنسبة لصوت القاف حيث يؤتى به كافا.

و على الرغم من مثل هذه التجاوزات في النطق فإن الأطفال في عمومهم يستخلصون بأنفسهم النظم و القواعد الصوتية بصورة متدرجة حسب مراحل نموهم في الإدراك و التمييز و الفهم. و كذلك الحال بالنسبة إلى قواعد النحو و الصرف؛ يستخلص الطفل قواعد هذين المستويين من النماذج التي يسمعها من بنىً صرفية و جمل و تراكيب و يأتي بكلامه على غرارها بالتدريج حتى تكتمل له المعرفة اللغوية بقواعد و ضوابط هذين المستويين. و قد يقع منه التجاوز و الخطأ في تطبيق بعض القواعد، و هذا أمر كثير الحدوث كأن يخلط مثلا في توظيف علامات التأنيث و التثنية و الجمع، و في استخدام أدوات النصب و الجزم للفعل المضارع. و هكذا الحال في مجال التراكيب.

و واضح أن الخلط في البنى الصوتية و الصرفية و التركيبية يؤدي حتما إلى الخطإ في معاني هذه البنى. هكذا يكتسب الطفل لغته باستخلاص قواعد هذه اللغة و أحكامها عن النماذج المسموعة من حوله و من بيئته الخاصة و العامة، و يأخذ بعد ذلك في مراحل التجريب فيصيب و يخطئ، ثم يحاول بالتدريج تصحيح أخطائه وفقا لظروفه و قدراته

و وفقا للجو الثقافي الذي يلفه. و هكذا يستمر الطفل في حياته في عملية الاكتساب و محاولة التجريب و التعديل لتجاوزاته إلى أن يصبح راشدا مسيطرا على لغته أو مستوعبا بجمله خواصِها و أحكامِها على المستويات اللغوية كافة. و معنى هذا كله أن الإنسان يكتسب لغته أو يصنعها بنفسه وفقا للمسموع في مجتمعه، فكيفما يسمع و يتكرر السماع تكن لغته، و تكن ترجمته لقواعدها و خصائصها في كلامه الفعلي المنطوق المسموع، فإن سمع -باطّراد و تكرار- كلاما عربيا كان إنتاجه عربيا، و إن كان المسموع المطرد إنجليزيا أو ألمانيا كان كلامه على وفق ما سمع و هكذا.

و يرى الدكتور كمال بشر أن هناك صوراً كثيرة بالإمكان تحقيق مستوى لغوي صحيح و سليم في ضوئها و أهمها ثلاث: المنزل، و دور التعليم و وسائل الإعلام.

أولا: المنزل:

يمثل المنزل بداية المسيرة في التربية و التنشئة، فكيفما يكن الجو الفكري و السلوك يكن مردوده على وفاقه. يتحقق هذا المردود بخيره و شره في الناشئة متمثلا بصورة أو بأخرى في ترجمة ما استخلصوه من قيم هذا الجو و مبادئه و أنماط سلوكه. و للوالدين في تربية صغارهم دور ذو خطر و بال، فهما الذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" كما ورد عن النبي صلى ا عليه و سلم. و هما اللذان يرسمان لهم الطريق بالقدوة و واقع المسؤولية نحو حياة طويلة عريضة. و للأم بالذات الدور الأكبر الأعمق و الأكثر تأثيرا؛ إنها تداعب صغيرها و تلاعبه، و تراقصه و تغني له و ترضعه من لسانها كما ترضعه من صدرها، فكيفما يأت منطوق هذا اللسان يكن استخلاص الصغير لظواهره العامة و قواعده و مقاييسه إيجاباً أو سلباً على قدر المنطوق. و توظيف العربية الفصيحة الصحيحة ليس بالأمر المستحيل، إنه ممكن بالتجريب و المحاولة، و بمرور الزمن يدرج اللسان في طريقه إلى التجويد و الصقل و التهذيب. فلو درجت الأم أو سار الآباء في عمومهم على هذا النهج لكان خيرا لهم و لأولادهم صغاراً و كباراً و للغتهم. "ما أجمل أن يشب الطفل و قد انتقل إلى بيئات أوسع و أرحب مستوعبا قدراً من لغة صحيحة مقبولة؛ قدراً يستطيع أن يوسعه و يعمقه و يصقله بالتفاعل و التبادل مع الأصحاب في ساحات الحياة التي تستقبله صبيا أو يافعا مسلحا بمقومات هذه الحياة و في مقدمها لغته القومية[1].

---

[1] المرجع السابق. ص 110.

"و ما أتعس أن يخرج خاوي الوفاض، أو محشوة حصيلته اللغوية بالتجاوزات و الأخطاء التي تخجله أو تنقص من قدره بين الرفاق. و ربما يرجع ذلك كله أو بعضه إلى السلوك اللغوي المضطرب في بيئته[1].

فالمنزل و ما في حكمه الأساس في القدوة اللغوية خيرها و شرها على أن يضطلـ ـع الوالدان و بخاصة الأم، بهذا الدور الحيوي في غرس السلوك اللغوي النظيف للابن ما من شأنه أن يجعله قادرا على التعبير عن حاجاته و أغراضه و مقاصده بشكل طبيعي في بيئته التي يعيش فيها.

ثانيا: دور التعليم:

ينتقل الطفل بعد ذلك إلى دور التعليم، و نحن نعلم ما لدور التعليم من أثر بليغ في صنع الرجال، فهي تستقبل الصغار في بداية الأمر و قد يكون لديهم محصول لغوي قوي صحيح مقبول، و ربما يكون هذا المحصول مغلوطا أو مخلوطا بلهجات و رطانات مختلفة في قليل أو كثير، فتعمل المدرسة على مواجهة هذا الاحتمال و ذلك بإشاعة جو لغوي متكامل من شأنه تقريب ألسن الصغار بعضها من بعض وصولا بالتدرج إلى لسان مشترك خال من الخواص الفئوية أو الطبقية قدر الإمكان، و بذلك نضمن تعميق الصحيح و تأكيده و تعديل الأخطاء و التجاوزات و التخلص من الرطانات المتنافرة. و بذلك أيضا نضمن للصغار شعورهم بالنتماء إلى قافلة واحدة، تنضم في مراحل التعليم المختلفة إلى قوافل أخرى مماثلة في هذا الشعور الذي يقود في النهاية إلى تعميق الانتماء إلى القوم أجمعين.

و لا يكون هذا و ذاك إلا بقدوة تعليمية مخلصة تسلك مسلكا لغويا سليماً مع اعتماد لغة عربية في صورتها السهلة الميسرة رعاية لقدرات الصغار و واقعهم اللغوي الذي وفدوا به. و هكذا يستمر الدعم اللغوي و التوجيه إلى اكتساب المزيد من ضوابط اللغة المأمول استيعاب جوانبها في نهاية مراحل التعليم.

ثالثا: وسائل الإعلام:

تعد وسائل الإعلام – المكتوبة و المسموعة – مدارس جماهيرية عامة، تقدم المعرفة و الثقافة و الخبرة للجميع الصغير و الكبير، المثقف و غير المثقف بصرف النظر عن

---

[1] المرجع نفسه. ص 110.

مشاربهم و انتماءاتهم الاجتماعية و المهنية و الحرفية، إنها ميسور تناولها، سهل الحوار معها، تصحب الإنسان أنى حلّ و ارتحل.

و وسائل الإعلام في جملتها لسان الأمة و منبر التواصل بين الجميع إنها بذلك آلة فاعلة في تشكيل الأفكار و رسم الاتجاهات و النزعات، و تقديم الخبرات و المعارف و الثقافات. فهي قدوة أو مثل يحتذى بخيره أو شره، لأن كلمتها صادرة عن مواقع المسؤولية التي من شأنها أن تقود إلى مواطن الخير و ساحات الأمن و الاستقرار في ظل الائتلاف لا الاختلاف، و التقارب لا التباعد و التواد لا التباغض داخل المقومات الأساسية للأمة. "و حتما إذاً أن تكون كلمة هذه الوسائل جميعا كلمة منتظمة لكل معاني المواطنة و الالتفاف حول عَلَم واحد. و قوام المواطنة الأول هو اللغة القومية التي من شأنها أن تعبر عن القوم كافة و أن تمدهم بعوامل القوة و الوحدة في الآلام و الآمال[1]

و الواقع أننا نرى كثيرا من الجهات تجعل من هذه الوسائل الحيوية منابر لها في بعث سموم الحقد و الكراهية و غرس أشواك الشحناء و البغضاء في أوساط الجماهير العريضة من شعوب أمتنا. أضف إلى ذلك تدني مستوى الكتابة شكلا و مضمونا فيما يعرض من المواضيع في أركان مختلفة من المجلات و الصحف.

أما ما يعرض على مستوى الإذاعة و التلفزيون فهو أدنى من صاحبه المكتوب سوى ما تعلق ببعض البرامج الثقافية و السياسية و الأدبية التي تحاول أن تقدم بعض الجوانب المثيرة و الجديرة بسماعها و العاملة على تثقيف متتبعيها و صقل مواهبهم و تهذيب نفوسهم؛ سيما التي تكون على جانب من الحس اللغوي الرفيع الذي يأخذ بالألباب و يسحر العقول.

إنه لحري بنا في هذا المقام أن نراجع نفوسنا مراجعة جذرية أصيلة إن نحن أردنا أن نؤتى ثماراً طيبةً يانعة كلّ حين و ذلك باعتماد نماذج حية على مستوى دور التعليم على اختلاف مستوياته و مراحله بدءاً بالتعليم الابتدائي و انتهاء عند التعليم الجامعي حيث توكل مهمة التدريس لخيرة الرجال بعد انتقائهم على أساس جملة من المقاييس العلمية و الموضوعية دون أي اعتبار آخر، فعلى قدر الأصول تأتي الفروع.

---

[1] المرجع السابق. ص 112

و كذلك الشأن بالنسبة إلى دور الصحافة و الإعلام التي لها سلطان كبير في توجيه الرأي العام إيجاباً أو سلباً، إذ بات الأمر أكيداً أن نختار الأقلام النيرة و الأصوات المعبرة ما من شأنها أن تؤدي مهامها النبيلة في أحسن صورة و على أكمل وجه.

إن عودة أمجاد لغتنا العربية، و قوتها و حيويتها مرهون بالقدوة الصالحة في التوظيف اللغوي و محاربة المشكلات التي تقف في طريق ازدهارها و انتشارها في الزمان و المكان، و بذلك نظفر بجو صحيح يضمن للعربية انطلاقة مشهودة و تحط بأصابعها على كل العلوم و المعارف كما كانت في عهدها الذهبي قديماً. و بهذا تزول تلك النغمة الواهية التي تدعي جمود العربية و عدم قدرتها على الوفاء بحاجات الناس الفكريـ ـة و العلمية في عصرنا الحديث حيث اخطبوط العولمة أتى على كل شيء و لا مجال للضعفاء و المتقاعسين فيه.

الفصـل الثامـ ـ ـن

القيـ ـاس اللغـ ـوي

- تعريف القياس
- الحاجة إلى القياس
- أصول القياس في النحو اللغوي
- أركان القياس
- القياس بين مدرسين البصرة و الكوفة
- القياس و الاستعمال

1- تعريف القياس:

القياس في اللغة: هو من قولهم: "قاس الشيء، يقيسه قيسا، إذا قدره على مثاله"1. و قست الشيء بغيره أو على غيره، أقيسه قيسا و قَيسا فانقاس: إذا قدرته على مثاله. و المقدار المقياس. و قايست بين الأمرين مقايسةً و قياسا، و هو يقتاس: أي يقسيه به. جاء في التعريفات: "يقال: قست النعل بالنعل إذا قدرته و سويته، و هو عبارة عن رد الشيء إلى نظيره"2.

القياس اصطلاحا: و هو رد الشيء إلى نظيره، أو "هو حمل غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه"3. أو "هو حمل الشيء على الشيء في بعض أحكامه لوجه من الشبه، و قيل: عمل الشيء على الشيء و إجراء حكمه عليه لشبه بينهما عند الحامل. و الفقهاء يقولون: هو حمل الفرع على الأصل لعلة الحكم"4.

و القياس في المنطق، هو كما يراه أرسطو: الاستدلال الذي إذا سلمنا فيه بعض الأشياء لزم عنه بالضرورة شيء آخر"5.

بيد أن القياس تقاسمه الفقهاء و الأصوليون و المناطقة، و ما نقصده هو القياس اللغوي.

2- الحاجة إلى القياس:

القياس وسيلة يجنح إليها المتكلم لمجاراة العرب في كلامهم، و حمل كلامنا على كلامهم، و محاكاتهم في طرائقهم التعبيرية، و النسج على منوالهم، لأن ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب. "ألا ترى أنك لم تسمع أنت و لا غيرك اسم كل فاعل، و لا مفعول و إنما سمعت بعضه فقست عليه غيره"6.

"و فائدة القياس إذاً أنه يغني المتكلم عن سماع كل ما أثر عن العرب، إذ حسبه أن يصوغ المضارع أو المصدر أو اسم الفاعل على نظائرها مما نطقه العرب واطّرد في كلامهم، لأنه لو كان في حاجة إلى سماع كل ذلك و إلا لما كانت للحدود و القوانين التي وضعها المتقدمون و تقبلوها و عمل بها المتأخرون معنى يفاد. و لكان القـوم قد

1- لسان العرب: لا شيء منظور، قيس.

2- الجرماني الشريف علي بن محمد. التعريفات ص 181. دار الكتب العلمية بيروت، لبنان 1416ه/1995م.

3- محمد عيد، أصول النحو العربي ص 71.

4- أبو هلال العسكري، الفروق في اللغة، تحقيق دار الآفاق الجديدة. ص 69.

5- محمد عيد، أصول النحو الغوي ص 75.

6- الخصائص. ابن جنّي: ج1. ص 357.

"جاؤوا لجميع المواضي، و اللمضارعات، و أسماء الفاعلين و المفعولين...و لما أقنعهم أن يقولوا: إذا كان الماضي كذا وجب أن يكون مضارعه كذا، و إذا كان المكبر كذا فتصغيره كذا..."1.

فالقياس طريق يسهل به القيام على اللغة، ووسيلة تمكن الإنسان من النطق بآلاف من الكلام و الجمل دون أن تكون قد قرعت سمعه قبل، أو يحتاج في الوثوق من صحة عربيتها إلى مطالعة كتب اللغة أو الدواوين الجامعة لمنثور العرب و منظومها.

و لقد أصبحنا في عصرنا الحاضر أشد ما نكون حاجة إلى القياس لأغراض ثقافية و حضارية و علمية يطول شرحها. يقول سعيد الأفغاني: "فلما كانت سيل حاجات الحياة من الحضارة الغربية وجد القوم أنفسهم إزاء مستحدثات لا قبل لهم بها...كثرت الصحف و المجلات و المؤلفات و احتاجوا إلى فيض من المصطلحات يعبرون بها...إلى أن قبض ا فريقا ترفع عن ابتذال الدهماء في الأسواق، و حرض على التراث العربي الكريم، فشمر عن ساعد الجد يتحرى لهذه المستحدثات مصطلحات عربية، فإن لم يجد أحدث لها عن طريق الاشتقاق و المجاز"2، (و الاشتقاق ما هو إلاّ استخراج لفظ أو صيغة من صيغة على أساس قياس، فالصلة بين الاشتقاق و القياس قوية). فإذا قال الأقدمون: هندس، خندق، قرطس، قاس المعاصرون على ذلك و قالوا: كهرب، و أكسد، و دبلج...إلخ.

و لا شك أن القياس يفتح الباب واسعا أمام اللغة في استيعاب معاني التعامل مع الأدوات الحضارية الحديثة التي تدخل في حياة الإنسان بالعشرات و المئات كل يوم.

و من البين جليا أن المعاني تبلغ في الكثرة أن تضيق عليها دائرة الحصر، و تنتهي دونها أرقام الحاسبين، فلم يكن من حكمة الواضع سوى أن وضع لجانب كبير من المعاني ألفاظا عينها كالسماء و المطر و النبات و العلم و العقل، و توسل للدلالة على بقيتها بمقاييس قدرها، و الكلم التي تصاغ على مثال هذه المقاييس معدودة في جملة ما هو عربي فصيح. و لولا هذه المقاييس لضاقت اللغة على الناطق بها، فيقع في نقيصة العي و الفهاهة، و يكثر من الإشارات التي تخرج به عن حسن السمت و الرزانة و يرتكب التشابيه محاولا بها إفادة أصل المعنى لا كما يستعملها اليوم حليـة

2- الخصائص. ج2. ص 40-41.

3- سعيد الأفغاني في أصول النحو. ص 118. ط3. دار الفكر. دمشق 1964.

للمنطق و مظهرا من مظاهر البلاغة.

"ولو صح أن يضع الواضع لكل معنى لفظاً يختص به، لكان الحرج الذي تقع فيه اللغة أن تضيق المجلّدات الضخمة عن تدوينها و يتعذر على البشر حفظ ما يكفي للمحاورات على اختلاف فنونها، و تباين وجوهها"1.

فالقياس إذًا سبيل إلى معرفة الجديد أللامتناهي اعتماداً على ضوابط و سنن معلومة معدودة تعبيراً عن حاجات و مآرب الإنسان التي لا تعد و لا تحصى.

3- أصول القياس في النحو العربي:

يكاد ظهور القياس في النحو يقترن باسم عبد ا بن أبي إسحاق الخضرمي المتوفى (117هـ) و ذلك فيما أورده ابن سلام الجمحي في كلمته الشهيرة واصفا إياه بأنه "أول من بعج النحو و مد القياس و شرح العلل"2. و قد ذكر ابن سلام أيضا، في معرض الموازنة بين ابن أبي إسحاق هذا و أبي عمرو بن العلاء: "أن ابن أبي إسحاق كان أشّد تجريدا للقياس، و كان أبو عمرو أوسع علما بكلام العرب و لغاتها و غريبها"3. كما روى صاحب طبقات فحول الشعراء، قال: قلت ليونس هل سمعت من أبي إسحاق شيئا؟ قال: نعم، فقلت له هل يقول أحد الصويق يعني السويق؟ قال: نعم، عمرو بن نغيم تقولها و ما تريد إلى هذا؟ عليك بباب من النحو يطّرد و ينقاس.4.

واضح مما ساقه محمد بن سلام الجمحي من روايات في شأن ابن أبي إسحاق الخضرمي أنه أقدم من يحكى عنه بعض الأحكام النحوية من الموصوفين بهذا العلم و يظهر أن من تقدمه إلى التفكير في أمور النحو من لدن أبي الأسود الدؤلي الذي تجعله أكثر الروايات العربية الرائد الأول لهذا العلم، و حتى أيام ابن أبي إسحاق ظلوا يتخبطون على غير هدى إلى أن كان هذا الأخير أول من سن الطريق للنحويين حتى ينهجوها في تناول مسائل هذا العلم.

و ذلك بأن فرق ما بين الظواهر اللغوية التي تخضع لقانون جامع، و هو ما كان يعنيه بالقياس، و بين ما لا يخضع للقانون و يكون مرده لأمر السماع.

1- محمد الخضر حسين الجزائري: القياس في اللغة العربية. ص 27. المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائري 1986.

2- طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي. ص 14. تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر. دار المعارف للطباعة و النشر. سلسلة ذخائر العرب (7) 1952م.

3- المرجع نفسه. ص 14.

4- طبقات النحويين و اللغويين ص 26. الزبيدي. تحقيق أبو الفضل إبراهيم. ط 1، القاهرة 1954.

و ما ذكره ابن سلام الجمحي من نصوص قد تكون أقدم ما ورد فيها ذكر القياس فماذا يعني بقوله: "أول من بعج النحو و مد القياس و شرح العلل" و قوله: إنه كان أشد تجريدا للقياس من أبي عمرو" و قوله: "عليك بباب من النحو يطّرد و ينقاس"؟

إن هذه الروايات تبين أن النحو قبل ابن أبي إسحاق كأنه كان مستغلقا على من تقدمه فلا يقعون فيه إلا على ظواهر لا ينفذون منها إلى حقائقه، إلى أن جاء هو فنفذ إلى ما وراء هذه الظواهر بفطنه و ذكائه. في حين كان أبو عمرو أوسع علما و معرفة بدقائق كلام العرب منه، فمفهوم القياس عنده إذاً إنما هو القانون المطّرد.

و يمكن القول إن ابن أبي إسحاق كان أول من اهتدى إلى النهج الذي ينبغي نهجه في تحقيق مسائل النحو، فكان رائدهم إلى هذا السبيل. و ما إن كان له ذلك حتى أخذ هذا العلم ينمو نموا سريعا على أيدي من أتوا بعده و غدا القياس -منذ ذلك العصر- غاية من الغايات التي ينشدها علم اللغة. فالقياس في هذه المرحلة يعنون به جملة ما يستظهرونه من التأمل في واقع الكلام من أحكام و أوضاع كما يطلقونه أيضا على أسلوب النظر في الكلام لاستخراج هذه الأحكام و الأوضاع و نظمها في قوانين و ضوابط خاصة تضبطها، و معنى ذلك أن القياس في نظرهم إنما هو تحويل المعرفة التي مردها إلى الخبرة و الطبيعة إلى معرفة صناعة علمية تقوم على أصول التفكير العلمي و هذا ما يفيده خبر مؤرج السَدوسي: أنه قدم من البادية و لا معرفة له بالقياس في العربية، و إنما كانت معرفته بها قريحة، و كان كما يقول هو نفسه أول ما تعلم القياس في حلقة أبي زيد الأنصاري بالبصرة"1.

4- أركان القياس:

جاء في الاقتراح للسيوطي نقلا عن لمع الأدلة لابن الأنباري أن أركان القياس هي:

1- أصل: و هو المقيس عليه.

2- فرع: و هو المقيس.

3- و حكم.

4- و علة جامعة.

قال ابن الأنباري: "و ذلك مثل أن تركب قياسا في الدلالة على رفع ما لم يسم فاعله فتقول: اسم أسند إليه الفعل مقدما عليه، فوجب أن يكون مرفوعا قياسا على الفاعـ ـ ل

1- إنباء الرواة. للقفطي. 328/3. تحقيق أبي الفضل إبراهيم. طبعة دار الكتب المصرية.

"فالأصل هو الفاعل، و الفرع هو ما لم يسم فاعله، و الحكم هو الرفع، و العلة الجامعة هي الإسناد"1.

أولا: المقيس عليه: و هو المسموع من كلام العرب. و قد قسمه ابن جني إلى أربعة أقسام:

1. مطّرد في القياس و الاستعمال جميعا؛ مثل رفع الفاعل و نصب المفعول و جر المجرور في قولنا: قام زيد، و ضربت عمرا، و مررت بسعيد.

2. مطّرد في القياس شاذ في الاستعمال: و ذلك في نحو الماضي من يذر و يدع.

3. مطّرد في الاستعمال شاذ في القياس: نحو: استصوبت الشيء فلا يقال: استصبت الشيء و هو القياس، و هكذا مع استحوذ، استنوق. أما رأي ابن جني في هذا النوع من القياس فهو: إتباع السماع الوارد فيه نفسه، و لكنه لا يتخذ أصلا يقاس عليه غيره، ألا ترى أنك إذا سمعت: استحوذ، و استصوب، أديتهما بحالهما و لم تتجاوز ما ورد به السمع فيهما إلى غيرهما، ألا تراك لا تقول في استقام: استقوم، و لا في استساغ استسوغ، و لا في أعاد أعود"2.

4. شاذ في القياس و الاستعمال جميعا:

و هو فيما مثل ابن جني في نحو ثوب مَصووفٌ، و مسك مَدووفٌ، و هي أمثلة لا يسوغ القياس عليها، و لا يحسن مجاراتها. "و لا يحسن أيضا استعماله فيما استعملته إلا على درجة الحكاية."3.

ثانيا المقيس: و هو الركن الثاني في القياس، و تبدو أهميته من حيث إن "ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب"، قال أبو علي الفارسي: إذا قلت "طاب الخشكنان" فهذا من كلام العرب، لأنك بإعرابك إياه قد أدخلته كلام العرب و إن كان أعجميا. و ها هو ابن جني يقول: اللّغات على اختلافها كلها حجة، و الناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ.

ثالثا: الحكم: يتفق النحاة على جواز القياس على حكم ثبت عند العرب، إلا أنهم يختلفون في أمر و هو هل يثبت الحكم بالنص أم بالعلة؟ فذهب أكثرهم إلى أنه يثبت بالعلة لا بالنص، إذ لو كان الحكم ثابتا بالنص لأدى ذلك إلى إبطال الإلحاق، و سد باب

1- السيوطي. الاقتراح في علم أصول النحو. ص 96. تحقيق د. أحمد محمد قاسم. ط القاهرة 1976.

2- ابن جني. الخصائص 99/1. د. عبد الفتاح الدجني. ط1 1974. الكويت.

3- المرجع السابق. ج 98/1 – 99.

القياس، إذ "القياس حمل فرع على أصل بعلّة جامعة بينهما، و إذا فقدت العلة الجامعة بطل القياس، و كان الفرع مقيسا من غير أصل و ذلك محال"1.

"و مثال ذلك أن اسم الفاعل محمول على الفعل في العمل و لذلك كان أضعف منه فإذا حمل الفعل الضمير في مثل قولك: زيد أخواك زارهما، لم يستطع اسم الفاعل السببي تحمل الضمير، و لذلك وجب إظهاره فتقول: زيد أخواك زائر إياهما هو: و لا يجوز استستاره لقصور اسم الفاعل في العمل عن الفعل"2.

رابعا العلة: و هي الركن الرابع في القياس، و قد نالت في الدروس و البحوث المستفيضة حدا بلغت به شأن بقية أركان القياس.

1- فاعتلالات النحويين صنفان: علة تطرد على كلام العرب و تنساق إلى قانون لغتهم، و علة تظهر حكمتهم و تكشف عن صحة أغراضهم و مقاصدهم في موضوعاتهم.

فالأولى أكثر استعمالا و أشد تداولا و هي واسعة الشعب عدها السيوطي 24 منها.

- علة سماع: يقال امرأة ثدياء و لا يقال رجل أثدى لعدم السماع.

- علة تشبيه: كإعراب المضارع لمشابهته الاسم، و بناء بعض الأسماء لمشابهتها الحروف.

- علة استثقال: كاستثقالهم الواو في يَعِد.

- علة فرق: فيما ذهبوا إليه من رفع الفاعل و نصب المفعول.

- علة نظير: مثل كسرهم أحد الساكنين إذا التقيا في الجزم حملاً على الجر إذ هو نظيره.

- علة حمل على المعنى: "فمن جاءه موعظة من ربه"3. ُذكِّرَ الفعل مراعاة لمعنى الموعظة.

- علة مشاكلة: في قوله: (سلاسلاً و أغْلالاً)4، في تنوين سلاسل...إلخ العلل.

2- يجوز التعليل بعلتين، كقولك: (هؤلاء مسلِمي) فإن الأصل مسلِمويَ، قلبت الواو ياء لأمرين كل منهما موجب للقلب، اجتماع الواو و الياء و سبق إحداهما بسكون، و الثانية

1- الاقتراح. السيوطي. ص 110. تحقيق د. أحمد محمد قاسم القاهرة 1975.

2- ابن جني. الخصائص. ج1 . ص 186.

1- سورة البقرة. 275/2.

2- سورة الدهر. 4/76.

أن ياء المتكلم توجب كسر ما قبلها فوجب قلب الوا ياء و إدغامها.

3- يجوز التعليل بالأمور العدمية كتعليل بعضهم بناء الضمير باستغنائه عن الإعراب و باختلاف صيغه لحصول الامتياز بذلك؛ أنت ترى أن بعض العلل النحوية حسية مقبولة، و بعضها فرضية لكن قسما ثالثا من العلل و هو العلل الخيالية، و مثلوا لها ب(هل) "فإن الأصل فيها دخولها على الفعل، و قد تخرج عن الأصل فتدخل على اسم خبره اسم، و لا تدخل على اسم خبره فعل مثل (هل عمرو كتب؟) و عللوا ذلك بأن (هل) إذا لم تر الفعل في خبرها تسلت عنه ذاهلة، و إن رأته في خبرها حنت إليه لسابق الألفة فلم ترض حينئذ إلا بمعانقته"1.

و لا شك أن القوم بالغوا في التزام القياس و تطويع اللغة له حتى خرج بعضهم على طبيعة الأشياء و كادوا ينسون أن القياس مستنبط من اللغة و أن اللغات لا تبنى على قياس مخترع، و الاعتدال هو الصواب في كل الأمور.

5- القياس بين مدرستي البصرة و الكوفة:

لجأ النحاة إلى القياس منذ أن وضعوا أسس علم النحو و بدأ التأليف فيه، فالقياس دعامة كبرى لا يستقيم النحو بدونها. يقول ابن الأنباري: "اعلم أن إنكار القياس في النحو لا يتحقق، لأن النحو كله قياس، و لهذا قيل في حده: النحو علم بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب، فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو، ومادته لغة العرب و كلامها"2. و ابن أبي إسحاق الخضرمي حين يقيم اطّراد النحو على القياس يكون قد رسم حدودا واضحة لمسار النحو لا يتعداها و لا يتجاوزها.

على أن القياس في بداية نشأة النحو لم يكن له من الشأن ما كان له في عصر الصراع العلمي بين مدرستي البصرة و الكوفة، حين اختلف في أمره، و اقتصر البصريون على جواز القياس على المشهور الشائع من كلام العرب، و أبوا القياس على القليل النادر. في حين نجد الكوفيين يجيزون القياس حتى على الشاهد الواحد أو الشاهدين. و لعل مرد الأمر كله إلى ناحيتين إثنتين هما السماع و القياس.

أمر السماع:

معلوم أن البصرة تقع على طرف البادية، و أكثر عربها من قيس و تميم المشهود لهم

1- محمد الخضر حسين. القياس في اللغة العربية. ص 76. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1986.

2- لمع الأدلة. ص 95. تحقيق سعيد الأفغاني. مطبعة الجامعة السورية 1957.

بفصاحتهم، و تحف بها قبائل عربية سليمة السليقة لعدم مخالطتها الأعاجم، و كانت فيها سوق المربد، ففيها تناشد و تفاخر، كما أن فيها منافع كثيرة من تجارة و بيع مما كان له الأثر في فصاحة أهل البصرة و سلامة لغتهم، ثم كانت هناك رحلات متبادلة فعلماء البصرة في ترحال دائم إلى بوادي الجزيرة يتلقون عن أعرابها فصيح لغتهم و بليغ قولهم. و الأعراب كذلك كانوا دائمي الورود إلى البصرة التي فيها شؤونهم و معاشهم، فقد ضرب في بوادي الجزيرة العربية الأصمعي و أبو عبيدة و يونس و أبو زيد و الخليل و غيرهم، ثم كانوا يتحرون في الأخذ؛ أما العربي فيتحرون فيه سلامة لغته و سليقته. أما الراوي فالصدق و الضبط، ثم كانوا لا يعتدون بالشاهد الواحد إذا لم يعرف قائله أو لم يَروه عربي يوثَق بلغته. و من هنا كانت البصرة تعج بفصحاء الأعراب و مفاخرهم.

أما الكوفة فهي أدخل في العراق و أقرب إلى الإختلاط بالأعاجم و لغة أعرابها تفتقر إلى سلامة لغة أعراب البصرة، فأكثرهم يمن و بها قليل من قبائل أخرى، فهم على اختلاط بالفرس و أهل الحبشة، ثم بين الكوفة و جزيرة العرب صحراء السماوة الشاسعة فلذا لم تكن هناك رحلات من علمائها صوب الجزيرة كرحلات علماء الجزيرة. و كانت فيها سوق و هي سوق كناسة لكن لم يكن لها ذلك الشأن الذي كان لسوق مربد، و قد كان يؤمها الأعراب غير سليمي السلائق، و هي إلى أن تكون داعية إلى إفساد اللّغة أقرب منها إلى أن تكون عاملا على صيانتها. و كان من ذلك أن صرف الكوفيين إلى رواية الشعر. و أما من جهة صدق الراوي و ضبطه فلم يعنوا بها. و لذا كثر الموضوع المصنوع في أكثر رواياتهم؛ قال أبو الطيب اللغوي: "الشعر بالكوفة أكثر و أجمع منه بالبصرة، و لكن أكثره مصنوع و منسوب إلى من لم يقله و ذلك بين في دواوينهم"1. و من ذلك ما جاء على لسان راويتهم الكبير خلف الأحمر حين قال: "أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر فبخلوا علي به، فكنت أعطيهم المنحول و أخذ الصحيح، ثم مرضت فقلت لهم: " ويلكم أنا تائب إلى اللّه تعالى، هذا الشعر لي فلم يقبلوا مني و بقي منسوبا إلى العرب لهذا السبب"2.

أما راويتهم الأكبر "حماد" فيعد أكبرهم شهرة في كذبه و وضعه، و لا ننسى استشهاده

1- عن مراتب النحويين. ص 74. لأبي الطيب اللغوي. مطبعة نهضة مصر بالفجالة 1375هـ.

2- وفيات الأعيان لابن خلكان. 393/1. مكتبة النهضة بالقاهرة 1948م.

"باللحن أيضا حتى امتنع الكميت الشاعر عن إملاء شعره عليه و قد طلب منه ذلك و قال له:"أنت لحان و لا أكتبك شعري"1.

و قد عجب يونس و كيف يأخذ الناس عن حماد و هو يلحن ويكسر الشعر و يكذب و يصحف2. و لا تنسى أنه ديلمي من السبي. ولذلك كان من الطبيعي إذا أن يطرح الثقات روايات أهل الكوفة و قد ملأها حماد و خلف و غيرهما بالمصنوع، و صار ذلك مما يميز مدرسة الكوفة من مدرسة البصرة.

حتى الكسائي الذي قرأ على الخليل و يونس و عيسى بن عمر، و رأى تحريهم فيما ينقلون و فيمن يشافهون، زايل التحري حين انتقل إلى بغداد و كان أمره كما قال أبو زيد الأنصاري "قدم علينا الكسائي البصرة فلقي عيسى و الخليل و غيرهما، و أخذ منهم نحوا كثيرا، ثم صار إلى بغداد فلقي أعراب الحطمية فأخذ عنهم الفساد من الخطإ و اللّحن، فأفسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة كلّه"3. و ها هو ذا حكم الخطيب البغدادي على المدرسة الكوفية و مدرسة البصرة في الحديث إذ قال: "و لأهل البصرة من السنن الثابتة بالأسانيد الواضحة ما ليس لغيرهم مع إكثارهم. و الكوفيون مثلهم في الكثرة غير أن رواياتهم كثيرة الدغل قليلة السلامة من العلل"4. هذا فرق ما بين المدرستين البصرة و الكوفة في أمر السماع و صحته و التحري فيه.

أمر القياس: رسم البصريون خطتهم في النحو بعد أن جعلوا نصب أعينهم الهدف الذي يرمون إليه و هو عصمة اللّسان من الخطإ و الزلل، و تيسير العربية على من يتعلمها من الأعاجم. و لذا تحروا ما نقلوا عن العرب ثم استقروا أحواله فوضعوا قواعدهم على الأعم الأغلب من هذه الأحوال، فإن تناثر هنا و هناك نصوص قليلة -لا تشملها قواعدهم- سلكوا بها بعد التحري من صحة نقلها عن العرب المحتج بكلامهم، فإما أن يتأولوها حتى تنطبق على قواعدهم، و إما أن يهملوا أمرها لقلتها فيحفظوها و لا يقيسون عليها جاعلين إياها من باب المطرد في السماع و الشاذ في القياس.

فهم حين كانوا يختارون بين اللّغتين أشيعهما و أقربهما إلى القياس إنما قاموا بخير ما يمكن أ ن يقوم به من يريد حفظ اللّغة و صيانتها. أما الكوفيون فلم تكن لهم أصول

---

1 – الموشح للمرزباني. ص 195. المطبعة السلفية بالقاهرة 1343 هـ.

2 - مراتب النحويين – ص 73.

3-إرشاد الأريب لمعرفة الأديب(المعروف بمعجم الأدباء) لياقوت الحموي. مطبوعات دار المأمون بمصر 1355ه.

4 - جمال الدين القاسمي. قواعد التحديث ص 58. مطبعة ابن زيدون دمشق 1353هـ.

يبنون عليها غير ما أخذوه عن أساتذتهم البصريين و لم يحسنوه، ثم جعلوا من عدم المنهج منهجا خاصا بهم، فسمعوا الشاذّ و اللّحن و الخطأ، و أخذوا عمن فسدت لغته من الأعراب و أهل الحضر، فلما اقتضتهم المنافسة أن يكون لهم قياس كما لأساتذتهم البصريين بنوه على ما عندهم مما يتنزه عن رواية البصري ثم جعلوا كل شاذ و نادر قاعدة لنفسه، فانتشرت عليهم قواعدهم و لم يعدلها ما يمسكها من نظام أو منطق. و ضاعت الغاية من وضع النحو فلم يعد في أيديهم أداة تيسير لتعلم العربية بعد أن أصبحت له قواعد بعدد ما جمعوا من شواهد. و غلب الانحراف على الكوفيين حتى قال الأندلسي شارح المفصل "الكوفيون لو سمعوا بيتا واحدا فيه جواز شيئ مخالف للأصول جعلوه أصلا و بوبوا عليه"1.

اتجه بعض الباحثين المحدثين إلى اعتبار المذهب الكوفي مذهب سماع على حين اعتبروا المذهب البصري مذهب قياس؛ فذهب أحمد أمين إلى أنهم "يحترمون كل ما جاء عن العرب و يجيزون للناس أن يستعملوا استعمالهم"2. و بالغ طه الراوي فقال: "أما مذهب الكوفيين فلواؤه بيد السماع، لا يخفر له ذمة و لا ينقض له عهدا، و يهون على الكوفي نقض أصل من أصوله أو نسف قاعدة من قواعده، و لا يهون عليه اطّراح المسموع على الأكثر"3.

فصحيح أن الفريقين كانا يقيسان، و ربما كان الكوفيون أكثر بالنظر إلى الكم، فهم يقيسون على القليل و الكثير و النادر و الشاذ، أما البصريون فهم أقيس بالنظر إلى الكيف، فهم لا يقيسون إلاّ على الأعم الأغلب، و لهم في القياس أصول عامة يراعونها لذلك كتب لعملهم بالبقاء إذ كان الأنسب و الأضبط، فكان نحو الناس في أغلبه بصريا إلى اليوم. أما السماع فهل كان الكوفيون يحترمونه حقّا كما قال أحمد أمين؟ فمن إحترام السماع صيانته و حفظه من كل موضوع، و من احترامه كذلك تحري حال المسموع منه و من الاحترام ألا نساوي بين القليل و النادر و الأكثر الشائع.

الحق أن البصريين عنوا بالسماع فحرروه و ضبطوه و احترموه على حين زيفه الكوفيون و بلبلوه. و كذلك الأمر بالنسبة إلى القياس.

---

1 – السيوطي. الاقتراح.ص 100. مطبعة دار العارف بحيدر آباد 1310 هـ.

2 – أحمد أمين. ضحى الإسلام . ج295/2. لجنة التأليف و الترجمة و النشر 1938 م.

3 – مجلة المجمع العلمي العربي. نظرة في النحو. 319/14 مطبعة الترقي دمشق.

و بعد فهذه أحكام تقريبية لا مطردة إذ أن في المذهب الكوفي مسائل جيدة ترقى على مثيلاتها في المذهب البصري كإعمالهم مثلا اسم المصدر عمل المصدر، و ما اتجهوا إليه في إعراب نعم و بئس، و ذهاب بعضهم في مسألة (أشياء) و أنها جمع لشيئ منعت من الصرف لشبه أَلِفها بألف التأنيث. و لهم أشباه هذه المسائل فيما ضبطه ابن الأنباري في كتابه "الإنصاف في مسائل الخلاف".

6- القياس و الاستعمال:

و القياس كما أسلفنا، أن نجعل كلامنا على منوال ما تكلم به العرب و يعرفه محمد الخضر حسين قائلا إنه: "طريق يسهل على المتكلم النطق بجمل دون أن يكون قد سمعها قبل، و به يتوثق من صحتها في الكتب"1. و أن القياس قام على السماع فهو الأصل الأول للاستدلال النحوي و الأساس الذي بنيت عليه القواعد النحوية. و السماع هو الكلام العربي الفصيح، المنقول بالنقل الصحيح المروي عن كثرة العرب الذين يوثق في لغتهم، كما كان يقول سيبويه: و هذا قول العرب، و قول الخليل، و كذلك وجدنا العرب تقول، و قال الثقة، و قال الأعرابي، و قال الشيخ.....الخ.

و إن القياس لا يستطيع أن يحيط بكل اللّغة، و ابن جني يقول: "و إذا تعارض القياس و السماع، فالسماع ألزم. و في موضوع آخر يقول:"....و معاذ اللّه أن ندعي أن جميع اللّغة تدرك بالأدلة قياسا"2. و هذا يأتي تأييدا لقول الفقهاء: إن كلام العرب لا يحيط به إلاّ نبي. جاء تفكير النحاة في القياس بعد التغييرات الجديدة في حياة العربي الذي تلاحقت عليه الكلمات الجديدة، و من هنا فكر النحاة في وضع مقاييس لما يسمع حديثا و ما لم يسمع لانعدام النقل فيها، و هذا تلبية للحاجات الجديدة، أي قياس ما لم يرد على ما ورد. و هكذا جاء القياس لتجسيد كلام لم يقل على كلام قد قيل، و الاستعمال تجسيد للقياس في صورته الخاضعة للنمط القياسي لا غير. فمتى كان الاستعمال خاضعا للقياس يكون قد جسده بناء على قاعدة قياسية ما، و متى كان الاستعمال مخالفا، يكون القياس متعارضا مع الاستعمال، و مستوى الصواب فيه هي الجماعة اللاغية، و التي لا يمكن أن تتصرف في اللّغة إلاّ على أساس المقاييس الاجتماعية في البيئة اللّغويـة.

1- محمد الخضر حسين الجزائري. القياس في اللّغة العربية ص.28. المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائري 1986.

2- أبو الفتح عثمان بن جني. الخصائص. ص42. تحقيق محمد علي النجار. دار الهدى للطباعة و النشر. بيروت.

و هذا لب المشكلة اللّغوية التي نراها اليوم في استعمالاتنا اليومية للّغة، فهل نخضع الاستعمال للقياس في كل أوضاعه حتى و لو مج الذوق ذلك، و هل أن القياس محدود؟. في الحقيقة أن القياس يأتي تجسيدا للاستعمال، فهو يأتي توضيحا له بطريقة من الطرق، يوضع ما كان، لا ما يجب أن يكون بناء على المنظومة الاجتماعية المعقدة (اللّغة) و التي تؤدي وظيفتها بتكامل أنظمتها، فالمستعمل للّغة يتحرى الصدق فيها دون حدود تضبطه، فهو يستعمل كل نشاطه فيها بمستوى الصواب الخاص بكل نمط من أنماط اللّغة و في مقاماتها المختلفة. كما أن القياس غير محدود بإطار معين و ليس خاصا بعصر معين، اللّهم إلاّ بعض الحدود الكبيرة التي لا يجب تجاوزها و تعديها، و هي كالتي تتعارض مع ما يفسد هيئة الجملة، أو القياس على القليل و إلاّ فإن مجال القياس مفتوح في القياس على ما لم يقسه القدامى. و ما لا يقاس يعمل فيه السماع. و كان الأخفش الكبير (ت177هـ) في تعليل بعض الضواهر اللّغوية الخارجة عن القياس يقول: ليس هذا مما يقاس و إنما يعمل فيه السماع.

و من هنا نرى أن الاستعمال لا يحيط به كل قياس، و قد حصل هذا عند العرب الذين لم تفسد ألسنتهم. فقد روى الأصمعي (ت216هـ) عن أبي زيد أنه قال: "طفت في عليا قيس و تميم مدة أسأل صغيرهم و كبيرهم لأعرف ما كان أولى بالضم، و ما كان أولى بالفتح من عين الثلاثي في المضارع، فلم أجد لذلك قياسا يرجعون إليه، و إنما يتكلم كل امرئ منهم حسب ما يستحسن، و يستخف لا على غير ذلك"[1]. و من هنا ورد في أقوالهم ما يخالف تلك القواعد الموضوعة، فهم يجمعون "الريح على الأرواح" لا على الأرياح". و هذا لسيران الطبع عليها، و بسبب الطبع كما يصدر عن العربي ما يخالف القياس. و من ذلك قول الشاعر:

أتهجر بيتا بالحجاز تلفعت *** به الخوف و الأعداء من كل جانب

و يأتي القرآن الكريم يؤيد ذلك في كثير من الآيات مثل: "إن هذان لساحران". "و المقيمين الصلاة و المؤتون الزكاة".

و هذا يأتي تأييدا لمذهب السماع و مخالفة القياس، لأن العربية لم تكن محصورة داخل قاعدة معينة، و العربي متى قويت فصاحته ارتجل. أي تصرف فيها تصرف الأقحاح. و هذا بفضل الحرية الواسعة التي يتمتّع بها اللّسان العربي. و العربي أكثر ما يغيظـه

1- عبد الحميد الشلقاني. رواية اللّغة. ص316. دار المعارف القاهرة.

ما يخرج عن سليقته، و ذلك يعد من باب ما خالف القياس و كثر استعماله فهو فصيح بل إن مخالفة القياس مع قلة الاستعمال هو الفاسد.

و نحن نعلم أن القياس في بعض أبوابه يؤدي إلى التأويلات و التفريعات، و هذا ما يجب ألاّ يكون، فالتشدد في القياس كان في بداية أمره بعذر مقبول، إنه المحافظة على اللّغة من أن تصيبها البلبلة و الفساد و كان ذلك في المطلع الأول لعصر جمع اللّغة فكان لا بد من حدود صارمة تكفل لها سلامة البنيان و تميز أركانها و ما ينبغي الإشارة إليه أنه لا يجب الانزلاق مع الصيغ القياسية، و خاصة التمارين غير العلمية أي غير الوظيفية، و التي تؤدي إلى خلل في السماع و نترك السماعية لأن القياس ليس في كل الأحوال صحيحا و من ثمة يجب استخدامه بوعي كلّي مما يستجيب لروح القاعدة و مراعاة لما تفرضه حاجاتنا المتجددة في بيئتنا الاجتماعية. و يتّضح من كل هذا أنه لا ينبغي الاعتماد الكلي على القياس في كل مجالات استعمالاتنا لأنه محدود بل يجوز أن نلتجئ إلى غيره مثل الوضع اللّغوي و المجاز...إلخ.

و تجدر الإشارة ههنا إلى تفعيل دور مجامعنا اللغوية و إتاحة الفرصة لها بما تضمه من علماء أجلاء كي يمدونا بالمصطلحات الحديثة العلمية منها و التقنية بما يضمن لنا مسايرة ركب التطور الحضاري للشعوب و الأمم.

الفصـــل التـــاسع

النحـو العربـي واقـع و آفـاق

1- واقع تدريس النحو العربي
2- مشكلة تعليم قواعد النحو
3- جهود النحاة لحل المشكلة
4- الطرق المستخدمة في تعليم النحو
5- أهمية الارتباط بين قواعد اللغة و النصوص الأدبية الرفيعة.

1- واقع تدريس النحو العربي:

أصبح الدرس النحوي في مدارسنا العربية معقدا غاية التعقيد، صعب في نظر التلاميذ كل الصعوبة، جافّا كل الجفاف. إن هذا الأمر غريب للغاية، فالدرس النحوي كان يجب أن يكون بعكس ذلك تماما فهو ضبط لقواعد كلامنا و نطقنا و أدبنا، كما أنه تقعيد لأصول لغتنا و تراثنا و هو فوق ذلك كله حفظ لكتاب الله تعالى و لهذه المعجزة الخالدة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها و لا من خلفها، و العرب أمة فصاحة و بلاغة تتأثر بالبيان الرفيع و الجملة الوجيزة الموحية.

و لا مراء أن الغاية من تدريس النحو في مراحل التعليم العام و إنما هي إقامة اللسان و تجنب اللحن؛ "فإن قرأ المتعلم أو تحدث أو كتب، لم يرفع منخفضا و لم يكسر منتصبا"1. فالغاية إذا من تلقين النحو العربي للناشئة يتوخى منه سلامة ألسنتهم من الزلل و الفساد. و الحقيقة أن الغرض من تدريس النحو هو تكوين الملكة اللسانية الصحيحة، لا حفظ القواعد النحوية المجردة بعيدا عن النصوص الأدبية، فالعربي الأول الذي أخذت عنه اللغة النقية لم يكن يعرف ما الحال و ما المبتدأ و ما الخبر و ما البدل. فكل هذه المصطلحات النحوية قام بوضعها مشايخ النحو عندما وضعوا قواعد اللغة لحفظها من اللحن. "و مما لا شك فيه أن شيوع الأسلوب المنطقي في تعليل الظواهر النحوية و استنباط الأحكام أدى إلى ضعف ملكات الناشئة، و أفسد الذوق الأدبي في ألسنتهم، و أدى بعدد كبير من المثقفين إلى الوقوع في الخطإ و اللحن، مما كان السبب في جهل الشباب بأحكام النحو و أصوله، و في نطقهم المحرف البعيد عن المحجة و الصواب"2. فانشغال النحاة في المسائل المنطقية و المجادلات الذهنية الحادة بالبحث في العلل و التقديرات و التأويلات أدى إلى تصدع العلاقة بين اللغة العربية الفصيحة و الناطقين بها من جهة، و بين النحو و روح الفلسفة و المنطق من جهة أخرى. و ها هو ذا أبو حيان التوحيدي يروي لنا موقفاً طريفاً مع أعرابي و هو يقف على مجلس الأخفش، فسمع كلام أهله في النحو، فحار و عجب، و أطرق ووسوس فقال له الأخفش: ما تسمع يا أخا العرب؟! قال الأعرابي: أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا!.

1- علي أحمد مذكور. تدريس فنون اللغة العربية. ص 321. دار الفكر العربي القاهرة 1997.

2- مجلة التربية. الدرس النحوي في مدارسنا. محمد عبد المنعم خفاجي. ص 98. اللجنة الوطنية القطرية للتربية و الثقافة و العلوم. العدد 72. 1985م.

هكذا حدث الفراق بين النحو و اللغة، فدارت معظم الدراسات النحوية حول نفسها تستقي مادتها من الذهن لا من اللغة كما يقول محمد عيد: "و من الفلسفة العقلية لا من الواقع، و لا من بحوث ميدانية، قوامها الاستقراء و المتابعة، و من المصادرات التي تعتمد على القياس و الافتراضات لإخضاع الأمثلة طوعاً أو كرهاً للقواعد، لا من ملاحظة الناطقين باللغة و استعمالهم لها و متابعة ذلك بالدراسة المتطورة"1.

و لقد وصل بهم الأمر إلى أنهم أخضعوا النّص القرآني -و هو أبلغ النصوص العربية على الإطلاق- للقواعد النحوية، فأولوا فيه و قدروا، ليساير القواعد التي وضعوها. و كان الأولى أن يخضعوا قواعدهم لهذا النص المعياري البليغ، و هو الأصل الأول على الإطلاق في تقعيد اللغة. و هكذا أصبحت القواعد النحوية التي يجب أن توضع في الأصل وفق ما نطقت به العرب، أن صارت حجة عليهم، و هم فرسان الفصاحة و البلاغة. و يفسر لنا الدكتور تمام حسان هذا الموقف من النحاة قائلا: "إن النحاة حين قعدوا القواعد لم يأخذوا لهجة واحدة هي أفصح اللهجات و يدرسوها في مرحلة زمنية واحدة من مراحل تطورها، بل بدلا من ذلك درسوا لهجات عربية متعددة ليستخرجوا منها نظاما نحويا موحداً، و لقد درسوا هذه اللهجات المتعددة على فترة زمنية طويلة تجاوزت الخمسة قرون، و لم يفطنوا إلى ضرورة الفصل بين مرحلة و مرحلة أخرى من تطور اللغة، و بذلك أثاروا مشاكل كثيرة أيسرها اختلاف الأقوال و الآراء في المسألة الواحدة، و افتعال الحذف و التقدير، و التقديم و التأخير، و حمل الأساليب اللغوية على غير ظاهرها"2.

و الواقع أن النحو بالصورة التي يؤلف عليه و بالمنهج المتبع في تدريسه الآن قد أصبح علماً عقيماً، يلازمه الرجل سنين طويلة في مراحل تعلمه المختلفة بيد أنه يخرج منه خاوي الوفاض، ضعيف اللهجة و هش الملكة.

و لا عجب من ذلك إذ أن كثيرا من جهابذة النحو و المهرة في صناعة العربية كانوا يقعون في اللحن، يروي الزجاجي عن سيبويه أنه كان يملي على حماد بن سلمة قول الرسول صلى ا عليه و سلم: "ليس من أصحابي أحدٌ إلا لو شِئْتُ أخذتُ عليه، ليس أبا الدرداء" فقال سيبويه: "ليس أبو الدرداء، فصاح به حماد: "لحنتَ يا سيبويه، ليـ ـس

1- محمد عيد. في اللغة العربية و دراستها. ص 199-200. عالم الكتب. القاهرة 1974م.

2- تمام حسان. اللغة العربية معناها و مبناها. ص 13، الدار البيضاء. دار الثقافة.

هذا حيث ذهبت، و إنما هو استثناء، فقال سيبويه: "لا جرم، و ا لأطلبن علماً لا تلحنني معه، فمضى و لزم مجالس الأخفش مع يعقوب الخضرمي و الخليل و سائر النحويين"1. فإذا كان اللحن أصاب جهابذة النحو و المهرة في صناعة العربية قديماً في زمن الفصاحة اللغوية فما بالك في وقتنا الحاضر و قد تعددت اللهجات من المحيط إلى الخليج و تعددت الألسن بما لا مفر من الوقوع فيه جملةً و تفصيلاً، فهذه بنت الشاطئ تقول: "الظاهرة الخطيرة لأزمتنا اللغوية هي أن التلميذ كلما سار خطوة في تعلم اللغة ازداد جهلاً بها و نفورا منها، و صدودا عنها. و قد يمضي في الطريق التعليمي إلى آخر الشوط فيتخرج من الجامعة و هو لا يستطيع أن يكتب خطابا بسيطا بلغة قومه"2.

و ها هو طه حسين أيضا يدعو إلى تغيير هذه الأساليب التربوية العقيمة و إلى الاجتهاد في تحبيب الطلاب مطالعة النصوص الأدبية و تذوقها، و يصرح بصوت عال بأنه "ليس في مصر أساتذة للغة العربية و آدابها و إنما في مصر أساتذة لهذا الشيء الغريب المشوه الذي يسمونه نحوا و ما هو بالنحو، و صرفا و ما هو بالصرف، و بلاغة و ما هي بالبلاغة، و أدبا و ما هو بالأدب"3.

يبدو أن وضعية التعليم في كثير من البلاد العربية لا تبعث على الراحة و الطمأنينة في كل المستويات و لا تِؤدي دورها المنوط بها على أكمل وجه. لذلك لا بد من تربية الأذواق تربية ناجحة، و لا مناص من أخذ الشباب بمنهج جديد في تعليم اللغة يربطها ربطاً قويا بالنصوص الأدبية الرفيعة.

2- مشكلة تعليم قواعد النحو:

إن لب المشكلة ليس في اللغة ذاتها، و إنما الأمر يتعلق بكونها نتعلم و نعلم قواعد صنعة، و قوالب صماء نتجرعها تجرعاً عقيما، عوض أن نتعلمها لسان أمة و لغة حياة. إن النحو العربي من حيث محتواه و طرائقٌ تدريسه -كما تشهده مدارسنا- ليس علما لتربية الملكة اللسانية العربية، و إنما هو علم تعليم صناعة القواعد النحوية، و قد أدى هذا مع مرور الزمن إلى النفور من دراسته، و إلى ضعف الناشئة بشكل عام.

1- علي أحمد مذكور. تدريس فنون اللغة العربية. ص 321. دار الفكر العربي. القاهرة.

2- عائشة عبد الرحمان. لغتنا و الحياة. ص 196. دار المعارف. القاهرة 1971م.

3- طه حسين. في الأدب الجاهلي. ص 14. دار المعارف بمصر 1964م.

3- جهود العلماء لحل المشكلة:

تنقسم الدراسات التي تدور حول النحو مادة و طريقة إلى قسمين:

قسم الدراسات القديمة، و محاولات التيسير التي قام بها المشتغلون في الميدان من وحي خبراتهم و ملاحظاتهم الطويلة للواقع.

و قسم الدراسات الميدانية و التجريبية التي قام بها الدارسون الذين ينشدون الحصول على الدرجات العلمية و الترقي إلى درجات أعلى لنيل شهادتي الماجستير أو الدكتوراه.

ا- الدراسات القديمة:

أحس النحاة قديماً بالعبء الكبير الذي حملوا أنفسهم عليه و أرادوا أن يحملوا الناس عليه أيضا، فووجهوا بالنفور و الإعراض الكبيرين عن بضاعتهم المضطربة، و تنبهوا إلى ضرورة تيسير النحو على الناشئة حتى يستسيغوه و يتذوقوه منهم. و كان من نتيجة ذلك أن ألفوا المختصرات الكثيرة في النحو "كالمختصر الصغير" للكسائي، و قد نقل هذا الكتاب إلى الأندلس في القرن الثاني للهجرة و ظل أهل الأندلس يتدارسونه ما يقارب القرنين. ثم توالت المختصرات، كمختصر الزجاج، و أبي حيان الأندلسي و أبي علي الفارسي و غيرهم. و ألفّ خلف بن حيان الأحمر البصري -و قد أحس بفداحة الأمر– رسالةً سماها "مقدمة في النحو" ظناّ منهم أن من يقرْأها و يحفظها يكن له حظ من النحو كلّه.

و في أوائل القرن العشرين ألّف حفني ناصف كتباً للمدارس الابتدائية و الثانوية سار فيها على منوال ابن هشام في القرن السابع الهجري. ثم جاء علي الجارم بكتابه المشهور "النحو الواضح" مغيرا في الطريقة، و مستخدما للنصوص الأدبية بروح الأديب الشاعر، و ظل الأمر على هاته الحال حتى جاء إبراهيم مصطفى و كتابه المشهور "إحياء النحو" عام 1937م.

و استمرت جهود العلماء هنا و هناك، و علت صيحات العاملين في ميادين التربية و التعليم و أقيمت المؤتمرات و أنجزت البحوث، و قدمت التوصيات، لكن كل ذلك بقي حبيس الأدراج. و الآفة استفحلت و العلل استشرت، فلا حياة لمن تنادي!

ب- الدراسات الميدانية:

أما الدراسات الميدانية فيمكن تصنيفها في الاتجاهات الأربعة التالية.

الإتجاه الأول:

و يتمثل في حصر الأخطاء الشائعة لدى الطلاب، و قياس مستوى التحصيل، وقد تجلى هذا الإتجاه واضحا في دراسات كثيرة نذكر منها:

1- دراسة قام بها محمود أحمد السيد للحصول على درجة الدكتوراه عام 1972م و كان موضوعها :"أسس اختيار موضوعات القواعد النحوية في منهج تعليم اللغة العربية بالمرحلة الإعدادية".

و كان الهدف من هذه الدراسة هو بناء منهج القواعد النحوية في المرحلة الإعدادية بناء على أسس موضوعية غير معتمدة على التقدير الشخصي و الآراء الذاتية.

2- و في دراسة قام بها محمد رمضان فارس عام 1975م للحصول على الماجستير بعنوان :" التعرف إلى الأخطاء الشائعة في قواعد اللغة العربية لدى الطلبة في نهاية المرحلة الإعدادية في الأردن".

وكان الهدف من هذا البحث التعرف إلى الأخطاء الشائعة في قواعد اللغة العربية لدى طلاب الصف الثالث الإعدادي في الأردن، في المدارس الحكومية، و الخاصة و المدارس التابعة لوكالة الغوث.

3- وفي عام 1978 م قام هشام عامر عليان بدراسة للحصول على الماجستير بعنوان : "مستوى التحصيل في النحو عند طلبة تخصص اللغة العربية في معاهد المعلمين و المعلمات في الأردن".

الإتجاه الثاني:

و يتمركز هذا الاتجاه حول طرائق تدريس النحو: تحسينها و تطويرها. و يتمثل في بعض الدراسات منها:

1- في مصر قام محمود أحمد السيد عام 1969 م بدراسة للحصول على الماجستير عنوانها " دراسة مقارنة بين طرائق تدريس قواعد اللغة العربية" وقد قامت هذه الدراسة على أساس أن ضعف التلاميذ في النحو يعود بالدرجة الأولى إلى طرائق التدريس المتبعة.

2- وفي دمشق قامت حورية الخياط عام 1979 م بدراسة للماجستير بعنوان :" فعالية التعليم المبرمج في تدريس النحو في المرحلة الإعدادية".

و كان الهدف من البحث بيان مدى فعالية التعليم المبرمج في تدريس النحو في المرحلة الإعدادية مقارنة بالطريقة التقليدية.

الاتجاه الثالث:

و يدور هذا الاتجاه حول قضية إعادة بناء منهج النحو على أسس و معايير وظيفة و موضوعية ومن الدراسات في هذا الاتجاه:

1- دراسة محمد صلاح الدين علي مجاور عام 1956 م في مصر، و عنوانها "أدوات الربط في اللغة العربية و مدى قدرة تلاميذ المرحلة الإعدادية غلى استعمالها". و تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على مدى قدرة تلاميذ المرحلة الإعدادية على استعمال تلك الأدوات.

2- دراسة حورية الخياط في مصر سنة 1982 م للدكتوراه عنوانها "إعادة بناء مفاهيم النحو في المرحلة الإعدادية. و كان أهم أهداف هذه الدراسة هو: كيف يمكن إعادة بناء مادة النحو في المرحلة الإعدادية بالجمهورية العربية السورية بناء يؤدي إلى تحقيق الأهداف المبتغاة من تدريس هذه المادة؟

الاتجاه الرابع:

و يدور هذا الاتجاه حول تحديد مشكلات تدريس اللغة العربية عامة، و النحو خاصة ومن الدراسات:

1- دراسة صالح جواد الطعمة في العراق سنة 1971م بعنوان :" مشكلات تدريس اللغة العربية في مرحلة الدراسة الثانوية".

و كان الهدف من الدراسة الكشف عن صعوبات دراسة و تدريس النحو في المرحلة الثانوية من حيث المنهج و الموضوعات المقررة خاصة.

2- دراسة إدارة التربية بالمنظمة العربية للتربية و الثقافية والعلوم عام1974م "حول تعليم اللغة العربية في مراحل التعليم العام بالبلاد العربية". وقد هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على واقع تعليم اللغة العربية، و المشكلات التي تواجهها واستطلاع الرأي حول وسائل معالجة هذه المشكلات.

ومن العرض السابق للدراسات قديمها و حديثها تتبين الجهود المضنية التي بذلت لتطوير منهج النحو مادة و طريقة بيد أنها بقيت متمركزة حول علم صناعة القواعد العربية، ولم تبتكر الطرائق و الأساليب الإيجابية الحية التي تجعل دراسة القواعد وسيلة فعالة في تنمية الملكة اللسانية التي هي الهدف الأساسي المتوخى من تعليم و تعلم العربية.

4- الطرائق المستخدمة في تعليم النحو:

إن أفضل أسلوب و أنجع طريقة في تلقين النحو العربي، هو الأسلوب الطبيعي الذي يعتمد على ممارسة اللغة سماعاً و كلاماً و قراءةً و كتابةً، و على هذا الأساس فالاستعمال –كما يقول ابن خلدون- و محاكاة الأساليب اللغوية الصحيحة و التدريب عليها تدريبا متصلا –كما أسلفنا الحديث في فصول سبقت- هو الأسلوب الأمثل في تدريس القواعد النحوية. بيد أن أهم الطرق التقليدية الشائعة في مؤسساتنا التعليمية في تدريس النحو ما يلي:

1. الطريقة القياسية:

و أساس هذه الطريقة هو حفظ القاعدة، ثم اتباعها بالأمثلة و الشواهد المؤكدة لها و الموضحة لمعناها. و الطريقة هذه ترى في حفظ القواعد و استظهارها غاية في ذاتها لا وسيلة. و كان من نتائج هذه الطريقة عزوف كل من المعلمين و المتعلمين عن الدرس النحوي، و العجز عن تكوين السلوك اللغوي السليم. فالموقف الذي يتعلم فيه التلاميذ القواعد طبقا لهذه الطريقة موقف صناعي بعيد عما جاء من أجله النحو. و من أشهر الكتب المؤلفة وفقا لهذه الطريقة كتاب "شرح الألفية لابن عقيل".

و الطريقة القياسية هي إحدى طرق التفكير التي يستخدمها العقل في الوصول من المعلوم "(المقيس عليه) إلى المجهول (المقيس)" كما بيّنّا ذلك في الفصل الخاص بالقياس اللغوي. و بالرغم من سهولة حفظ القاعدة بهذه الطريقة إلا أنها تعود التلاميذ على الحفظ و المحاكاة العمياء، و عدم الاعتماد على النفس، كما أنها تضعف فيهم القدرة على الإبداع و الابتكار و المنافسة. و من عيوب هذه الطريقة أيضا أنها تنطلق من الأحكام العامة الكلية التي تكون -في الغالب- صعبة الفهم و الإدراك ثم تنتهي بالجزئيات. و قد أدى هذا إلى نفور التلاميذ من دراسة النحو، و قد هجرت هذه الطريقة بعد أن ثبت علميا أنها لا تكون السلوك اللغوي عند التلاميذ.

2. الطريقة الاستنباطية:

تقوم هذه الطريقة على البدء بالأمثلة المتضمنة لموضوع الدرس، تشرح و تناقش ثم تستنبط منها القاعدة النحوية. و هذا هو المتّبع –غالبا- في مناهج النحو في معظم الأقطار العربية في المراحل المختلفة من التعليم.

فدروس النحو بهذه الطريقة الاستنباطية غالبا ما تبدأ بنص كامل، يقرأ و يناقش مع التركيز على الشواهد، ثم تستنبط منه القاعدة. و لم تسلم هذه الطريقة من العيوب، فقد وقع في النصوص المختارة تكلّف في صياغتها وفق ما يخدم القاعدة، و في كثير من الأحيان أيضا تدرس الأمثلة مبتورة من النص بعيدة عنه، خالية من الروح ما من شأنه أن يسيء إلى أذواق المتعلمين.

و إذا كانت هذه الطريقة المستخدمة في تدريس النحو العربي عقيمة غير عملية وظيفية، تبعث على النفور من تعلمها فما هو المنهج الذي ينبغي اتباعه لتحقيق الغاية من تدريس النحو؟

إنه المنهج الذي يربط القاعدة النحوية بالنص الأدبي الرفيع الذي تُتوخّى منه تربية الملكة اللسانية لدى المتعلم. إن الهدف الأساسي من تعليم اللغة هو تمكين المتعلم من فهم التعبير السليم الواضح الذي يستمع إليه، أو ينطق به، أو يقرؤه، أو يكتبه. و لا يتحقق هذا الهدف في المتعلم إلا إذا اكتسب ملكة اللغة، فاللغة –كما يقول ابن خلدون-: هي عبارة المتكلم عن مقصوده[1].

فاللغة عنده إذا أداة يعبر بها المتكلم عما يدور في خلجات نفسه، و ما يختزن في فكره و عن همومه و اهتماماته فيما هو متعارف عليه في جيله.

و لتحقيق هذا المبتغى كان لا بد من تربية الأذواق تربية ناجحة، و لا مناص من أخذ الشباب بمنهج جديد في تعليم اللغة بربطها ربطا قويا بالنصوص الأدبية الرفيعة المستوى.

5- أهمية الارتباط بين قواعد اللغة و النصوص الأدبية الرفيعة:

إن الظاهرة الخطيرة أمامنا هي استصعاب الشباب للقواعد و جهلهم بها، و بعدهم عن السلامة اللغوية بعدا تاما، و لا مفر لنا من الرجوع إلى دراسة القواعد على أساس قوي من حكم النصوص الأدبية، و اتخاذ هذه النصوص وسيلة لاستنباط الأحكام المتصلة

---

[1] ابن خلدون. المقدمة. ص 546. دار القلم بيروت لبنان 1978م.

بقواعد اللغة. و الارتباط بين قواعد اللغة و النصوص الأدبية أمر له بالغ الأهمية و ذو أثر كبير فعال في صحة الألسنة، و صفاء اللغة، و سلامة النطق. فقراءة الشباب للنص الأدبي الرفيع، و فهمه له، و وقوفه على خصائصه، يعطيه الملكة القادرة على البيان، و الموهبة المبدعة للأدب، و يقوي الحاسة الأدبية في وجدانه و أعماق شعوره و يجسد أمامه النماذج الحية البليغة التي يجب أن يقول على نمطها، و أن ينشئ الأدب على منوالها، و أن يقتبس من فصاحتها، و يأخذ من بلاغتها ما يطبع لسانه على البيان الجيد، و التعبير البليغ. ثم أن هذا النص الذي نقدمه للشباب المتعلم، يظل مرتسما في وجدانه و أعماق نفسه، نموذجا حيا للقاعدة التي يؤتى به من أجلها، و عندئذ تنصهر القاعدة في نفسه، و تظل مرتسمة في عقله الباطن، و تصبح سهلة عنده، قريبة المنال واضحة كل الوضوح، حيث لا خفاء و لا التواء.

و هكذا بقراءة هذا النص و حفظه، فإنه يحرك لسان الشباب نحو سلامة النطق و صحة الأداء، و سلامة الإعراب، فلا يخطئ في فاعل فينصبه، و لا في مفعول فيرفعه، و لا في مخفوض فيغيره من الخفض إلى حكم إعرابي آخر. ومن ثم فلا مناص لنا من الربط القوي بين قواعد اللغة و النصوص الأدبية في مناهج الدراسة فإن أهمية ذلك و فائدته و أثره واضحة للعيان كل الوضوح، فالنصوص الأدبية يجب أن تكون أساسا قويا لدراسة قواعد اللغة.

و من البديهي أن النصوص الأدبية المختارة يجب أن تكون من البلاغة و الجمال و التأثير ومن الوضوح و البعد عن الغرابة بمكان كبير، فتخير النصوص تخيرا سليما هو أهم ما في الأمر لأنه الأساس الذي سنبني عليه الخروج إلى منهج جديد في دراسة قواعد اللغة. على أن النصوص الأدبية التي تقدم للشباب ينبغي أن تكون على مستويين إثنين:

مستوى يستخدم لاستنباط قواعد اللغة و أحكامها و يستحسن أن يكون من النصوص القديمة من عصور الاستشهاد و الاحتجاج.

و مستوى يستعان به لإضاءة القاعدة و تقريبها إلى أذهان المتعلمين وهنا نشير إلى أنه بالإمكان الرجوع إلى نصوص مختلف العصور حتى نصوص العصر الحديث.

إن المنهج الأدبي في دراسة قواعد اللغة العربية ضرورة ملحة و ذلك باللجوء إلى النص و إضاءته و تفسيره و تحليله و استنباط القاعدة منه، ثم تقرير هذه القاعدة و شرحها و إجمال الأحكام التي تدور حولها.

توصيات:

1. التوقف على تعليم القواعد النحوية بشكلها الحالي الذي يبعث على النفور دون أن تترك أثرا يذكر في تربية الملكة اللسانية لدى المتعلمين.

2. إن اكتساب الملكة اللسانية التي تصون اللسان و القلم عن الخطإ و الزلل، إنما تكتسب بالتعليم و الميران و الدربة، من خلال دراسة أو حفظ النصوص الأصيلة الراقية، و الشواهد الحية، فعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المصنوع نظما و نثرا.

3. إن الملكة اللسانية لا تربى من خلال نصوص تحفظ دونما فهم، فالملكة لاتحصل من الحفظ دون الفهم، و التطبيق و التحليل و التفسير و النقد و التقويم للنصوص المدروسة.

4. يجب أن يراعى -في توزيع برامج قواعد اللغة- الجوانب العقلية و النفسية و الوجدانية للمتعلمين، و التدرج فيه من السهل إلى الصعب و من البسيط إلى المركب بحسب أطوار ومراحل التعلم.

5. أن تحذف من كتب الدراسة لقواعد اللغة العربية الأحكام التي تخالف رأي جمهور النحاة، و كذلك المسائل التي يؤتى بها شاذة لتعليل ظاهرة نحوية معينة.

6. أن تدرس القواعد النحوية الدراسة العلمية العميقة في مراحل التخصص العلمي وفي هذا المجال يحق للمتعلمين الإبحار و الغوص في أعماق هذه اللغة و البحث عن لآلئها و نفائسها وما أعجبها و أغربها.

7. يجب الاهتمام بحفظ النص جيدا بعد دراسته و فهمه خاصة إذا كان من القرآن الكريم, و الحديث الشريف أو كان من الأدب الراقي شعره و نثره، بحيث ينطبع في نفس المتعلم، فيقتبس منه و ينسج على منواله في كلامه و كتابته.

8. يجب أن يوكل أمر اختيار النصوص إلى لجنة متخصصة من كبار العلماء و الأدباء الضالعين في العربية حرصا على سلامة التخير رفقة علماء النفس و خبراء المناهج

قصد انتقاد أروع الآثار الأدبية من مختلف العصور لتكون أساسا قويا في تلقين قواعد النحو.

9. استغلال باقي أنشطة اللغة كالمطالعة و التعبير الشفوي و الكتاب لكونها تمثل كذلك روافد تعين على سلامة النطق و جودة التعبير و روعة الأسلوب.

10. إن تدريس فنون اللغة المتنوعة من استماع و مطالعة و نصوص ونحو و بلاغة و عروض و تعبير، كل ذلك يجب أن يصب في النهر الأعظم إنه اللسان العربي المبين.

الخاتمـــة:

ها أنا ذا أصل إلى خاتمة هذا الإنجاز المتواضع بعدما حاولت في الفصول السابقة تتبع مفهوم السليقة اللغوية في التراث النحوي عند العرب بدءا بالقدامى و انتهاء عند المحدثين.

ولا أزعم لنفسي أني أحطت بكل أجزاء هذا الموضوع لكن أرجو أن أكون قد ألممت -على الأقل- بمعالمه الكبرى التي من شأنها أن تقودها إلى جوانب هامة منه.

فالسليقة عند قدماء لغويينا ونحاتنا تمثل مرحلة من مراحل إتقان اللغة حسبما هو متداول دون التصرف فيها، وقد سيطرت عليهم فكرة مفادها أن أمر الكلام بالعربية يرتبط ارتباطا قويا بالجنس العربي، لذا فهم يرون أنه لا مجال لإتقان هذه العربية بالنسبة إلى من دونهم من العجم مهما ثابروا في المران عليها.

و ظل هذا الاعتقاد سائدا في الأذهان إلى أن ظهر الرجل العبقري عبد الرحمن بن خلدون في عصر الضعف، فترصد تجارب الأولين و صقلها بعبقريته الفذة، فقدم بذلك آراء جريئة و تصورات جديرة بالدراسة فاقت ما توصل إليه المحدثون من جديد في حقل اللغة.

تناول ابن خلدون في مقدمته الشهيرة مفهوم الملكة اللسانية وطرق تحصيلها وبيان علاقة علوم اللسان العربي، ومدى خدمتها لهذه الملكة اللسانية، فهو يرى أنه كلما كان المناخ صافيا نقيا بعيدا عن آثار العجمة كلما كان حصول هذه الملكة قائما عن طريق العناية بعلوم اللسان و مدارستها، و انتقاء جيد كلام العرب شعرا و نثرا و حفظه فبذلك تتم الملكة و تجود.

فإذا كان هذا المفهوم-قديما– ارتبط بالبيئة العربية النقية الخالية من آثار العجمة و العرب فيها على غاية ما جادت به قرائحهم من ضروب القول و صنوف الكلام و روعة البيان، فما عسانا نحن اليوم أن نأتي به من تحد يخدم لساننا العربي في زمن تعقدت فيه سبل الحياء، و فسدت فيه الأذواق، ولا مجال للضعفاء فيه. إن الخطر داهم لا محالة، و عبء مسؤولية درئه لثقيل.

ولا مشاحة أن بداية التحدي إنما هي في تكوين مؤسسات تعليمية أصيلة متشبعة بمقومات الحضارة العربية الإسلامية من جهة، ومتفتحة على الثقافات الأخرى في غير انحلال ولا ذوبان مع تأطيرها بخيرة الكفاءات، فضلا عن فتح قنوات الإتصال المكتوبة

و المرئية و المسموعة مدعمة بنخبة من رجال الصحافة و الإعلام مع فسح المجال واسعا أمامهم للتفنن و الابتكار، ما من شأن ذلك أن يكون له سلطان كبير على توجيه الرأي العام، وتنمية ذوقه، و الرفع من ثقافته.

إن كثير من المؤسسات التعليمية في البلاد العربية لا تزال تقدم دروس النحو وسائر أنشطة اللغة العربية للمتعلمين بطريقة جافة تبعث على النفور بما جعل درس النحو غير مرغوب فيه مملولا ممجوجا.

فقد بات من الضروري تحديث مناهج تدريس النحو العربي عن طريق العناية بانتقاء النصوص الأدبية الرفيعة البليغة شعرا كانت أم نثرا، وجعلها منطلقا لدرس النحو مع اعتماد طرق مرنة كفيلة بتحصيل الملكة اللسانية لدى المتعلمين.

وفي الختام أرجو من ا تعالى أن يوفقنا في عملنا هذا، وما التوفيق إلا من عنده تبارك و تعالى.

"وَقُل اعمَلُوا فَسَيَرَى ا ُ عَمَلَكُم وَرَسولُه وَ الْمؤْمِنُونَ".

سورة التوبة الآية 105.

مختـــــــــارات

في فضل العلم و العلماء

قال تعالى :" يرفع ا اللذين امنوا منكم و اللذين أوتوا العلم درجات"

- قال تعالى :" شهد ا أنه لاإله إلا هو و الملائكة و ألو العلم قائما بالقسط".

-قال صلى ا عليه و سلم :" أفضل الناس المؤمن العالم الذي إن احتيج إليه نفع و إذا استغنى عنه أغنى نفسه".

- وقال (ص) : الإيمان عريان و لباسه التقوى و زينته الحياء و ثمرته العلم".

- وقال (ص) :أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم و الجهاد, أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل , و أما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ماجاءت به الرسل".

-وقال (ص) :الناس معادن كمعادن الذهب و الفضة, فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا.

-قال علي بن أبي طالب رضي ا عنه لكميل :"يا كميل ,العلم خير من المال ,العلم يحرسك و أنت تحرس المال,و العلم حاكم و المال محكوم عليه, و المال تنقصه النفقة و العلم يزكو بالإنفاق.

-قال ابن عباس رضي ا عنهما :"للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة, ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام".

-وقال علي رضي ا عنه :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهـ ـ ـ م * على الهدي لمن استهدى أدلاء.

و قدر كل امرىء ما كان يحسنـ ـ ه * و الجاهلون لأهل العلم أعداء.

ففز بعلم تعشق حيا به أبـ ـ ـ ـ ـ دا * الناس موتى و أهل العلم أحياء.

" اعلم أن مشرف العقل من حيث كونه فطنة العلم و الحكمة , والة له .و لكن نفس الإنسان معدن للعلم و الحكمة , و مشبع لها , و هي مركوزة فيها بالقوة , في أول الفطرة , لا بالفعل كالنار في الحجر , و الماء في الأرضي و النخل في النواة . و لا بد من سعي في إبرازه بالفعل , كما لابد من سعي في حفر الأبار بخروج الماء . ولكن كما أن من الماء ما يجري من غير فعل بشري . و منه ما هو كا من محتاج في انشياطه إلى حفر و تعب , و منه ما يحتاج فيه إلى تعب قليل , كذلك العلم في النفوس البشرية : منه ما يخرج إلى الفعل من القوة , من غيرتعلم بشري , كحال الأنبياء علمهم السلام , فإن علومهم تظهر من جهة الملإ الأعلى من غير واسطة بشري , و منه ما يطول الجهد فيه , كأحوال العامة من الناس , لا سيما نحو البلادة الذين كبرت سنهم في الغفلة و الجهل ولم يتعلموا زمن الصبا, ومنه ما يكفي فيه السعي القليل كحال الأنبياء من الصبيان."

أبو حامد الغزالي.

" و قد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم و إفادته , و يحضرون للتعليم في أول المسائل المقفلة

من العلم و يطالبونه بإحضار ذهنه في حلها , و يحسبون ذلك مرانا على التعليم و صوابا فيه , و يكلفونه رعي ذلك و تحصيله , و يخاطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها , و قبل أن يستعد لفهمها , فإن قبول العلم و الاستعدادات لفهمه تنشا تدريجيا , و يكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة إلا في الأقل و على سبيل التعريب و الإجمال و بالأمثال الحسنة . لم لا يزال الاستعداد فيه فيدرج قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن و تكرارها عليه, و الانتقال فيها من التعريب إلى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل , و يحيط هو بمسائل الفن , و إذا ألقيت عليه الغايات في البدايات و هو حينئذ عاجز عن الفهم

و الوعي و بعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها , و حسب ذلك في صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه , و انحرف عن قبوله و تمادى في هجرانه , و إنما أتى ذلك في سوء التعليم."

(المقدمة .ابن خلدون)

قال الخليل بن أحمد :

"الرجال أربعة : رجل يدري ويدري أنه يدري فسلوه , و رجل يدري و لا يدري أنه فذاك ناس فذكروه , و رجل لا يدري و يدري أنه لايدري فذلك مسترشد فعلموه , و رجل لا يدري و لا يدري أنه لايدري فذلك جاهل فارفضوه."

مما نقله ابن قتيبة في عيون الأخبار.

المصادر و المراجع:

- أصول النحو العربي. د. محمد عيد. طبع القاهرة 1978م.

- إنباء الرواة على أنباء النحاة. ج3. علي بن يوسف القفطي. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم. طبع دار الكتب القاهرة 1950م.

- الأضداد. أبو بكر محمد القاسم بن الأنباري. الكويت 1960م.

- الاقتراح في علم أصول النحو. جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. تحقيق د. أحمد محمد قاسم. طبعة القاهرة 1976م.

- الأدب المفرد. للبخاري. المطبعة السلفية. مصر 1375هـ.

- الألسنية التوليدية و التحويلية و قواعد اللغة العربية. د. ميشال زكرياء. المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع. بيروت لبنان 1982م.

- الإنصاف في مسائل الخلاف. لأبي بكر محمد القاسم بن الأنباري. مطبعة الاستقامة القاهرة 1364 هـ.

- بغية الوعاة. لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي. مطبعة السعادة. مصر 1326هـ.

- البيان و التبيين. لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر. مصر 1368هـ.

- تاريخ اليمن القديم. عبد القادر بافقيه. مطبعة الحرية بيروت لبنان 1973م.

- تاريخ آداب العرب. مصطفى صادق الرافعي. القاهرة 1911م.

- تاريخ الأدب العربي. (العصر الجاهلي). د. شوقي ضيف. دار المعارف مصر 1971م.

- تاريخ العلامة ابن خلدون. م1 ط2. مكتبة المدرسة و دار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر بيروت لبنان. 1979م.

- تاريخ اللغة العربية في مصر. د. أحمد مختار عمر. طبع بالقاهرة 1970م.

- تدريس فنون اللغة العربية. د. علي أحمد مدكور. دار الفكر العربي. القاهرة 1997م.

- التعريفات. الشريف علي بن محمد الجرجاني. دار الكتب العلمية. بيروت لبنان 1995م.

- تهذيب تاريخ دمشق. لابن عساكر: لعبد القادر بدران (1-5) مطبعة روضة الشام 1332هـ.
- خزانة ال\أدب للبغدادي. المطبعة السلفية. القاهرة 1348هـ.
- الخصائص. ج1 لأبي الفتح عثمان بن جني. دار الهدى للطباعة و النشر بيروت لبنان.
- الرد على النحاة. لأحمد بن عبد الرحمن بن مضاء القرطبي. تحقيق د. شوقي ضيف. طبعة القاهرة 1947م.
- رواية اللغة. عبد الرحمن الشلقاني. دار المعارف القاهرة.
- الرواية و الاستشهاد باللغة. د. محمد عيد. طبع بالقاهرة 1976م.
- الصاحبي في فقه اللغة. بيروت 1964م.
- ضحى الإسلام. أحمد أمين. ج2. لجنة التأليف و الترجمة و النشر 1938م.
- طبقات الشعراء. لأبي عبد ا محمد بن سلام الجمحي. دار النهضة العربية للطباعة و النشر. بيروت لبنان 1969م.
- طبقات الحنابلة. لابن أبي يعلى. مطبعة الاعتدال دمشق 1350هـ.
- طبقات النحويين و اللغويين. للزبيدي. تحقيق أبي الفضل إبراهيم. القاهرة 1954م.
- ظاهرة الإعراب في النحو العربي. لأحمد سليمان ياقوت. ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1983م.
- عن لغة القرآن لغة العرب المختارة. د. محمد رواس قلعة جي. دار النفائس بيروت لبنان 1988م.
- علم اللغة. د. عبد الواحد وافي. طبع بالقاهرة 1967م.
- علم اللغة العربية. د. محمود فهمي حجازي. طبع بالكويت 1973م.
- العمدة في صناعة الشعر و نقده. ج1. لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني. طبع بالقاهرة 1925م.
- عيون الأخبار. لابن قتيبة. دار الكتب المصرية 1343هـ.
- فحولة الشعراء. لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي. تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، و طه الزين. طبع بالقاهرة 1968م.

- فقه اللغة في الكتب العربية. د. عبده الراجحي. دار المعرفة الجامعية الأسكندرية مصر 1988م.

- فقه اللغة. د. عبد الواحد وافي. دار النهضة للطبع و النشر مصر.

- فقه اللغة لأبي منصور عبد ا بن محمد الثعالبي. دار العرب للكتاب بيروت 1981م.

- الفروق الفردية في اللغة. لأبي هلال العسكري. تحقيق دار الآفاق الجديدة بيروت.

- الفكر التربوي عند العرب. إبراهيم النجار و البشير الزريبي. الدار التونسية للنشر 1985م.

- في أصول النحو. سعيد الأفغاني. دار الفكر دمشق 1964م.

- في الأدب الجاهلي. د. طه حسين. دار المعارف مصر 1964م.

- في اللغة العربية و دراستها. د. محمد عيد. عالم الكتب القاهرة 1974م.

- في إرشاد الأريب لمعرفة الأديب (المعروف بمعجم الأدباء). لياقوت الحموي. مطبوعات دار المأمون مصر 1355هـ.

- في نحو اللغة و تراكيبها. د. خليل أحمد عمايرة. ط1. عالم المعرفة للنشر و التوزيع جده المملكة السعودية 1984م.

- القياس في اللغة العربية. محمد الخضر حسين. المؤسسة الوطنية للكتاب. 1986م.

- القياس في النحو. د. منى إلياس. ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1985م.

- قواعد التحديث. جمال الدين القاسمي. مطبعة ابن زيدون دمشق 1353هـ.

- كتاب الصناعتين. لأبي هلال العسكري. مطبعة دار الكتب العلمية بيروت 1981م.

- لمع الأدلة. لأبي البركات الأنباري. تحقيق سعيد الأفغاني. مطبعة الجامعة السورية 1957م.

- لسان العرب. لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور. دار بيروت للنشر 1968م.

- لغتنا و الحياة. عائشة عبد الرحمن. دار المعارف القاهرة 1971م.

- اللغة العربية عبر القرون. د. محمود حجازي. دار الكتاب العربي القاهرة.

- اللغة بين المعيارية و الوصفية. د. تمام حسان. طبع بالقاهرة 1958م.

- اللغة العربية معناها و مبناها. د. تمام حسان. طبع بالقاهرة 1973م.

- اللسانيات من خلال النصوص. د. عبد السلام المسدي. الدار التونسية للنشر.
- اللغة بين الوهم و سوء الفهم. د. كمال بشر. دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع. القاهرة 1999م.
- محاضرات في علم النفس اللغوي. ط2. د. حنفي بن عيسى. الشركة الوطنية للنشر و التوزيع. الجزائر 1980م.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها. جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم. طبع بالقاهرة.
- مدارس النحو. ط2. د. شوقي ضيف.. دار المعارف القاهرة 1972م.
- مراتب النحويين. لأبي الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم. طبع بالقاهرة 1955م.
- مصادر اللغة في الكتب العربية. عبد اللطيف الصوفي. دار الهدى عين مليلة. الجزائر.
- مفتاح السعادة و مصباح السيادة. ج2. طاش كبرى زاده. طبعة الهند.
- مقدمة ابن خلدون. دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان.
- مناهج البحث في اللغة. د. تمام حسان. مكتبة الأنجلو المصرية 1955م.
- من أسرار اللغة العربية. د. إبراهيم أنيس. القاهرة 1966م.
- الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء. لأبي عبد ا بن عمران المرزباني. المطبعة السلفية القاهرة 1343هـ.
- نقد النثر. لأبي الفرج قدامة بن جعفر البغدادي. دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1982م.
- وحي القلم. ج3. مصطفى صادق الرافعي. دار الكتاب العربي بيروت لبنان.
- الوساطة بين المتنبي و خصومه. للقاضي الجرجاني. دار إحياء الكتب العربية 1364هـ.
- وفايات الأعيان. ج1. لأبي العباس أحمد بن محمد بن خلكان. مكتبة النهضة القاهرة 1948م.
- وقائع لغوية و أنظار نحوية. د. سالم علوي. دار هوما للطباعة و النشر و التوزيع الجزائر 2000م.

المجـــــلات:

- مجلة اللسانيات. م1. معهد العلوم اللسانية و الصوتية. الجزائر 1971م.
- مجلة اللسانيات. م2. 1971.
- مجلة اللسانيات. الأعداد (4-5-6).
- مجلة اللسانيات. ع7. مركز البحوث العلمية و التقنية لترقية اللغة العربية الجزائر 1997م.
- مجلة اللغة العربية. المجلس الأعلى للغة العربية. عدد خاص بالمنظومة التربوية الجزائر 2000م.
- مجلة اللغة العربية. ع2. المجلس الأعلى للغة العربية الجزائر 1999م.
- مجلة اللغة العربية. المجلس الأعلى للغة العربية. (إتقان اللغة العربية في التعليم) الجزائر 2000م.
- مجلة اللغة العربية. ع4. المجلس الأعلى للغة العربية. الجزائر 2001م.
- مجلة مجمع اللغة العربية. مؤتمر الدورة الثلاثين. (1963-1964م). الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية القاهرة 1965م.
- مجلة المجمع العلمي العربي. ع14. مطبعة الترقي دمشق.
- مجلة التربية. ع72. اللجنة الوطنية للتربية و الثقافة و العلوم. قطر 1985م.

تـــــم بحمـــــد ا

فهرس الموضوعـــات